نزار قبانى شاعراً سياسياً

دراسة موضوعية

د. عبد الرحمن محمد الوصيفى



الإهداء

إلى زوجتى الحنون

التى غمرتنى بحبها ووفائها وحنانها وكانت مصدر عطاء لا ينضب ، وواحة حب لم يتسرب إليها الخريف .. بل غدت ربيعاً ممتداً لا يملك إلا العطاء والاخضرار ... فى عالم محاصر بصحارى الحقد والكراهية ... وأنياب الخوف والرعب .

ففى ظلالك أيتها الحبيبة عرفت الأمن والسكينة بعد طول عناء فى هجير الجدب .

فإليك أيتها الحبيبة الوفية أهدى هذا الكتاب ،،

دكتور

عبد الرحمن محمد الوصيفى

الشعرُ ليسَ حماماتٍ نـطيّرها

نحوَ السماءِ، ولا نايأ.. وريحَ صَبا

لكنّهُ غضبٌ طـالت أظـافرهُ

ما أجبنَ الشعرَ إن لم يركبِ الغضبا

" من مفكرة عاشق دمشقى "

إننى رافض زمانى وعصرى

ومن الرفض تولد الأشياء

"إفادة فى محكمة الشعر"

تقديم

د. الطاهر أحمد مكى

للمتنبى بيت شعر يصف فيه حاله مبدعا ، ويتنبأ بما سوف يكون عليه فيما بعد عبر التاريخ ، وحديث الناس عنه ، فى عصره وبعد موته ، وحتى ألف عام قادمة من الآن ، فقال :

أنام ملء جفونى عن شواردها // ويسهر الخلق جراها ويختصم

ولا أعرف مبدعا عربيا آخر يصدق عليه هذا البيت ، كما يصدق على نزار قبانى شاعرا .

كان نزار فى البدء شاعر المرأة والحب والجمال ، صور الوصل والهجر ، واللقاء والبعد ، ونواحى الجمال فى المرأة ، ما دق منها وخفى ، وما هو حديث

مكانهم وسط الجموع ، ورفضوا أن يتحولوا إلى حلية فى قصر ، أو فضلة فى حاشية ، أو مسلين يطربون السلطان ، ويضحكونه ، ويغنون له حين يشاء ! .

ومن هنا ، حين عرض علىّ تلميذى الدكتور عبد الرحمن الوصيفى ، منذ عشر سنوات خلت ، أن يدرس نزار قبانى شاعرا سياسيا ، فى رسالة ماجستير ، رحبت بالفكرة تكريما لنزار ، وبخاصة أن كثيرين فى القاهرة يومها ، ممن كانوا يتحركون فى حاشية السلطان أخذوا ينهشونه بغير هوادة ، ويلاحقون حركته فى سعار ، ربما لأنهم رأوا إقامته فى القاهرة ضوءا كاشفا ، ونورا هاديا ، يكشف حقيقتهم وزيفهم ويعريهم مما يدعون لأنفسهم كذبا ، ورأيت خير رد لاعتباره ، ولم نكن نملك يومها وسيلة أخرى ، أن نخصه برسالة جامعية فى أعرق كليات جامعة القاهرة ، فكانت هذه الدراسة .

آثر الدكتور وصيفى أن يأخذ دراسة الجانب الموضوعى ليصدره فى كتاب ، بعد أن أضاف إليه ، بداهة ، الكثير الذى يتصل بأشعار جدت للشاعر بعد دراسته تلك ، ذلك أن الفنان الحق لا يتوقف عن العطاء ، كما أن الباحث الجيد ينضج مع الزمن ، ومن معاودة القراءة والتأمل ، وترك الجانب الفنى لكتاب قادم ، ربما لكى يستثمر أيضا

الشعراء منذ امرئ القيس ، وما لم يقله أحد غيره ، لا لأن غيره لا يريد ، وإنما لأنه لا يستطيع ، أو إذا شئت لا يعرف ، فمن ملامح الجمال ، وشواهد العاطفة ، ما يحتاج إلى لغة واضحة فى مواربة ، صريحة فى شفافية ، أوصاف تنزع عن وجهها برقع الحياء دون أن تخدش الذوق ، أو يحمر لها الوجه خجلا ، واختلف الناس حوله فيما يتصل بهذا الأمر ، رجالا ونساء ، نقادا ومتذوقين ، كما لم يختلفوا على أحد من قبل .

ومع تقلب الأحوال جاءت اللحظة التى لابد فيها أن يقتحم عالم السياسة ، فلم يتردد . وإنما شهر قلمه ، وشد أوتاره ، يغنى للشعوب الطامحة إلى الوحدة ، والزعيم المناضل من أجلها ، والجندى الباسل ، والجماهير المضحية ، وفلسطين التى فى العين والقلب ، وتحولت أنغامه إلى سياط تجلد القاعدين والمتخلفين ، والخائنين . أولئك الذين :

لهم شموخ المثنى ظاهرا ولهم // هوى إلى بابك الخرمىّ ينتسب

على حد تعبير شاعر آخر عظيم ، عبد الله البردونى اليمنى ، وأنعته اليمنى لأننا فى زفة الإعلام الكاذب ، والفاجر ، ننسى فى أحايين كثيرة أولئك الذين اختاروا

ما أفاد مع الأيام ، وما اكتسب من دربة وخبرة خلال رسالته للدكتوراه .

أعترف بدءا أن إعجابى بنزار قبانى الشاعر وكاتب النثر والمقالات بلا حدود ولا أعرف من الشعراء المعاصرين الأحياء من يطاوله غير اثنين ، هو ثالثهم ، ولا أتجاوزهم إلى رابع : عبد الله البردونى ، ومحمد الجواهرى . ومنذ أعوام خلت ، ولا تزال المحاولة تتكرر ، يجئ من يسألنى ، حين تقتضى المناسبة ، عمن يستحق جائزة نوبل من الأدباء العرب ، فكنت أرشح لها بلا تردد : نجيب محفوظ فى عالم القصة والرواية ، ونزارا فى عالم الشعر والنغم ، وقد تحقق الأمر لأولهما ، ولا يخالجنى شك فى أنها فى الطريق إلى ثانيهما ، وإن كانت أشعاره القومية تمثل عقبة ما ، لأن الصهيونية لها نفوذها وضغطها ، ولكن الفن الجميل أقوى ! .. (إننى فى هذا أختلف مع الدكتور الطاهر مكى .. فى مسألة نجيب محفوظ هذا فإننى أرى أن طه حسين وعباس العقاد وعبد الرحمن الشرقاوى ويوسف إدريس ويوسف السباعى وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وآخرون هم أفضل منه ويستحقون جائزة نوبل ولكنها حظوظ .. تماما كمن يرفعون عبد الحليم حافظ وسيد درويش إلى العلياء ويتجاهلون موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وأم كلثوم والثلاثة أفضل من هذين بمراحل)

تتجلى روعة نزار شاعرا فى قدرته المعجزة على المجاز الجميل ، واللعب بالألفاظ ودلالاتها فى مهارة حلوة ، وهو ينحرف بالكلمة عن معناها المعجمى إلى معنى شاعرى ليس فى المعجم ، وإن ارتبط به ، معنى تلتقطه من مناخ الجملة ، ورنين الإيقاع ، وفيه ما فى المعنى المعجمى وشئ أزيد ، وكل قارئ يفهم هذا المعنى الزائد بطريقة تختلف عن القارئ الآخر ، وحتى القارئ الواحد يختلف فهمه باختلاف مراحل عمره ، وتباين لحظات مزاجه ، وذلك هو الفن الخالد فى قمته .

يستخدم نزار قبانى بحور الخليل وقوافيه فى دقة وبراعة ، ولكنك تتجنى عليه ، وتسئ إلى قصيده ، حين تقف بموسيقاه عند هذا الحد ، وتردها إلى عصور خلت فحسب ، لأنها واقعا لا ترتبط بالبحر العروضى فى أوزانه فحسب ، وإنما تتأثر بالكلمة تجاور أخرى ، وبالحرف يلاصق حرفا آخر ، وببناء الجملة كلا ، وهو ما دعاه عبد القاهر الجرجانى بالنظم ، ورد إليه إعجاز القرآن الكريم ، وهو فى الشعر أيضا يمثل إنجازا لا يتأتى لغير الشعراء الحقيقيين .

ماذا عن المحتوى ؟ عن المحتوى السياسى الذى يدور الكتاب حوله . لقد فصل الدكتور عبد الرحمن الوصيفى القول فى هذا الجانب .

يحمد لنزار أنه سما حقا بالشاعر إنسانا وقيمة وموهبة ، فلم يسخر قصيدة لغير من يستحق ، وكان سوطا قاسيا على البغاة ، وآمن بالديمقراطية لأمته ، ودعا إلى ذلك صريحا واضحا ، ولم يفسق بفنه فى هذا الجانب ولا مرة واحدة ، وهو فى هذا لا يحتاج لشهادة من أحد ، لأن ملاحقة شعره فى أكثر من قطر عربى خير شاهد على أن الحكام العرب يرونه خطرا على طغيانهم ، ويخشون أن توقظ أبياته النائمين من شعوبهم والغافلين من بنى قومه .

أتراه كان محقا فى كل ما قال ؟

لا أكون دقيقا إذا قلت إننى أتفق معه دائما فى الوسيلة ، وإن وافقته فى الغاية دون أدنى تحفظ لأن جلد الذات وحده لا يكفى لإنهاض الشعوب ، وإعلان موت الأمة العربية ، والدعوة إلى تقبل العزاء فيها ، يميت ولا يوقظ ، ويدفع إلى اليأس ، وهو أمر غير محمود فى لحظات الصراع ، وفى خضم المعارك ، وإنما على الفنان أن يتحرك على محورين يكمل أحدهما الآخر : أن يلوم ويعنف ، وأن يشد الأزر ، ويبشر بالنصر فى الوقت نفسه ، أن يعرى عوامل الهزيمة والضعف والتخلف ، وأن يقوى الأمل فى الانتصار عليها . ولنأخذ لذلك مثلا :

فى قصيدة عبد الله البردونى " أبو تمام وعروبة اليوم " جلد الشاعر الخونة من الحكام العرب ، وصور مآسى قومه وقتامة واقعهم ، ولكنك لا تكاد تبلغ معه نهاية القصيدة ، بعد رحلة حزينة مؤلمة ، حتى يزيح عن صدرك قتامة هذا الواقع ، وأن ينير لك طريق الغد وسط ظلام الحاضر ، وأن يبث فيك الأمل فى النصر ، وأن يغذى فيك الإيمان بنفسك وقومك :

ألا ترى يا أبا تمام بارقنا // إن السماء تـُرجى حين تحتجب

ذلك أن التأكيد على الهزائم وحدها ، وترديد (مفيش فايدة) دعوة إلى الانهزامية وإشاعة اليأس ، أما الحديث عنها مغلفا فى دعوة إلى نصر قريب ، فهو ما يتطلبه الموقف ، وتلك هى مهمة الشاعر القومى العظيم ، وما أشك فى أن نزارا شاعر قومى عظيم ، ومهمة الناقد أن يمسك بخناقه ، حين ينسى هذا الدور ، وينحرف عن هذا الطريق .

(مع ذلك نرى أن الأمل المفرط والزائد والتفاؤل المبنى على أوهام أو خطاب خشبى نازى أو تاريخى أو ماضوى أو شوفينى متعصب مثل مصر فوق الجميع أو مصر أم الدنيا أو المصريين أسياد الأفارقة أو

المصريين أسياد العرب أو العرب بدو همج أو مصر ليست عربية بل فرعونية أو العرب أحق بالخلافة والحكم من الفرس الإيرانيين ومن العثمانيين .. هذا الأمل الزائد أو التفاؤل المبنى على أوهام وخطاب خشبى مرفوض جملة وتفصيلا .. ولعل التشاؤم فى كثير من الأحيان يكون بمثابة مبضع الجراح الذى يستأصل البلادة من نفوس الشعوب الكسولة الغافلة عن الثورة على رئيس جمهوركية مبارك مثلا ويبث فيهم الإفاقة بعد طول سبات والعلم بعد طول جهل) .

وتبقى كلمة عن الكتاب والمؤلف .

لقد درس الدكتور عبد الرحمن الوصيفى شعر نزار قبانى السياسى فى جانبه الموضوعى ، ووفق فى عرض وجهة نظره ، وبعض وجهات النظر الأخرى ، وناقش القضية فى موضوعية منهجية ، وتقدم بالدرس النقدى خطوة ، لأن شعر نزار متعدد الجوانب والسمات ، ثرى شكلا وموضوعا ، ويقدم لمن يملك شجاعة اقتحام عالمه مادة وفيرة ، وأحسب أن قارئه سوف يخرج من هذه الدراسة بصورة إن لم تكن وافية فهى قريبة من هذا ، عن نضال شاعرنا الكبير .

وفى انتظار المزيد من الدراسات عن نزار وشعره ، فما زال قاع البحر يضم الكثير من اللآلئ ... ومن الصدف أيضاً !

د. الطاهر أحمد مكى





المقدمة

الحمد لله الذى علم الإنسان ما لم يعلم وميزه عن كل ما خلق بالعلم والعرفان ، والصلاة والسلام على محمد رسوله الكريم الذى جعل من البيان سحراً ومن الشعر حكمة وبعد ..

يعد شعر نزار قبانى السياسى وثيقة أدبية رفيعة المستوى إذ واكب الصراع العربى الإسرائيلى بكل أبعاده ، ويحمل رؤية سياسية لاستعادة التراب المغتصب ، وتعود أهمية هذه الرؤية لفهم نزار طبيعة العدو التوسعية ، فهو يدق ناقوس الخطر ويصرخ ما وسعه الصراخ ، وعلى الجانب الآخر يعبر شعره عن آلام الإنسان العربى لاستبداد حكامه وبطشهم بالوطنيين وعن آماله فى الحرية والكرامة ، من هنا أتت أهمية دراسة شعر نزار السياسى واختيارى له .

إذا قلنا أن نزارا يمتلك أكبر إمبراطورية شعرية فى العصر الحديث فإننا فى ذات الوقت نعترف أنه أكثر شعراء هذا العصر سلبية من قبل النقاد ، وربما تعود



هذه السلبية لعوامل عدة أبرزها حب بعض النقاد الجارف لشعر نزار جعلهم لا يقفون مع هذا الشعر وقفة موضوعية فأتى نقدهم أشبه بالمدح والتقريظ دون الوقوف بأمانة على أسرار لغة الشاعر وفنه . وعلى الجانب الآخر يقف خصوم نزار التقليديون الذين تناولوه بالتجريح والتشويه بل وبلغ الأمر بالوهابيين (محرمى الأسماء المضافة للدين ومكفرى الصوفية والشيعة ومحرمى الرسم والنحت والموسيقى والغناء والتمثيل والتماثيل ومكفرى المبدعين والمفكرين والأدباء ومحرمى المدائح النبوية والحلف بالنبى وشاتمى البوصيرى والرازى والسيوطى والمترضين على معاوية وابنه يزيد والمعتبرين لهما أنهما من الصحابة) حتى التكفير الدينى ، ومن غيظ وحقد الخليجيين ودول النفط التى فضحها نزار اتهموه بالسرقة الأدبية من جاك بريفير وقارنوا بين قصيدة "جريدة" لنزار وقصيدة بريفير "إفطار" ، دون أن يقدموا أسبابا علمية وفنية لهذا التجريح وذاك التشويه فمنهم من تحدث وأفاض عن صورته على غلاف أحد دواوينه (كما ذكر ذلك محمد مصطفى هدارة فى كتابه دراسات ونصوص فى الأدب العربى) ، ومنهم من أعد رسالة دكتوراه فى نرجسيته (خريستو نجم وكتابه النرجسية فى أدب نزار قبانى !!) وهناك من جعله شاعر الزفات الإعلامية سواء فى شعره الغزلى أو السياسى على السواء (كما جاء فى كتاب رغيف النار والحنطة ، لشاكر النابلسى) ، ومن جعله فرعونا مرتدا

وشيطانا وزنديقا ملحدا (كما زعم الوهابى ممدوح الحربى فى كتابه السيف البتار فى نحر الشيطان نزار) . ويبقى بين أولئك وهؤلاء (شعر نزار) فى برجه العاجى محتفظاً بأسراره وجوانب الدهشة والجمال والقصور على السواء . وإذا كنا فى هذا البحث نعنى بشعره السياسى فقط فإننا فى ذات الوقت لا ننفى الحقبة الأولى من حياته الغزلية التى ملأت سماء الشعر العربى المعاصر لأنها تتخذ خنجراً فى ظهر الفترة السياسية التى بدأها الشاعر بإخلاص بعد هزيمة 1967 م ، وإن كانت له قصائد وطنية قبل ذلك .. ونحن لا ننكر أن الشاعر قد خلص لنفسه وفنه بعيداً عن هموم الوطن حين أصدر " قالت لى السمراء " سنة 1944 م و " طفولة نهد " سنة 1948 م ولا ننكر أيضاً أن رسائله فى هذين الديوانين كانت موجهة إلى المرأة وأجزاء من جسدها .

وفى هذه الآونة التى عكف نزار على المرأة ومتعلقاتها كان الوطن العربى بأسره يخوض معارك النضال والتحرر لا سيما منطقة الهلال الخصيب التى تعالت فيها المدافع مع ألسنة الشعراء .

ولكن ينبغى أن نكون قساة جافين فى حكمنا ، ولا ننسى أن الشاعر إنسان وله أحلامه ومشاعره ، والطموحات التى تناسب عمره ، ولا ينضج الشاعر أى شاعر وأى

مبدع هكذا دفعة واحدة بل تدريجيا وعلى مهل ، وإن المرأة رمز للوطن كما لمح لذلك نزار نفسه ، وكما رسم الرسامون بريطانيا وروسيا وألمانيا على هيئة امرأة National personification وكما أنشأ المصريون والأتراك أحزاب مثل مصر الفتاة وتركيا الفتاة .. والحب والسياسة ، والغرام والثورة ، والحرية العاطفية والحرية السياسية صنوان لا يفترقان فى عقل الإنسان .. وإن من تكامل المبدع ألا يقتصر على لون واحد ومجال واحد للإبداع .. فإن كان نزار هو شاعر الحب والمرأة فهو أيضا شاعر السياسة والجرأة والصراحة السياسية التى لا تقل صدقا وتأثيرا عن وثائق ويكيليكس التى أطلقها رسول الشفافية جوليان أسانج والتى عرت أنظمة الاعتلال العربى من مصر مبارك إلى آل سعود أفعى الخليج إلى عبد الله الثانى الأردن إلى محمد السادس المغرب إلى عبد الله صالح اليمن إلى جعجع والحريرى الابن وإلياس المر فى لبنان وتآمرهم على حركات المقاومة مثل حماس وحزب الله وعلى دول الممانعة والصمود والتصدى مثل إيران وسوريا .

وللشاعر بدايات وطنية نظمها خلال المرحلة الثانوية يقول عنها أحمد زكى أبو شادى : " وعلى الرغم من هذه الظروف المواتية وعلى الرغم من شاعريته المبكرة التى دفعته إلى نظم ملحمة شعرية سماها "

دنيا الحروب " خلال دراسته الثانوية - وقد نالت تقريظا فى وقتها - لم يعن نزار حتى بترجمته وطنيته ولا إنسانيته شعراً وإنما اقتصر على استلهام الأنوثة حسيا ومعنويا فى تعابير منوعة بعضها مكشوف وبعضها رمزى وقد تجلت بها جميعا الأناقة والرشاقة والتفنن الموسيقى الخفيف الخاطف " . وهذا ما جعل أحمد زكى أبو شادى يتنبأ لنزار فى هذه الفترة المبكرة عام 1952 بأنه سوف يعود إلى الشعر الوطنى لأن الوطنية عنده من مفاخر أسرته . يقول أبو شادى : " ومهما تكن نزعات شاعرنا فى سنه الحاضرة فلا ريب عندنا فى أن وطنيته وإنسانيته ووطنية أسرته المأثورة الموروثة ستتجلى فى شعره مستقبلا عندما تزيده التجارب والسن نضوجاً ، أما شعره الحاضر فليس مع ذلك بالجمال المجرد فإن تغنيه بجمال المرأة هو توجيه بديع إلى نبع طبيعى ، وقد يصرف عنه فى البيئات المتأخرة بحكم العزلة والحجاب ". ولكن هذه التجارب الوطنية المبكرة لم تصل إلينا ولو افترضنا عدم وجودها قبل ديوانه الأول " قالت لى السمراء " ما أضر ذلك بالشاعر وما نفى عنه حسه الوطنى والسياسى لأن الشاعر - أى شاعر - ينبغى أن يبدأ بتجارب ذاتية ، فإذا ما استوى عوده وترعرع دلف إلى غور التجارب الموضوعية وهو ما أشار إليه أبو شادى - سابقاً - فنزار فى هذه الفترة المبكرة من حياته كتب ذاته بصدق وحرارة وبواقعية لا تتلاءم ومحيطه المتزمت المكبوت الذى تكتنفه شتى التقاليد البالية



والقيود التى عادت اليوم كما أعادت إلينا الهجمة الوهابية السعودية الصحراوية الشرسة على مصر ، أعادت البرقع باسم النقاب وأسوأ ، وأعادت الحجاب والخمار والجلباب إلخ .. أى لم يشأ أن يكون صوت فكرة من الفكرات . أو صدى مذهب من المذاهب أو يتماشى مع السائد ويسير جنب الحائط ، بل كان مرآة نفسه وصدى شعوره وحسه - كتب تجاربه وصور ذاته بشتى انفعالاتها - ذات شاب محب وامق فى رونق العمر . والشباب والحب صنوان متلازمان . ونزار يشفع له الاتجاه إلى الشعر الذاتى وهو فى العقد الثالث من عمره لكن عندما تعتصر رياح يونيه 1967 م العالم العربى بأسره كيف نعيب عليه الاتجاه إلى الوضع العربى المخزى وكأننا نقول له لا تكتب شعراً سياسياً حتى تأتى هزيمة أخرى أشد قسوة من هزيمة 1967 م وأظن أن هذه الهزيمة قد هزت كيان المجتمع العربى بأسره كما يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل " وبالتأكيد فإن ما حدث لأمتنا سنة 1967 م كان فادحاً بأى معيار ومع ذلك وفى حدود ما أعرف فلا أظن أن أى هزيمة فعلت بالمجتمع الذى وقعت فيه شيئاً مماثلاً أو قريباً مما فعلته سنة 1967 م بمجتمعنا العربى " . لدرجة أن هذه الهزيمة صنعت شعراءها ، فالشباب الذين شبوا فى هذه الحقبة لم يكتبوا شعرا ذاتيا لأن مأساة الهزيمة كانت مروعة وأصدق مثال على ذلك الشاعر المصرى أمل دنقل حيث أصبحت قصائده منشورات سياسية . ومن هذا المنطلق تأتى صرخة الشاعر فى وجوه من

اتهموه بأنه شاعر المرأة ، ولا ينبغى أن يتحدث فى السياسة :

ويقول عنى الأغبياء ...

إنى دخلت إلى مقاصير النساء .. وما خرجت

ويطالبون بنصب مشنقتى ..

لأنى عن شؤون حبيبتى .. شعراً كتبت ..

ولست أدرى السبب الذى جعل الدكتور خريستو نجم يقرر سادية نزار فى شعره السياسى وأنه كان يبحث عن منفذ لهذه السادية ولم تواته الفرصة إلا بعد كارثة 1967م . وكان الأحرى بخريستو أن يكون موضوعيا فى تناوله شعر نزار السياسى لأن الأعداء أنفسهم تناولوا هذا الشعر الغاضب تناولا علميا دقيقا بعيدا عن الهوى ، يقول س . موريه - وهو يهودى صهيونى متعصب - فى كتابه الشعر العربى الحديث : " ومن جهة أخرى بدأ نزار قبانى متأثرا بالشعراء الاشتراكيين العرب يكتب قصائد معادية لليهود والصهيونيين

ويسيطر هذا النمط من الشعر على كتاباته بعد حرب الأيام الستة فى عام 1967 م إذ عبر فى قصائد جديدة له تعبيرا واضحا عن الكارثة التى مُنى بها العالم العربى فى تلك الحرب وأعرض فى تلك القصائد عن تجاربه ومغامراته مع النساء وبدأ يكتب شعرا قوميا غاضبا ، عنف فيه جميع القادة العرب ومفكريهم بسبب الهزيمة التى حاقت بالأمة وحملهم مسؤوليتها على نحو أثار حنق هؤلاء المفكرين والحكام واستياءهم وقد بدأ قصيدته الطويلة هوامش على دفتر النكسة باعتذاره لقصائد الحب التى سبق أن كتبها " . وقد عانى نزار معاناة قاسية من هؤلاء النقاد مما جعله يرسل هذا النداء الحار فى لقاء صحفى له مع جريدة الشرق الأوسط السعودية الخضراء (تلك السيئة السمعة كزميلتها الحياة والتى هجاها نزار فى قصيدة أبو جهل يشترى فليت ستريت .. فلتحيا جريدة القدس العربى وعبد البارى عطوان) بتاريخ 6/6/ 1985 : " هل من الممكن إكراماً لكل الأنبياء ، أن تخرجونى من هذه القارورة الضيقة التى وضعتنى فيها الصحافة العربية ، أى قارورة الحب والمرأة ".

وإذا قلنا أن نزارا أصبح شاعرا سياسيا بعد هزيمة أو نكسة يونيه 1967 م فإن ذلك لا ينفى أنه تعامل مع القضايا السياسية الهامة فى العالم العربى قبل ذلك ، فقد كتب " خبز وحشيش وقمر " عام 1954 م ، و "

قصة راشيل شوارزنبرغ " عام 1955 م ، و " رسالة جندى فى جبهة السويس " عام 1956م و " جميلة بو حيرد " عام 1961 م . فكانت كل هذه القصائد بمثابة التكوين لشاعر سياسى عملاق .

وطفق نزار يفضح الشعراء العرب شعراء السلطة ويتهمهم بالمتاجرة بشعرهم وتغيير عناوين القصائد بين العواصم العربية رغبة فى نيل الود أو المال . ومن أجمل قصائده السياسية تلك التى كتبها بعيد استشهاد البطل المصرى عبد المنعم رياض فى الخطوط الأمامية ، بعنوان " رسالة إلى عبد المنعم رياض " وعندما هدأت النفوس وبدأ تجميع قصائده السياسية فى مجلد واحد عام 1983 م غير عنوان القصيدة إلى " الجندى العربى المجهول " كسبا لرضا كافة الشعوب العربية من جهة ووجود أجيال لا تعرف عبد المنعم رياض من جهة أخرى ، وعندما يفضح الأردن بعد مذبحة أيلول سبتمبر سنة 1970 فى قصيدة " دفاتر فلسطينية" ، فى ديوان ( ) ، ويفرد ديوانا خاصا محظورا فى مصر لفضح السادات وصلحه المنفرد الاستسلامى مع إسرائيل أسماه (اليوميات السرية لبهية المصرية) لا نجد للديوانين أثر فى أعماله السياسية الكاملة المجلدة ، كذلك عندما يشيد بالثورة الإسلامية الإيرانية 1979 ويندد بالسادات وشاه إيران المخلوع رضا بهلوى فى قصيدته (مواويل دمشقية إلى قمر بغداد) ، مما يجعلنا

على يقين من خوف الشاعر من بعض الأنظمة العربية وله العذر فى ذلك فاغتياله سهل لا يكلف هذه الحكومات شيئا ، ولنا فى المهدى بن بركة الذى قتله نظام الحسن الثانى بالمغرب ، وفى ناجى العلى الذى تعاون ياسر عرفات والموساد لاغتياله ، وفى غسان كنفانى ، وفى جمال حمدان الذى تعاون النظام المصرى مع الموساد لاغتياله أكبر عبرة . وربما هذا ما جعله يتهم العرب كلهم بقتل زوجته بلقيس مع علمه الأكيد بالجهة التى دبرت حادثة قتلها .. واعتبرها مؤامرة على شعره ومحاولة لإسكاته .. أما عن نرجسية نزار فإن النرجسية ليست سبة وإنها سمة الفنانين عامة والمفكرين والثوار وحملة لواء التغيير والمثالية والإصلاح ، والشعراء على وجه الخصوص لأنهم يشعرون بزهو التفوق على الآخرين ، ولكن يكون ذلك ممتزجا بحزنهم كونهم وحدهم من يعلمون ويصلون للحقائق الدقيقة فيحزنهم أن العامة لا تعمِل عقلها وفكرها لتبلغ ما بلغوه وترتقى لما ارتقوا إليه ويشعرون بالوحدة واليأس والإحباط والانطواء مع كم سوء الفهم والجهل الذى يجدونه من العامة تجاههم .. ولو لم يكن المبدع نرجسيا على نحو ما أى يحب نفسه لما اهتم بالتعبير عنها بإبداعه ولما اهتم بنشر إبداعه ، ولانجرف مع التيار المجتمعى السائد ولم يرفض ولم يتمرد ولم يسعى لإصلاح وتغيير ما يراه سائدا وفاسدا ، ولتأثر بمن يسبونه ويقللون من شأنه ويسعون إلى هز ثقته بنفسه وينكرون فضله وإبداعه .. ويقول العالم

النفسى هاتز زاخس : " إن الزعيم يحتفظ بكل نرجسيته ، لذا فهو يحاول أقصى جهده أن يتخذ من الآخرين أدوات لتحقيق زعامته فى المستقبل ، ولإنجاز مخططه فى تعظيم شخصه ، والفنان زعيم الناس " . فهى متواجدة إذن لدى كل الشعراء ، لا سيما الكبار منهم على مر العصور والأيام ، ولا ننسى أن أبا الطيب المتنبى كانت هذه أبرز صفة فيه (كما يرى محمد أبو الأنوار فى كتابه الشعر العباسى) .

إذن فهى ظاهرة غير مرضية عند الشعراء ، وقد نوه فرويد إلى ذلك بقوله " فالفنان الحق يعرف كيف يتقن أحلامه حتى تفقد تلك النبرة الشخصية التى تؤذى أسماع الآخرين ومن ثم تصبح ممتعة لهم " . وللأسف فإننا فى عالمنا العربى لم نتعلم بعد أصول النقد الهادف والمهذب دون تجريح ودون سباب ، ولنا فى التعليقات التى تكتب على الفيس بوك اليوم وفى اليوتيوب والنسخ الإلكترونية من الصحف والمواقع الإخبارية والمنتديات الوهابية ، خير مثال . فعلينا أن نكون أكثر مرونة ودماثة وتسامحا ولطفا ، ونتخلى عن قساوتنا وجفافنا وغلظتنا التى بات الحاسوب بيئة سهلة لنا كى نخرج شرورنا والجانب الأسود من نفوسنا فيه دون رقيب ولا حسيب ولا وازع من ضمير .

ونرجسية نزار غير مؤذية للآخرين ، بل ممتعة لجمهوره العريض ونزار بين قلة من الشعراء العرب ، وربما كان الأوحد الذى دخل منافسا قويا للإنتاج السينمائى والتلفزيونى (المصرى خصوصا) حين انتشر هذا فى أرجاء العالم العربى ، بأفلامه الهابطة والتافهة ، وغزا كل البيوت تقريبا ، مما أثر على الكلمة المكتوبة ، وأصبحت هذه الأجهزة تنافس الكتاب العربى فى شتى موضوعاته وأطروحاته ، مما أدى إلى انصراف معظم الناس عن الكتب بعامة ، والشعر على وجه الخصوص ، إلا أن نزارا - كما قلنا - كان الشاعر المقروء والمسموع على امتداد الوطن العربى الكبير .. وغنى قصائده مطربون كبار مثل عبد الوهاب ونجاة الصغيرة وأم كلثوم وفيروز وعبد الحليم حافظ وانتهاء بكاظم الساهر .. فنزار إذاً - ونتيجة لذلك - شاهد على العصر العربى الراهن بكل تناقضاته وهذا من أسرار انتشار الشاعر ، فشعره لا سيما السياسى يجد مكاناً طيباً فى صدور كثيرين من أبناء الوطن العربى (ممن لم تلطخ عقولهم شوائب القنوات الوهابية الفضائية والمواقع الوهابية على الانترنت) . ونتمنى أن يأتى اليوم الذى فيه تقرر قصائده السياسية مجمعة جميعا على طلاب المدارس المصرية والسعودية وغيرها .

ونختم بقول نزار فى قصيدته " تعريف غير كلاسيكى للوطن " مناديا المتخاذلين العرب والمصريين بتحرير

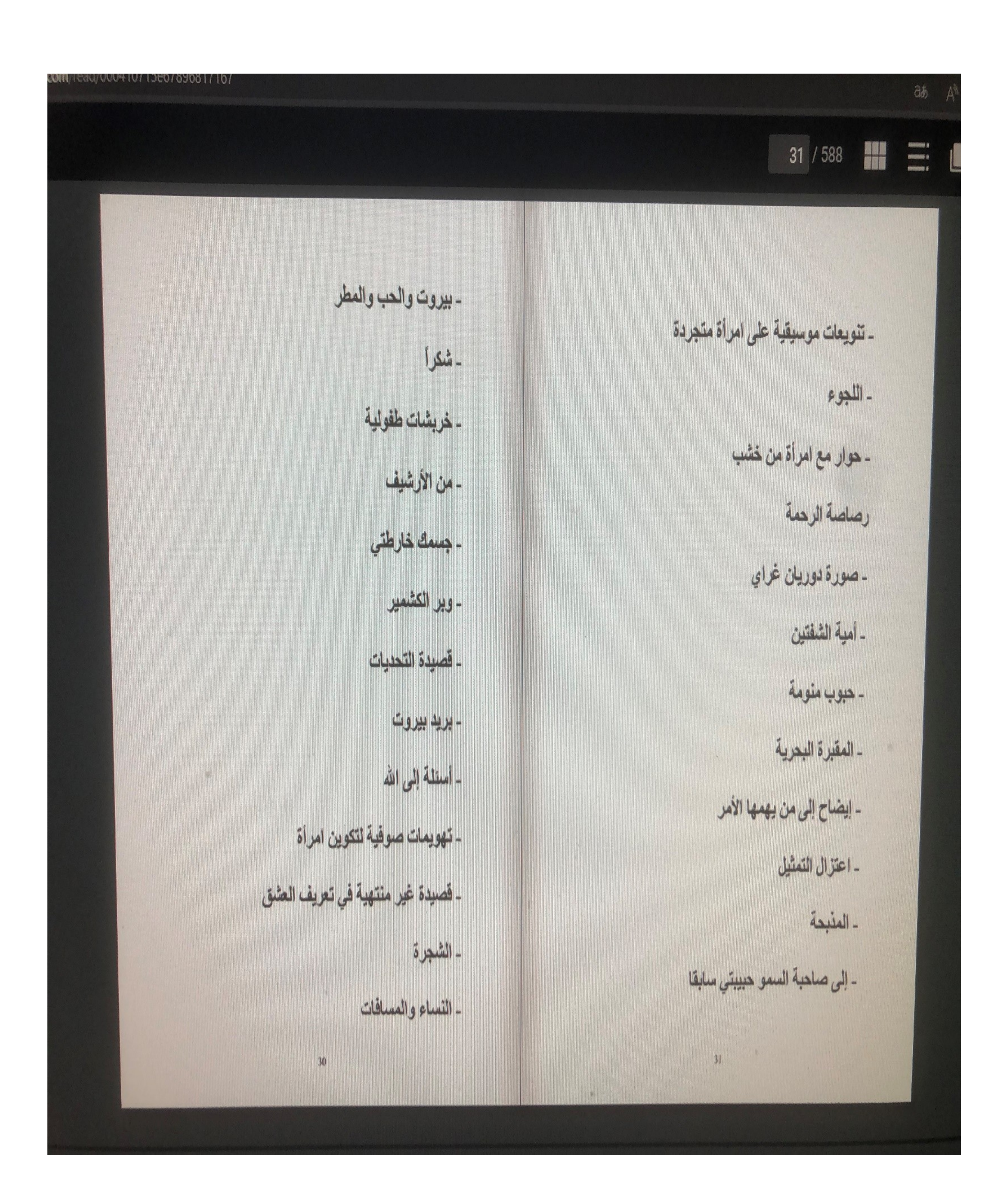
واسترداد فلسطين كلها من البحر إلى النهر ومن رأس الناقورة شمالا إلى رفح غربا وأم الرشراش إيلات جنوبا ونهر الأردن شرقا :

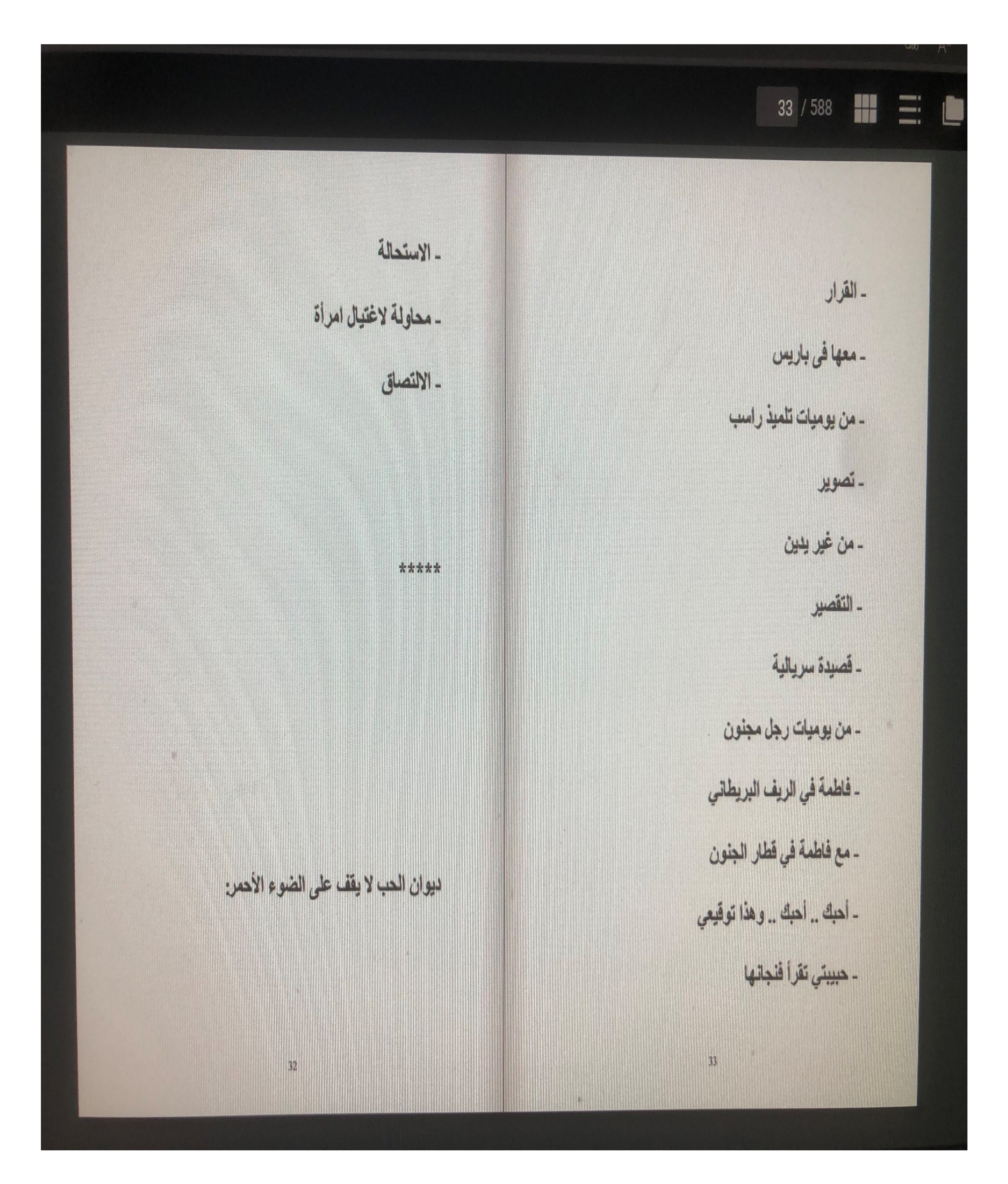
وطنى ، من أنت إن لم تنفجر تحت إسرائيل صندوق سلاح ؟! .

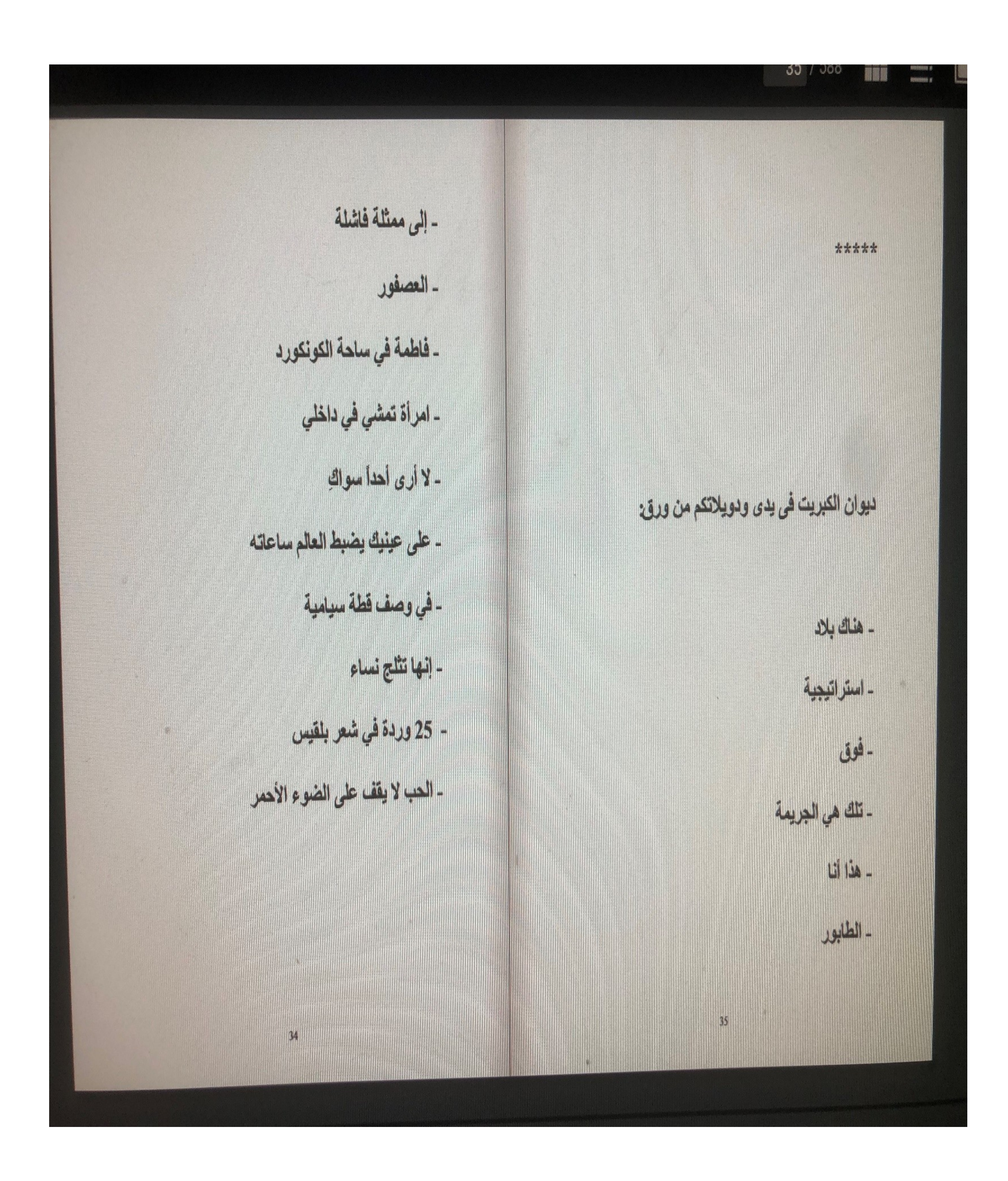
وقبل أن نبدأ الفصل الأول من الكتاب فيما يلى قائمة بقصائد نزار السياسية :

ديوان أشعار خارجة على القانون:

- منشور سري جدا
- بلاغ شعري رقم
- محاكمة غير شرعية


31 / 588


33 / 588
- القرار
- معها فى باريس
- من يوميات تلميذ راسب
- تصوير
- من غير يدين
- التقصير
- قصيدة سريالية
- من يوميات رجل مجنون
- فاطمة في الريف البريطاني
- مع فاطمة في قطار الجنون
- أحبك .. أحبك .. وهذا توقيعي
- حبيبتي تقرأ فنجانها
33
- الاستحالة
- محاولة لاغتيال امرأة
- الالتصاق
*****
ديوان الحب لا يقف على الضوء الأحمر:
32



35 / 388

- إلى ممثلة فاشلة

- العصفور

- فاطمة في ساحة الكونكورد

- امرأة تمشي في داخلي

- لا أرى أحداً سواكِ

- على عينيك يضبط العالم ساعاته

- في وصف قطة سيامية

- إنها تثلج نساء

- 25 وردة في شعر بلقيس

- الحب لا يقف على الضوء الأحمر

34

*****

ديوان الكبريت فى يدى ودويلاتكم من ورق:

- هناك بلاد

- استراتيجية

- فوق

- تلك هي الجريمة

- هذا أنا

- الطابور

35

- تصميم

- إذا

- خيارات

- التماسيح

- التصوير في الزمن الرمادي

- القصيدة تطرح أسئلتها

- أصهار الله

- مقابلة تلفزيونية مع (غودو) عربي

- قراءة ثانية لمقدمة ابن خلدون

- أبو جهل يشتري (فيليت ستريم)

- الوضوء بماء العشق والياسمين

- القصيدة الدمشقية

- المرأة

- العطر

- رثاء فراشة

- عاصي الرحباني

*****

ديوان قصائد مغضوب عليها:

- كيف ؟

- إلى عصفورة سويسرية

- البوابة

- على القائمة السوداء

- لماذا أكتب ؟

- التلاميذ يعتصمون فى بيت الخليل بن أحمد الفراهيدي

- تقرير سري جدا من بلاد قمعستان

- هجم النفط مثل ذنب علينا

- من يوميات كلب مثقف

- قرص الأسبرين

- السمفونية الجنوبية الخامسة

- آخر عصفور يخرج من غرناطة

- التأشيرة

- لماذا يسقط متعب بن تعبان فى امتحان حقوق الإنسان ؟

- درس فى الرسم

- مع الوطن فى زجاجة براندى

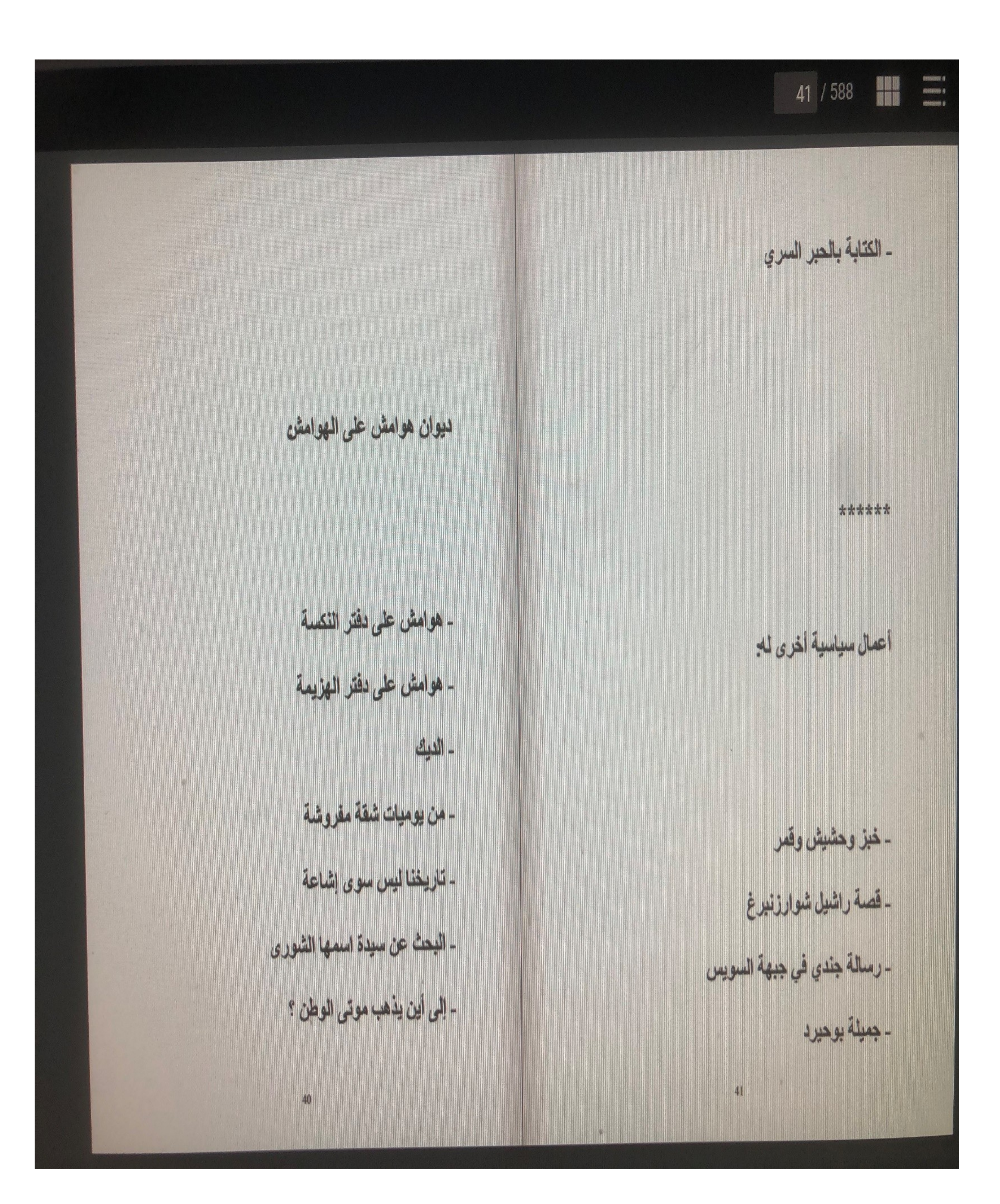
- من معادلات الحرية

- حزب الحزن

- عزف منفرد على الطبلة

- أ حمر .. أحمر .. أحمر

*****



- الكتابة بالحبر السري

******

أعمال سياسية أخرى له:

- خبز وحشيش وقمر
- قصة راشيل شوارزنبرغ
- رسالة جندي في جبهة السويس
- جميلة بوحيرد

41

ديوان هوامش على الهوامش

- هوامش على دفتر النكسة
- هوامش على دفتر الهزيمة
- الديك
- من يوميات شقة مفروشة
- تاريخنا ليس سوى إشاعة
- البحث عن سيدة اسمها الشورى
- إلى أين يذهب موتى الوطن ؟

40

- الحب والبترول

- هوامش على دفتر النكسة

- الممثلون

- الاستجواب

- فتح

- شعراء الأرض المحتلة

- القدس

- منشورات فدائية

- عرس الخيول الفلسطينية

- دعوة اصطياف للخامس من حزيران

- حوار مع أعرابي أضاع فرسه

- جريمة شرف أمام المحاكم العربية

- الحاكم والعصفور

- الوصية

- الخطاب

- بانتظار غودو

- مورفين

- قراءة أخيرة على أضرحة المجاذيب

- حوار مع ملك المغول

- إلى الجندي العربي المجهول

- طريق واحد

- لصوص المتاحف

- تعريف غير كلاسيكي للوطن

- خطاب شخصي إلى شهر حزيران

- قصيدة اعتذار لأبي تمام

- جمال عبد الناصر

- الهرم الرابع

- رسالة إلى جمال عبد الناصر

- إليه في يوم ميلاده

- إ فادة في محكمة الشعر

- من مفكرة عاشق دمشقي

- ترصيع بالذهب على سيف دمشقي

- ملاحظات في زمن الحب والحرب

- حوار ثوري مع طه حسين

- مرسوم بإقالة خالد بن الوليد

- مواويل دمشقية إلى قمر بغداد

- موال دمشقي

44

- موال بغدادي

- مذكرات أندلسية

- أوراق أسبانية

- أحزان في الأندلس

- غرناطة

- يا ست الدنيا يا بيروت

- سبع رسائل ضائعة في بريد بيروت

- بيروت محظيتكم .. بيروت حبيبتي

- إلى بيروت الأنثى مع الاعتذار

- أنا يا صديقة متعب بعروبتي

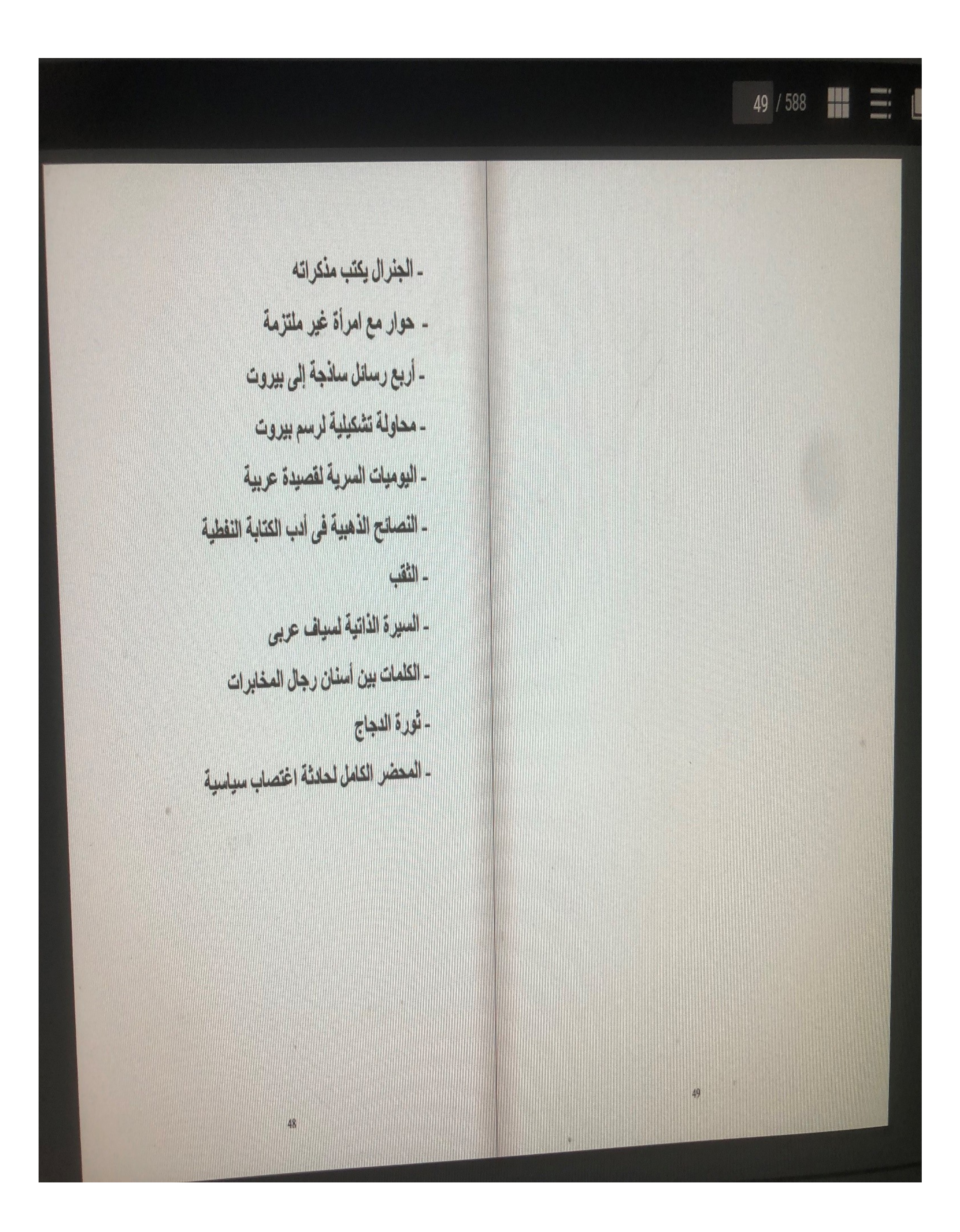
- المهرولون

- المتنبي وأم كلثوم على قائمة التطبيع

- اليوميات السرية لبهية المصرية

45

ديوان تزوجتك أيتها الحرية :



49 / 588

- الجنرال يكتب مذكراته
- حوار مع امرأة غير ملتزمة
- أربع رسائل ساذجة إلى بيروت
- محاولة تشكيلية لرسم بيروت
- اليوميات السرية لقصيدة عربية
- النصائح الذهبية فى أدب الكتابة النفطية
- الثقب
- السيرة الذاتية لسياف عربى
- الكلمات بين أسنان رجال المخابرات
- ثورة الدجاج
- المحضر الكامل لحادثة اغتصاب سياسية

48

49



الفصل الأول : حياة الشاعر

مولده :

ولد نزار توفيق القبانى فى الحادى والعشرين من مارس (آذار) عام 1923 م فى بيت من بيوت دمشق القديمة فى (منذنة الشحم) بحى الشاغور بالقرب من سوق الحميدية والمسجد الأموى ، وهو مسلم سنى ، ولقد وصف نزار هذا البيت الذى ولد فيه ونشأ بقوله فى كتابه (قصتى مع الشعر) : " هل تعرفون معنى أن يسكن الإنسان فى قارورة عطر ، بيتنا كان تلك القارورة ، إننى لا أحاول رشوتكم بتشبيه بليغ ، ولكن ثقوا أننى بهذا التشبيه لا أظلم قارورة العطر وإنما أظلم دارنا ". ويصف لنا نزار البيت من الداخل فيقول : " بوابة صغيرة من الخشب تنفتح . ويبدأ الإسراء على الأخضر ، والأحمر ، والليلكى ، وتبدأ سيمفونية الضوء ، والظل والرخام .

شجرة النارنج تحتضن ثمرها ، والدالية حامل ، والياسمينة ولدت ألف قمر أبيض وعلقتهم على قضبان النوافذ .. وأسراب السنونو لا تصطاف إلاّ عندنا ..

أسود الرخام حول البركة الوسطى تملأ فمها بالماء .. وتنفخه .. وتستمر اللعبة المائية ليلاً نهاراً .. لا النوافير تتعب .. ولا ماء دمشق ينتهى .

الورد البلدي سجّاد أحمر ممدود تحت أقدامك .. والليلكة تمشط شعرها البنفسجى ، والشمشير ، والخبّيزة ، و الشاب الظريف ، والمنثور ، والريحان ، والأضاليا .. وألوف النباتات الدمشقيّة التى أتذكر ألوانها ولا أتذكر أسماءها .. لا تزال تتسلق على أصابعى كلما أردت أن أكتب ..

القطط الشاميّة النظيفة الممتلئة صحة ونضارة تصعد إلى مملكة الشمس لتمارس غزلها ورومانتيكيتها بحريّة مطلقة ، وحين تعود بعد هجر الحبيب ومعها قطيع من صغارها ستجد من يستقبلها ويطعمها ويكفكف دموعها .. الأدراج الرخاميّة تصعد .. وتصعد .. على كيفها .. والحمائم تهاجر وترجع على كيفها .. ولا أحد يسألها ماذا تفعل ؟ و السمك الأحمر يسبح على كيفه .. ولا أحد يسأله إلى أين ؟ وعشرون صفيحة فلّ في صحن الدار هي كل ثورة أمي . كل زرّ فلّ عندها يساوي صبيًا من أولادها .. لذلك كلما غافلناها وسرقنا ولداً من أولادها .. بكتْ .. وشكتنا إلى الله .."،



الطفولة :

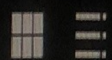
تلعب فترة الطفولة دورا هاما فى حياة الناس بعامة والفنان بخاصة ، وهذا ما جعل نزارا نفسه يقرر ذلك : " الطفولة هى المفتاح إلى شخصيتى وإلى أدبى وكل محاولة لفهمى خارج دائرة الطفولة هى محاولة فاشلة " .

وقد علق الدكتور خريستو نجم على ذلك بقوله : " هذه المقولة لنزار قبانى ليست غريبة عن منهج التحليل النفسى للأدب إذ غاية المحللين أن يبحثوا عن الدوافع السيكولوجية للإبداع وهى كامنة فى اللاشعور تتفاعل منذ الولادة ومن أراد البحث عن بصمات الشاعر المميزة عليه بطفولة هذا الشاعر فإنها الكنز الملكى للحياة الباطنية والنبع الثرى للملكة الشعرية " . من هنا كانت العودة إلى طفولة نزار لابد منها وككل طفولة هى على نوعين ، طفولة واعية دوّنها لنا فى ترجمته الذاتية وطفولة لا واعية تغيب عن أكثر كتاب التراجم لأنها تتراجع خلف ستائر الزمن وتكمن فى المجاهل العميقة من النفس البشرية .

(أ) الأم قطب الطفولة الأول :

لم يكن نزار أكبر إخوته ولا أصغرهم ، وبالرغم من ذلك استطاع أن يحوز على أكبر قسط من حنان الأم . " أمّا أمى فكانت ينبوع عاطفة يعطى بغير حساب . كانت تعتبرنى ولدها المفضّل ، وتخصّنى دون سائر إخوتى بالطيّبات ، وتلبّى مطالبى الطفولية بلا شكوى ولا تذمّر " .

فهذه أمه تشعره بذاته وتفضله وتخصه بكل ما يرغب من ألعاب وطعام ونزوات وهذا التدليل الزائد من الأم المصحوب بحب جارف جعل الطفل نزار يتمتع بحرية الحركة تتجلى فى ميله إلى تحطيم الأشياء وتكسيرها الأمر الذى أتعب أهله وأثار غضبهم لولا تدخل عمته : دعوه يحطم ، دعوه يحطم ، فمن رماد الأشياء المحطمة تخرج النباتات الغريبة . وعندما تتقدم السنون ويكبر نزار يظل فى عينى أمه فاتنة طفلا محتاجا لرعاية منها ، " ولقد كبرتُ ، وظللت فى عينيها دائماً طفلها الضعيف القاصر . ظلت تُرضعنى حتى سن السابعة ، وتطعمنى بيدها حتى الثالثة عشرة . وسافرتُ بعد ذلك إلى جميع قارات الدنيا ، وظلت مشغولة البال على طعامى وشرابى ونظافة سريرى . وتتساءل كلما جلست الأسرة على مائدة الطعام فى دمشق : ((تُرى



هل يجد (الولد) فى بلاد الغربة من يُطعمه ؟)) .. والولد هو أنا بالطبع .. ويا طالما طارت طرود الأطعمة الدمشقية ، إلى السفارات التى كنتُ أعمل بها .. لأن أمى لم تكن تصدق أن هناك شيئاً يؤكل خارج مدينة دمشق . " .

أسباب تعلق الأم بـ (نزار) :

لابد أن هناك أسبابا نفسية جعلت الأم فائزة تعتنى بطفلها الثانى ، دون سائر إخوته ، فنزار كما أخبرنا نسخة فى منتهى الدقة من أبيه . يقول : " بالإضافة إلى شبهى الكبير له بالملامح الخارجية ، فقد كان شبهى له بالملامح النفسية أكبر " .

ويصبح هذا التطابق التام بين الطفل وأبيه ملجأ الأم وشغلها إذا كانت تعانى من فراغ عاطفى بينها وبين الأب نفسه ، ولا شك أن فجوة كبيرة كانت قائمة بين توفيق القبانى وفائزة فهى طيبة إلى حد البساطة ، يقول نزار : " فلقد كانت مشغولة فى عبادتها ، وصومها ، وسجّادة صلاتها . تسعى إلى المقابر فى المواسم ، وتقدّم النذور للأولياء ، وتطبخ الحبوب فى عاشوراء ، وتمتنع عن زيارة المرضى يوم الأربعاء ، وعن الغسيل

يوم الاثنين ، وتنهانا عن قص أظافرنا إذا هبط الليل ، ولا تسكب الماء المغلىّ فى البالوعة خوفاً من الشياطين ، وتعلق أحجار الفيروز الأزرق فى رقبة كل واحد منّا ، خوفاً علينا من عيون الحاسدين " . هذه الشخصية المفرطة فى البساطة تقابلها شخصية والد الشاعر " كان جبّارا أمام الأحداث الجسام ، ولكنه أمام وجه حسن التكوين ، يتحوّل إلى كوم رماد " . فالوالد متناقض كثير التقلب فى عواطفه لأنه على استعداد دائم للحب .

فمن الطبيعى لمثل هذا الرجل المتفتح على الدنيا الباحث عن الجمال بلا كلل أن يشعر بنوع من الضيق إذا ما اقترن بامرأة لا تقدر أن تجاريه فى عواطفه وسكناته .

إن امرأة مثل هذه تملك بلا ريب شروط المربية الحاضنة التى تؤمن الرعاية الجيدة لأطفالها والراحة التامة لسيدها ، ولكن زوجا مثل توفيق قبانى كان من الصعب أن يظل شغوفا بها إلى فترة طويلة ، صحيح أن هذا الوضع مألوف فى البيئة الشرقية وشائع فى أغلب الأسر العربية خاصة فى ذلك العهد الذى نتحدث عنه غير أننا نتوقف عنده لأنه كاد يكون نموذجا فى أغلب البيوتات ، وأسرة قبانى لا تشكل استثناء فى هذا المضمار ، فهى تخضع مثل سواها لقوانين الزيجات غير المتكافئة فى مجتمع من صنع الرجال ، ولذا نرجح

أن هناك فرقا فى المستوى الفكرى بين توفيق وفائزة ربما أفضى إلى بعد نفسى بينهما ظل كامنا فى اللاشعور يساعد على إخفاقه نمط الحياة الاجتماعية التى تقبل من توفيق إقباله على الدنيا وولعه بالفن والجمال ، كما تقبل من فائزة انصرافها إلى حجرتها واكتفائها برب واحد وحبيب واحد وحب واحد .

وطبيعى أن تذعن فائزة لقدرها فتلتفت إلى أحد أطفالها تفرغ فيه كل طاقتها العاطفية المكبوتة وليس مصادفة أن يكون هذا الطفل هو نزار الصبى الثانى فى الأسرة لأن الفترة الزمنية التى مرت على زواج توفيق وفائزة كانت قد أصبحت مهيأة لمثل هذا الوضع الذى ذكرناه .

أما عن ثقافتها فهى محدودة شأن الكثيرات من فتيات ذلك العصر حتى إذا سئلت عن شعر ولدها ، أجابت بكل بساطة : " ملائكة الأرض والسماء ترضى عليه" .

أثر الأمومة فى شعر نزار :

غرست الأم بحنانها الجارف فى نفس الشاعر نموذج العطاء الفريد والرفيع .

فالشاعر فارق بيته فى دمشق فور نيله شهادة الحقوق ليعمل ملحقا فى سفارة سورية بالقاهرة ولم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين من عمره ، ومن القاهرة انطلق إلى تركيا ولندن وفرنسا وألمانيا وبلجيكا والسويد والدانمرك والصين وأسبانيا حتى استقر فى بيروت فمن المفروض بعد هذا التنقل الطويل أن يكون نزار قد اعتاد فراق أمه خاصة وأنه تزوج فى مطلع الشباب وأنجب ولدين غير أن هذا الافتراض كان خاطئا ، فهذه قصيدته (خمس رسائل إلى أمى) تكشف عن حنين طفل إلى أمه يصارحها فيه بهزائمه العاطفية وخيبته مع النساء ، وأكبر الظن أن فشل زواجه الأول وعزوبته الطويلة قبل زواجه الثانى وتنقله وحيدا من بلد إلى آخر بحكم وظيفته كل ذلك أيقظ الطفل الكامن فى أعماقه فشعر بحاجته إلى الأم القادرة على حمايته من أذى الأخطار :

فكيف كيف يا أمى// غدوت أبا ولم أكبر

وربما كانت هذه العاطفة الجارفة من الشاعر لأمه أهم الأسباب التى جعلته شاعرا ، فنزار يخبرنا أنه أثناء رحلته البحرية إلى إيطاليا عام 1939 م مع زملائه من الطلاب والطالبات ، حين كان يمرح الجميع وقف وحيداً

يدمدم بالكلمة تلو الكلمة حتى نظم أول بيت شعر فى حياته ، هكذا قفز البيت الأول من فمه كأنه سمكة حمراء تنط من أعماق الماء . ولعل شعور الفتى بفقدان السند والحماية بعد فراق أمه وأبيه لأول مرة كان وراء هذا التأمل والشرود على سطح السفينة ولا ريب أن إحساسه بقلق الهجر كان مساعدا لتحريك عواطفه الخفية إثر ارتمائه وحيدا فى عالم لا يعرفه فكان لابد أن يبحث عن بديل للأم الطيبة يستمد منه العون على مجابهة الحياة ، وفجأة تفجرت مياه العبقرية وطلعت إلى النور شعرا جمعه ودونه فى دفتر يومياته ، ليشق منذ ذلك الحين طريقه فى عالم الفن .

وهكذا ظل هاجس الأمومة يطارد الشاعر لا يتخلص منه ولا يريد أن يتخلص (إيضاح إلى قراء شعرى) :

وأنا - وأرجو أن أظل كما أنا-

طفلا يخربش فوق حيطان النجوم كما يشاء .

وعندما يصل نزار إلى الأربعين من عمره لا ينسى هذه الطفولة ، فها هو يرسل قصيدة من مدريد إلى أمه فى دمشق (خمس رسائل إلى أمى) :

وطفت الهند طفت السند طفت العالم الأصفر

ولم أعثر

على امرأة تمشط شعرى الأشقر

وتحمل فى حقيبتها إلىَّ عرائس السكر ..

فنزار يخبر أمه أن جميع النساء اللواتى تعامل معهن لم يشبعن نهمه العاطفى أو بالأحرى لم يفهمن طفولته ، وهنا لابد لنا وأن نعرف السبب الكامن وراء فشل زواجه الأول ونجاح زواجه الثانى ، لا سيما أن قصيدة " خمس رسائل إلى أمى " التى أرسلها من مدريد إلى دمشق كانت ما بين الزوجة الأولى والثانية أى فى فترة عزوبته الطويلة .

فنزار يشترط فى المرأة التى يحبها أن تستوفى شروط الأمومة ، فهو العصفور الذى يبحث عن شجرة تقيه قيظ الحياة (قصيدة الحزن) :

وأنا محتاج منذ عصور

لامرأة تجعلنى أحزن

لامرأة أبكى فوق ذراعيها مثل العصفور ..

ترضعه لبن العصفور وتدلله تدليلا يفسده ، كأن ليس فى الأرض قاطبة طفل سواه .

لذلك لم يجد نزار على الأرض امرأة غيرها (أشهد أن لا امرأة إلا أنت) :

أشهد أن لا امرأة أتقنت اللعبة إلا أنت

واحتملت حماقتى عشرة أعوام كما احتملت

واصطبرت على جنونى مثلما صبرت

وقلمت أظافرى ورتبت دفاترى

وأدخلتنى روضة الأطفال إلا أنت

أشهد أن لا امرأة تعاملت معى كطفل عمره شهران

إلا أنت

وقدمت لى لبن العصفور والأزهار والألعاب إلا

أنت

ودللتنى مثلما فعلتِ

وأفسدتنى مثلما فعلتِ

وإذا كانت الزوجة الأولى السورية (زهراء آق بيق) قد فشلت فى احتواء طفولته ولم تتعود أن تسامحه وتتحمل طفولته فإن الزوجة الثانية العراقية (بلقيس الراوى) قد راعت ذلك ونجحت فيه ، فرغم شهرتها قبل زواجها من نزار وانتسابها إلى أرقى بيوتات العراق ، والأعظمية أجمل الأحياء فى بغداد ، وكان الرئيس العراقى الراحل أحمد حسن البكر هو الذى أصر على أن يخطبها لنزار بنفسه ، وكان رسول البكر إلى أهل بلقيس وزير خارجية العراق آنذاك المرحوم الشاعر شاذل طاقة . لكنها تناست ذلك كله للاحتفاء بزوجها الطفل مما جعل نزارا يسعد بذلك سعادة بالغة فهو يقول " أهم ما فى نظرة بلقيس إلىَّ خلال اثنتى عشرة سنة اعتبارها إياى الطفل الثالث فى البيت ، كانت دائما تقول لى أنتم أطفالى الثلاثة زينب وعمر ونزار ولذلك كانت تتصرف معى عندما كنت أمرض أو أغضب أو أثور بنفس الطريقة التى تتصرف بها مع طفليها ". وهذا ما جعل الشاعر وهو فى السادسة والخمسين من عمره (عام 1979 م) وبعد زواج دام عشر سنوات يجمع كل مستلزمات المرأة الأم - فى بلقيس - إزاء طفلها الصغير فهى تشاركه لعبه وتحتمل حماقته وتصبر على جنونه وهى تعنى بهندامه فتقلم أظافره وترتب دفاتره وتدخله روضة الأطفال ، وهى

ونزار يشهد بنفسه لبلقيس أنها حولت شيخوخته طفولة :

أشهد أن لا امرأة قد جعلت طفولتى

تمتد للخمسين إلا أنت ..

أشهد أن لا امرأة غيرك يا حبيبتى

على ذراعيها تربى أول الذكور ..

وآخر الذكور .

وعندما يوجه حديثه إلى بلقيس نجده كالطفل الذى يتوسل إلى أمه :

احكى لى قصصا كالأطفال

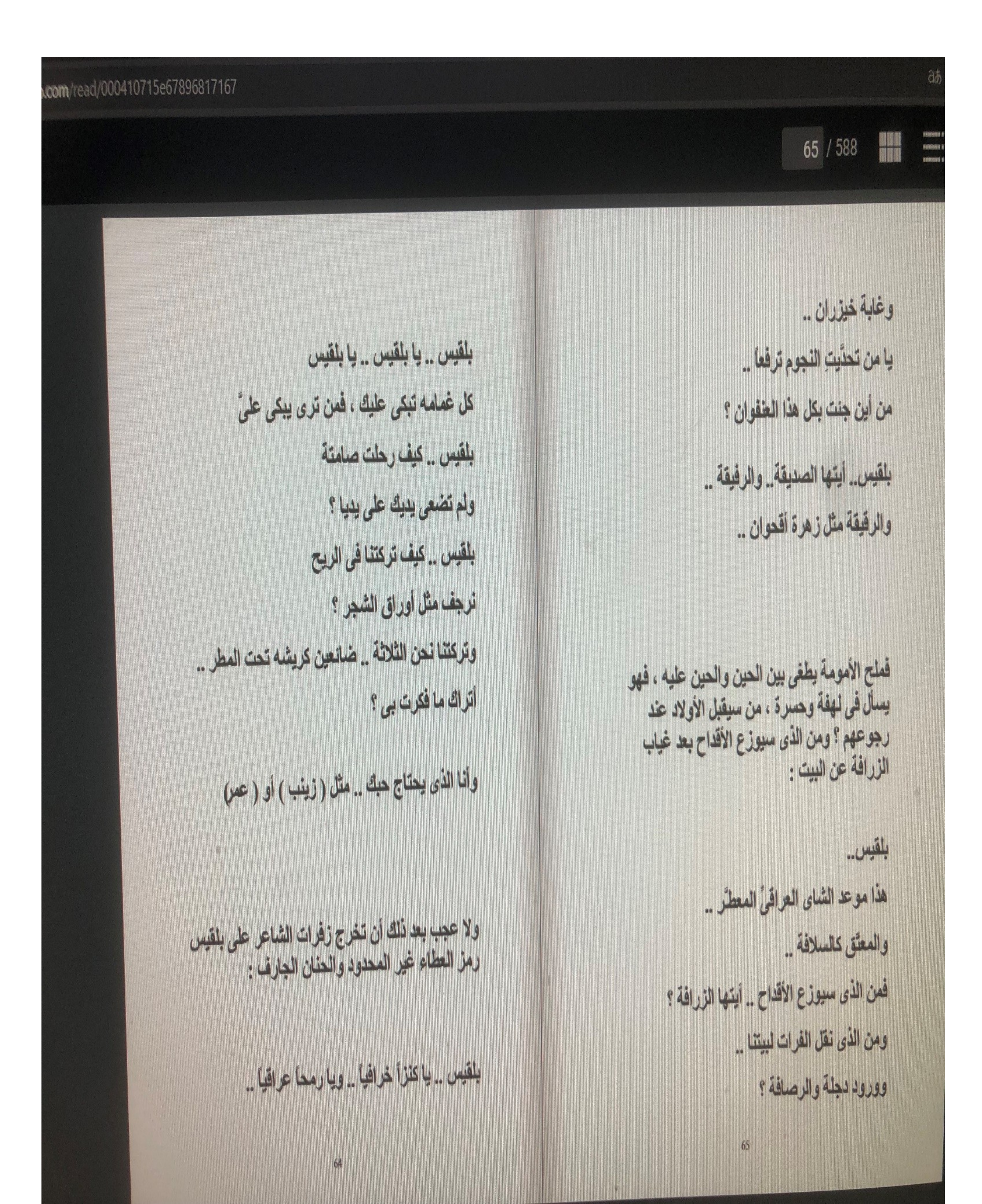
اضطجعى قربى غنينى ..

وعندما يصاب بالأزمة القلبية عام 1973 م ، يصور لنا حنان بلقيس الأمومى بقوله : " زوجتى بلقيس تقود

السيارة بيدها اليسرى إلى المستشفى ، وبيدها اليمنى تمسح العرق البارد المتدفق من جبينى ، كأنى طفل سقط فى بركة ماء " .

لذلك كانت فجيعة الشاعر على أمه عام 1976م - وإن كانت مدمرة له - أقل قسوة من رحيل بلقيس ، فأمه عندما ماتت كان البديل لها موجودا وهو بلقيس ، وموت الأم عند الفنان عميق الأثر يخلف فى نفسه جرحا طفوليا لا يندمل ، كأن يفقد الأمان والطمأنينة ويتملكه الخوف من أشياء مبهمة لا يستطيع تحديدها . يقول نزار فى موت أمه عام 1976 م : " بموت أمى يسقط آخر قميص صوف أغطى به جسدى ، آخر قميص حنان ، آخر مظلة مطر ، وفى الشتاء القادم ستجدوننى أتجول فى الشوارع عاريا " ، ويظهر خوفه الطفولى جليا عندما يصرخ فى رثائها : " فيا أمى يا حبيبتى يا فائزة ، قولى للملائكة الذين كلفتهم بحراستى خمسين عاما أن لا يتركوننى لأننى أخاف أن أنام وحدى " .

وهذا الخوف من المجهول عاد أشد حدة عندما ماتت بلقيس تحت أنقاض السفارة العراقية ببيروت ، لأنها- كما قلنا - كانت الزوجة والأم معا ، فهو خائف مثل الأطفال مرتجف مثل أوراق الشجر مثل طفليه زينب وعمر (قصيدة بلقيس) :



بلقيس .. يا بلقيس .. يا بلقيس

كل غمامه تبكى عليك ، فمن ترى يبكى علىَّ

بلقيس .. كيف رحلت صامتة

ولم تضعى يديك على يديا ؟

بلقيس .. كيف تركتنا فى الريح

نرجف مثل أوراق الشجر ؟

وتركتنا نحن الثلاثة .. ضائعين كريشه تحت المطر ..

أتراك ما فكرت بى ؟

وأنا الذى يحتاج حبك .. مثل (زينب) أو (عمر)

ولا عجب بعد ذلك أن تخرج زفرات الشاعر على بلقيس رمز العطاء غير المحدود والحنان الجارف :

بلقيس .. يا كنزاً خرافياً .. ويا رمحاً عراقياً ..

64

وغابة خيزران ..

يا من تحدَّيتِ النجوم ترفعاً ..

من أين جئت بكل هذا العنفوان ؟

بلقيس.. أيتها الصديقة.. والرفيقة ..

والرقيقة مثل زهرة أقحوان ..

فملح الأمومة يطغى بين الحين والحين عليه ، فهو يسأل فى لهفة وحسرة ، من سيقبل الأولاد عند رجوعهم ؟ ومن الذى سيوزع الأقداح بعد غياب الزرافة عن البيت :

بلقيس..

هذا موعد الشاى العراقىُ المعطَّر ..

والمعتّق كالسلافة ..

فمن الذى سيوزع الأقداح .. أيتها الزرافة ؟

ومن الذى نقل الفرات لبيتنا ..

وورود دجلة والرصافة ؟

65

فبرحيل بلقيس سقط فعلا آخر قميص للحنان من على جسد نزار ، فالطعنة استقرت فى أعماقه . وأحلامه الوردية هجرت قبل أن تعطيه الإنذار بذلك :

بلقيس .. مطعونون .. مطعونون فى الأعماق ..

والأحداق يسكنها الذهول

بلقيس .. كيف أخذتِ أيامى .. وأحلامى ..

وألغيتِ الحدائقَ والفصول.

يا زوجتى .. وحبيبتى .. وقصيدتى .. وضياء عينى ..

قد كنتِ عصفورى الجميل ..

فكيف هربتِ يا بلقيس منى ؟ ..

فبلقيس هى كل شئ ولا شئ بدونها ، فهى الكتابة والمنارة ولا يستطيع الشاعر البقاء فى الظلام أو بعيدا عن الحضارة :

السيف يدخل لحم خاصرتى .. وخاصرة العبارة ..

كلُّ الحضارة ، أنت يا بلقيس ، والأنثى حضارة ..

بلقيس: أنت بشارتى الكبرى .. فمن سرق البشارة ؟

أنت الكتابة قبلما كانت كتابة ..

أنت الجزيرة والمنارة ..

ب) الأب .. القطب الثانى :

لعل من أشق الأمور على النفس البشرية عامة ونفس الفنان على وجه الخصوص أن يكتب سيرته الذاتية لأنه لن يلتزم الحيدة آنذاك .

وعندما يكتب نزار عن أبيه فى سيرته الذاتية فإنه يقدم لنا أباه فى صورة مثالية نلمس فيها وفاءه وحبه الشديد له وتأثره به ككل ابن بار بأبيه وهو الذى كتب عند وفاة أبيه قصيدته الجميلة المؤثرة (أبى) التى

تمتلئ باللوعة والحزن الخفي ، وبالعنفوان والشموخ والتحدى فى آن واحد . ومطلعها :

أمات أبوك ؟

ضلال . أنا لا يموت أبى

ففى البيت منه

روائح رب .. وذكرى نبى

ونصل إلى التعرف على توفيق القبانى من خلال ما كتبه الشاعر عنه فى كتابه (قصتى مع الشعر) :

" أبي ، توفيق القبانى ، كان واحداً من أولئك الرجال .. من أصحاب الحوانيت ، الذين يموّلون الحركة الوطنيّة ، ويقودونها من حوانيتهم ومنازلهم ".

" حين رأيت عساكر السنغال يدخلون فى ساعات الفجر الأولى منزلنا بالبنادق والحراب ويأخذون أبى معهم فى سيّارة مصفحة إلى معتقل (تدمر) الصحراوى .. عرفت أن أبى كان يمتهن عملاً آخر غير صناعة

الحلويّات .. كان يمتهن صناعة الحريّة . كان أبى إذن يصنع الحلوى ويصنع الثورة . وقد لعبت مشاعر أبى القومية والإسلامية دورها فى قراره الحكيم بإرسالنا إلى مدرسة تجمع الثقافتين (الثقافة الفرنسية والثقافة العربيّة) وكانت تلك المدرسة الكلية العلمية الوطنية . عيناه الزرقاوان كانتا صافيتين كمياه بحيرة سويسرية ، وقامته مستقيمة كرمح محارب رومانى ، وقلبه كان إناء من الكريستال يتّسع للدنيا كلها ".

" كان الدين عنده سلوكاً وتعاملاً وخُلقاً . وشهد الله أنه كان على خُلق عظيم . دائماً كان فى ماله حق للسائل والمحروم . ودائماً كان فى قلبه مكان للمعذّبين فى الأرض . والرغيف فى منزلنا كان دائماً نصفين .. نصفه الأوّل لغيرنا .. والنصف الثانى لنا .. كان تفكير أبى الثورى يعجبنى .. وكنتُ أعتبره نموذجاً رائعاً للرجل الذى يرفض الأشياء المسلّم بها ، ويفكّر بأسلوبه الخاص .

" بالإضافة إلى شبهى الكبير له بالملامح الخارجية ، فقد كان شبهى له بالملامح النفسية أكبر . وإذا كان كل طفل يبحث خلال مرحلة طفولته عن فارس ، ونموذج وبطل .. فقد كان أبى فارسى وبطلى .. ومنه تعلّمتُ سرقة النار ... "

وقد أحب نزار شخصية أبيه لدرجة تفضيله إياه على أمه " بين تفكير أبى الثائر ، وتفكير أمى السلفى ، نشأتُ أنا على أرض من النار والماء . كانت أمى ماءً .. و أبى ناراً .. وكنت بطبيعة تركيبتى أفضّل نار أبى على ماء أمى .. "

لقد نشأ نزار فى بيئة متحجرة تلك البيئة التى ثارت على رائد المسرح (أبو خليل القبانى) لأنه يجمع الرجال والنساء فى قاعة مسرح واحدة حتى سمعنا أحدهم يستنجد فى خطبة الجمعة بالسلطان عبد الحميد : " أدركنا يا أمير المؤمنين فإن الفسق والفجور قد تفشيا فى الشام فهتكت الأعراض وماتت الفضيلة ووئد الشرف واختلطت النساء بالرجال" - هذا المجتمع المتحجر الذى يشبه التحجر الحالى اليوم فى السعودية والمجتمعات الخليجية المنغلقة ، ومن تأثر بالهجمة الوهابية الشرسة من المصريين وتلفع بالحجاب والنقاب واللحية إلخ . فى هذا المجتمع المتحجر كان الآباء يتمتعون بالسلطة الرادعة والأحكام التى لا تقبل المراجعة ، وربما زادت هيبة الأب كلما اتسعت الفجوة بين ثقافته وثقافة زوجته ، ونحن نعلم أن المرأة آنذاك كانت تؤمن إيمانا أعمى بتقاليد محيطها - فلا غرابة والحالة هذه أن تشعر المرأة بنقص تجاه الرجل لأنه

رمز القوة والقدرة والحرية ولأنها رمز الضعف والاستكانة والعبودية ، ولابد أن ينعكس هذا الشعور على أفراد الأسرة جميعا من الإناث والذكور فيكون الأب مصدر السلطة والرهبة وعنوان الكبت والقهر . ومما يدل على ذلك انتحار شقيقة نزار الكبرى من أجل الحب . يقول نزار : " كل أفراد الأسرة يُحبّون حتى الذبح .. وفى تاريخ الأسرة حادثة استشهاد مثيرة سببها العشق .. الشهيدة هي أختى الكبرى وصال . قتلت نفسها بكل بساطة وبشاعرية منقطعة النظير .. لأنها لم تستطع أن تتزوج حبيبها " . لم يكن ذلك بسبب قسوة معاملة أبيها لها ولكن نتيجة التربية الصارمة والمجتمع المتزمت ككل والذى كان لا يزال - كالعرب القدامى الذين سببوا مأساة قيس ليلى وكثير عزة وجميل بثينة وعنترة عبلة - يعتبر الحب جرما لا يغتفر وأنه لا يحل تزويج البنت لمن تحبه ويحبها .

وتعتبر هذه الحادثة بمثابة الصدمة التى فجرت العدوانية المكبوتة فى نفس شاعرنا منذ سنوات طفولته ، فهى تعتبر أجل صورة لما كان يتم فى هذا المجتمع الأبوى ، صحيح أن نزارا لم يتوسع فى هذه الحادثة ، بل أوردها موجزة ، غير أننا نعتبر حادثة الانتحار مدخلا إلى البيئة التى خضع لها فى مراهقته ، وهى عينها البيئة التى خضع لها فى طفولته فنظام تقليدى واحد تحكم بطفولة نزار ومراهقته .

وإذا كانت حادثة الانتحار هذه قد تمت والشاعر فى الخامسة عشرة من عمره فهى فترة المراهقة التى يبحث فيها كل مراهق عن استقلاله الذاتى عن الآخرين ، فبعد عام من هذه الحادثة يخرج الصبى شاعرا عاصفا فى وجوه التسلط جميعا وربما كان الشاعر يكتب فيما بعد على لسان وصال وكل فتاة معذبة مثلها فى هذا المجتمع الأبوى المتزمت (والذى عاد اليوم لتزمته مع الهجمة الوهابية الشرسة على مصر والمغرب العربى والشام) حين قال فى "يوميات امرأة لا مبالية " :

أبى رجل مريض فى محبته

أبى صنف من البشر

مزيج من غباء الترك ، من عصبية التتر

أثر الأبوية فى شعره :

كان المجتمع الأبوى إذن رمزا للقهر والتسلط مما دفع بـ "وصال" إلى الانتحار ، وكان لذلك تأثير بالغ فى تكوين الصبى : " صورة أختى وهى تموت من أجل الحب .. محفورة فى لحمى . لا أزال أذكر وجهها الملائكى ، وقسماتها النورانية ، وابتسامتها الجميلة وهى تموت .. كانت فى ميتتها أجمل من رابعة العدوية .. وأروع من كليوبترا المصرية .. حين مشيتُ فى جنازة أختى .. وأنا في الخامسة عشرة ، كان الحب يمشى إلى جانبى فى الجنازة ، ويشدّ على ذراعى ويبكى .. هل كان موت أختى فى سبيل الحب أحد العوامل النفسية التى جعلتنى أتوفر لشعر الحب بكل طاقاتى ، وأهبه أجمل كلماتى ؟

هل كانت كتاباتى عن الحب ، تعويضاً لما حُرِمَتْ منه أختى ، وانتقاماً لها من مجتمع يرفض الحب ، ويطارده بالفؤوس والبنادق ؟".

إن نزارا فى الحقيقة تفرغ منذ البداية للانتقام من المجتمع ، صحيح أن أخته وصال كانت من أبرز الأسباب لذلك الانتقام من المجتمع ، لكن أمه فائزة أيضا كانت أحد هذه العوامل إضافة إلى جميع نساء بلاده فقد عانين جميعا من المجتمع المتزمت أشد معاناة ، كما أن شباب جيله أيضا كان يعانى من صدامه مع هذا المجتمع ، والشاعر عندما يريد الانتقام لأخته وأمه

ونساء قومه وشباب جيله ، هو فى الحقيقة ينتقم من كل سطوة وقهر وبطش فى كل مجال ليس على الصعيد الاجتماعى والأسرى والعاطفى فقط بل على الصعيد المحلى والدولى والسياسى والثقافى والعلمى والدينى أيضا ، ورمز فى أشعاره للحاكم الدكتاتور وللمجتمع المتزمت والمتكاسل والمدروش وظاهرى التدين والمخدر بالدين وكرة القدم بالأب ، ولذلك أعلن الشاعر تمرده على السلطة الأبوية (السياسية والاجتماعية والدينية) بكل ما ترمز إليه هذه السلطة ، كما قال فى قصيدته " الوصية " :

أفتحُ صندوقَ أبى أمزّقُ الوصيّة

أسحبُ سيفى غاضباً

واقطعُ الرؤوسَ ، والمفاصل المرخيَّة

وأهدمُ الشرقَ على أصحابِهِ

تكيّةً .. تكيّةً.

أرفضُ ميراثَ أبى.

وأرفضُ الثوبَ الذى ألبسَنى

وأرفضُ العلمَ الذى علّمنى

وكلَّ ما أورثنى .. من عُقَدٍ جنسيَّة

فصورة الأب لدى نزار صورتان : أب سلبى شرير وهو الحاكم الدكتاتور أو رجل الدين الوهابى المتزمت ، وأب إيجابى جيد وهو مثل أبيه توفيق القبانى ومثل جمال عبد الناصر ، والأب الإيجابى عنده هو رمز للبطل .. فصورة البطل ظلت هى صورة الأب فى ذهن الشاعر ، وربما وضحت هذه الصورة بصورة أدق عندما مات الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ، فكلاهما توفيق وجمال بطل ثورى فى نظر الشاعر ، وكلاهما صاحب سلطة . ورغم عتاب الشاعر على عبد الناصر ضمن بقية قادة الوطن العربى بعد نكسة يونيو 1967 فى قصيدته الشهيرة هوامش على دفتر النكسة ، إلا أنه عتاب المحبين ، فنزار كبقية أبناء جيله العربى كان ناصريا حتى النخاع ، وشعر بالصدمة والحزن والغضب نتيجة النكسة غير المتوقعة ، ولكنه شاهد إنجازات ناصر وتأثر بها منذ الثورة وجلاء الإنجليز وبناء السد العالى وتأميم قناة السويس وقيام الوحدة بين مصر وسوريا تحت اسم الجمهورية العربية المتحدة ، وشاهد مرونة ناصر وسماحه بدخول قصيدة الهوامش ودخول نزار إلى مصر وأوقف كل الإجراءات التى اتخذها قصيرو النظر ضد الشاعر ، بل وشاهد نزار بعينيه

أيضا حرب الاستنزاف وبناء عبد الناصر للقوات المسلحة المصرية من جديد والاستعانة بالجنرال الذهبى عبد المنعم رياض ، وعلم ببطولات الجيش المصرى فى شدوان وضرب الغواصة إيلات وسفينتى بيت شيفع وبات يام فى ميناء إيلات ، ورأى كيف تمكن عبد الناصر من إصلاح ما أفسدته النكسة وأفنى عمره القصير فى سبيل مصر والأمة العربية بل والأمم الأفريقية واللاتينية أيضا ، وتوفى عن عمر يناهز52 عاما .. فترجم نزار مشاعره ومشاعر الملايين من الشعب المصرى والشعوب العربية التى بكت هذا الزعيم الكبير ، وسارت فى جنازته حقا ورمزيا .. فى عدة قصائد كانت تأكيدا على أن نقده لعبد الناصر فى قصيدة الهوامش لم يكن كرها بل عتابا ، وحملها تقديره العميق له ولإنجازاته وحبه له .. فى قصائد (جمال عبد الناصر ومطلعها قتلناك يا آخر الأنبياء ، ورسالة إلى جمال عبد الناصر ومطلعها عندى خطاب عاجل إليك ، والهرم الرابع ومطلعها السيد نام ، وإليه فى يوم ميلاده ومطلعها زمانك بستان وعصرك أخضر) .. فكان رثاء من الشاعر لأبيه ولعبد الناصر فى آن واحد ، فقد شعر كل عربى ومصرى يومها يوم28 سبتمبر 1970 باليتم وبوفاة أبيه ، وكان المصريون يهتفون يومها " عبد الناصر يا عود الفل ، من بعدك هنشوف الذل " ، فالرثاء فى الحقيقة للاثنين معا أو على الأقل أعاد إلى ذهن الشاعر موت أبيه بكل خلفياته اللاواعية إذ كلاهما بطل مات على أيدى أبنائه .. مات

فى سبيلهم ومات من مؤامرات العاقين منهم فى الخليج وتركيا (قصيدة جمال عبد الناصر) :

قتلناك ... يا حبنا وهوانا ...

و كنت الصديق و كنت الصدوق ... وكنت أبانا ...

و حين غسلنا يدينا ...

اكتشفنا ..

بأنا قتلنا مُنانا ...

و أن دماءك فوق الوسادة ..

كانت دمانا ...

ولسنا نزعم أن الطفولة وحدها كافية لتفسير نتاج الأديب فالأديب حصيلة المؤثرات الخارجية المتلاحقة التى تطرأ عليه طول حياته ، ويندرج فى هذه المؤثرات أوضاع العصر والبيئة وتيارات الثقافة وسواها من العناصر المكونة للإبداع . وهذا ما جعل الشاعر بعد عشرين عاما من العمل السياسى يتحول من حارس ليلى على باب المرأة إلى محارب بالكلمة من أجل

تحرير الأرض العربية ، والإنسان العربى من ربقة الاستعمار والاحتلال الأمريكى والأوربى والصهيونى ، وأيضا من سيطرة آل سعود والسادات ومبارك ومحور الاعتلال والحكام العرب الطغاة وملوك الطوائف ، ورجال المؤسسة الدينية السعودية الوهابية وملحقاتها المتطرفة فى مصر وغيرها .

بقى أن نشير إلى مظاهر البهجة والنعيم التى عاش فيها نزار طفولته وشبابه وترجمها فى كتابه " قصتى مع الشعر " فشعر نزار فى دواوينه الأولى يعبر عن هذا النعيم والبذخ الذى كان يحياه ، بل إن ديوانه الأول بالطريقة التى ظهر بها أجلى دليل على ذلك .

وكما قلنا فقد كان توفيق القبانى صانعا للحلوى والثورة وكانت دارهم ملتقى الثوار ، ويقول أحمد زكى أبو شادى : " كنا نشير إلى والده توفيق القبانى الوطنى الغيور ، الذى اعتقل عدة مرات ، ونفى إلى قلعة تدمر إبان الاحتلال ، وكانت دار القبانى فى دمشق مركزا من مراكز الكتلة الوطنية " . ووصف محيى الدين صبحى فى كتابه (نزار قبانى شاعرا وإنسانا) بيت نزار كما وصفه نزار تماما وقابل والدة الشاعر وحكت له طفولته كما تحدث عنها نزار وقال إنه من أسرة ذات مكانة مرموقة فى دمشق .

78

مرحلة الشباب :

ونقصد بهذه المرحلة الفترة التى تمتد منذ صدور ديوانه الأول " قالت لى السمراء " عام 1944 م حتى اعتزاله العمل السياسى الرسمى فى 1966 م ، وهذه الفترة من حياة الشاعر ، تعتبر من أغنى فترات حياته إنتاجا للشعر الغزلى برغم عمله السياسى ، فنزار بعد أن أنهى دراسة الحقوق بالجامعة السورية عام 1945 م التحق مباشرة بوزارة الخارجية السورية ، والتحق بأول بعثة دبلوماسية له فى العام نفسه إلى القاهرة وبقى بها حتى عام 1948 م ، وقبل أن يترك القاهرة طبع ديوانه الثانى " طفولة نهد " عام 1948 م ، يقول نزار عن هذا الديوان : " فى هذا الديوان ارتفع التكنيك الشعرى إلى درجة عالية ، وأصبحت رقابتى على الحروف من القسوة بحيث كنت أختار الكلمة بين المائة وأستعرض حشود الكلمات قبل أن أمد يدى لالتقاط واحدة منها ، هذه المسؤولية الفنية التى ربطت بها نفسى - على قسوتها - كانت بابى إلى الجديد وهى التى حفظتنى من اجترار التاريخ .. وارتداء أزياء الآخرين والسطو على أرزاقهم والنبش فى أوراقهم" .

وبعد أن ترك نزار القاهرة سافر إلى تركيا عام 1948 م ثم إلى لندن عام 1952 م ثم إلى بكين ومدريد ، وقد أتاح له العمل فى السلك السياسى رؤية أوروبا كلها

79

تقريبا لذلك اتسع مدى الرؤية الشعرية عنده . يقول نزار عن ذلك : " وعلى لهيب الحضارات العريقة أعدتُ تكوين حروفى وتدويرها وأخذ الصلصال الساخن فى اليد الشرقية أشكالا جديدة ، والقصيدة العربية التى كنا ننظر إليها كشكل أبدى لا يجوز اللعب به ، أخذت شكلا مرنا دون أن تتخلى عن ركيزتيها التقليديتين القافية والنغم إلا أن النغم لم يعد مدرجا من ست عشرة نغمة ، إنما أصبح صالة تعزف فيها ألوان النغمات بأساليب لا تنقصها الإجادة والإطراب " .

وطوال هذه الفترة لم نسمع عن أى تفوق سياسى لنزار (إلا فى النزر اليسير فى قصائده عن العدوان الثلاثى وبورسعيد والسويس وجميلة بوحيرد وراشيل شوارزنبرغ واغتصاب فلسطين) وإنما كانت هذه الفترة من أخصب فتراته الشعرية ، ومن أكثرها إثارة ، إذ كون نزار إمبراطوريته الشعرية والتى على أساسها قرر الاستقالة وتفرغ كلية للكتابة والنشر . وقد صدر له فى هذه الفترة ستة دواوين شعرية هى بالترتيب " طفولة نهد" و " سامبا" و " أنت لى" و " قصائد " و " حبيبتى" " الرسم بالكلمات " . إضافة إلى ديوانه الأول " قالت لى السمراء " .

تربع نزار بلا منافس على عرش الشعر العربى الغزلى فقدم خلال هذه الدواوين أكثر من مائتين وخمسين قصيدة كانت من أشهر ما قيل من شعر غنائى خلال هذه

الفترة .. ومن أكثره انتشارا على ساحة العالم العربى ، فلم يسبق لشاعر عربى أن وزع من ديوان واحد مائة ألف نسخة وطبع من ديوان واحد طبعات تجاوزت خمسا وعشرين طبعة كديوان " قصائد " الذى طبع خمسا وعشرين مرة حتى عام 1981 م ، فقد طبع أول مرة عام 1956 م ، وهذا يعنى أنه طبع مرة كل عام ، وهى ظاهرة لم يألفها تاريخ الشعر العربى على مدار عصوره وأمجاده .

مرحلة الرجولة والشيخوخة :

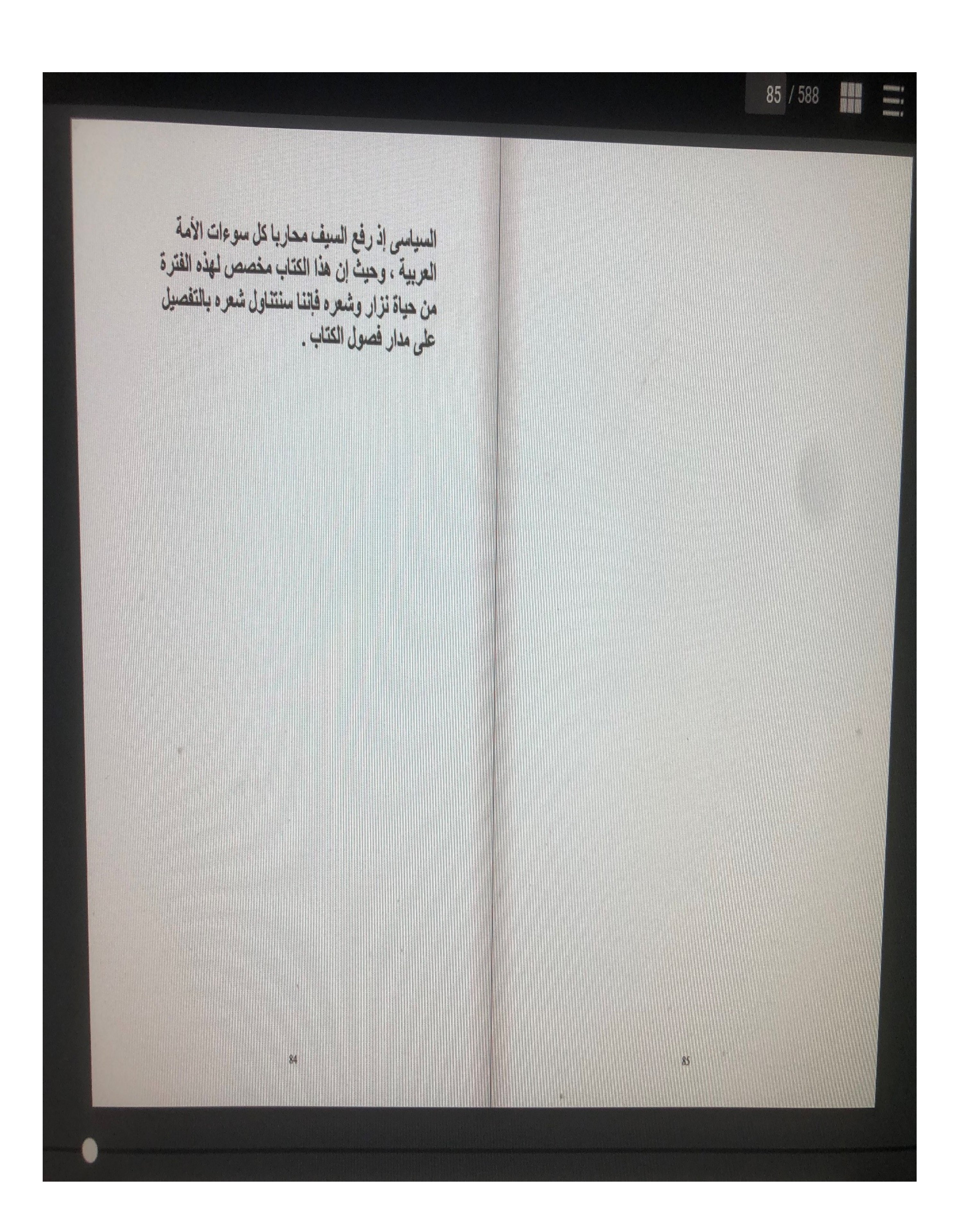
ونقصد بها الفترة الممتدة من هزيمة 1967 م إلى الآن وهى فترة شعره السياسى ، فقد تفرغ نزار للشعر قبيل الهزيمة مباشرة ، إذ اعتزل عمله الدبلوماسى فى عام 1966 م ، وتفرغ للنشر والكتابة واستقر به المقام نهائيا فى بيروت لهذا الأمر (لكنه غادر بيروت إلى القاهرة بعد مقتل بلقيس عام 1981 م ، ثم غادرها بعد فترة وجيزة نتيجة مضايقات صحفيى السادات ومبارك إلى جنيف ، ثم إلى لندن حيث توفى هناك 1998 م ، غير أنه لم يعمل كناشر عام بل اكتفى بنشر شعره فقط ، وظل نزار غزير الإنتاج في هذه الفترة أيضا فأنتج خلالها عدة دواوين شعرية غنائية : يوميات امرأة لا

مبالية 1968 م ، و قصائد متوحشة 1970 ، وكتاب الحب 1970 ، و 100 رسالة حب 1970 ، وأشعار خارجة على القانون 1972 ، وأحبك أحبك والبقية تأتى 1978 ، وإلى بيروت الأنثى مع حبى 1978 ، وكل عام وأنت حبيبتى 1978 ، وهكذا أكتب تاريخ النساء 1981 ، وقاموس العاشقين 1981 ، والحب لا يقف على الضوء الأحمر 1985 م بالإضافة إلى شعره السياسى الذى ضمه فى مجلد واحد عام 1983 م ، إلى جانب ديوان بلقيس وديوان "أشهد أن لا امرأة إلا أنت" 1979 وديوان "قصائد مغضوب عليها" 1986 وهو يتكون من أربعة وعشرين قصيدة سياسية تعتبر رؤية جديدة فى نتاج نزار الشعرى ، وديوان " سيبقى الحب سيدى " 1987 ، كما صدر له " ثلاثية أطفال الحجارة " 1988 ، و " الأوراق السرية لعاشق قرمطى " 1988 ، و (السيرة الذاتية لسياف عربى) 1988 وهو عبارة عن قصيدة طويلة تتكون من 154 بيتا ومقسمة إلى سبعة مقاطع .. ، و "تزوجتك أيتها الحرية " 1988 ، و "الكبريت فى يدى ودويلاتكم من ورق" 1989 ، و "لا غالب إلا الحب" 1989 ، و "هل تسمعين صهيل أحزانى ؟" 1991 ، وهوامش على الهوامش ، وأنا رجل واحد وأنت قبيلة من النساء 1992 ، وتنويعات نزارية على مقام العشق 1995 ، وخمسون عاما فى مديح النساء 1994 .. وفى عام 1973 م عرف الناس أن نزارا يجيد كتابة النثر إجادته للشعر عندما بدأ يكتب فى " الأسبوع العربى "

اللبنانية فى السياسة بأسلوب رائع وفريد ، وعندما أقبل نزار على الكتابة نثرا ووجد اهتمام القراء بذلك أصدر عدة كتب نثرية : الكتابة عمل انقلابى ، وشئ من النثر ، وقصتى مع الشعر ، والمرأة فى شعرى وفى حياتى ، وما هو الشعر ، والكلمات تعرف الغضب (جزءان) ، والشعر قنديل أخضر ، والعصافير لا تطلب تأشيرة دخول ، وعن الشعر والجنس والثورة ، ولعبت بإتقان وها هى مفاتيحى . كما أنتج مسرحية شعرية تتناول الحرب الأهلية اللبنانية بعنوان (جمهورية جنونستان .. لبنان سابقا) . وأصدر ديوانا محظورا فى مصر هجا فيه السادات هو ديوان اليوميات السرية لبهية المصرية .

وقد اطلع نزار على كبار الشعراء الفرنسيين الاشتراكيين اليساريين مثل بول إيلوار ، ولويس أراغون ، وإدوارد رامبو ، والشاعر الفرنسى الرمزى ستيفان مالارميه وبول فاليرى وجاك بريفير والشاعر الألمانى راينر ماريا ريلكه ، والأسبانى لوركا .. وتأثر بهم وذكرهم فى شعره ونثره .. كما تحدث فى مقابلاته الصحفية عن جارسيا ماركيز وبابلو نيرودا وجان كوكتو والشاعر الأمريكى إزرا باوند والشاعر الروسى فلاديمير ماياكوفسكى

وكما كان نزار فى فترة الشباب نجما شعريا يتفنن فى غزلياته ، فقد أصبح فى هذه الفترة نجما فى الشعر



السياسى إذ رفع السيف محاربا كل سوءات الأمة
العربية ، وحيث إن هذا الكتاب مخصص لهذه الفترة
من حياة نزار وشعره فإننا سنتناول شعره بالتفصيل
على مدار فصول الكتاب .

84

85

الفصل الثانى : وظيفة الشعر عند نزار

مفهوم الشعر عند نزار :

يرى نزار أن مهمة الشعر بالدرجة الأولى مهمة لصالح الشعب العربى وهى بذلك تصبح مهمة ذات طابع تصادمى مع الحكومات العربية ولم يكن نزار مخترعا لهذه المهمة ، أو مؤلفا لها فقد أشار كثير من النقاد العرب إلى ذلك فيرى الدكتور محمد مندور فى كتابه (فى الأدب والنقد) أن الوظيفة الكفاحية للأدب يمكن أن تتجه نحو تحقيق الأهداف السياسية والاجتماعية للمجتمع ، ويضيف بأنه لا مراء فى أن الأدب قد لعب خلال التاريخ دورا كبيرا جدا فى ثورات الشعب وحركاتها الاستقلالية والاجتماعية ، فالبؤس المادى ذاته لا يحرك الشعوب بل يحركها الوعى به ، والذى لا شك فيه أن الحركات الكبيرة التى قامت فى التاريخ الحديث كالثورة الفرنسية ووحدة إيطاليا وثورة روسيا البلشفية قد مهد لها الكتاب بعملهم فى النفس البشرية تمهيدا بدونه لم يكن من الممكن أن تقوم هذه الحركات . ومهمة الشعر الاجتماعية والسياسية ليست وليدة

العصر لكنها قديمة قدم الشعر نفسه ومنها استمد الشاعر قيمته بين معاصريه ، وكما يقول نزار نفسه فى كتابه (ما هو الشعر ؟) فإن : القبائل العربية فى الجاهلية كانت تحتفل بظهور شاعر فيها كما يحتفلون اليوم بتنصيب البابا .. أو تتويج إمبراطور .. أو انتخاب ملكة جمال الكون أو إطلاق رائد فضائى إلى القمر ولا ينبغى لنا أن نعلل ذلك الاحتفال بما علله الأقدمون مما ذكره الدكتور محمود الربيعى فى كتابه (مقالات نقدية) من أن الشاعر كان هو الذى يحامى عن القبيلة ويجسد فضائلها ويهون من شأن أعدائها ، فليست مهمة الشاعر مقصورة على مجرد كونه كلبا من كلاب الحراسة أو من كلاب الصيد لا يُكرم إلا من أجل الغاية العملية التى يحققها ، وإذا أردنا أن نتعرف على مهمة الشاعر القديم نجد أنها كانت مسؤولية مزدوجة فهو من ناحية يقدم لهذا المجتمع صورة تنتزع عناصرها من حياته اليومية وهو من ناحية أخرى يضئ للمجتمع الطريق للمستقبل ، وذلك حين يكبح جماح نزواته أو يستثير حميته . وقد وعى نزار ذلك منذ الوهلة الأولى لإحساسه المفرط بأنه شاعر العرب الأول المدافع عن قضاياهم بكل أنواعها . يقول نزار فى كتابه (ما هو الشعر ؟) : " الجمهور العربى هو قدرى .. كما أنا قدره.

إننى لستُ – ولا أستطيع أن أكون – شاعراً إسكندينافياً ، ولا يعنينى أبداً أن يعطينى ملك السويد جائزة نوبل ..



الجائزة الكبرى يعطينى إياها هذا المواطن العربى الذى أكتب له دون أن أعرف اسمه .. تعطينى إياها أى نخلة فى الصحراء تعلمت مبادىء القراءة والكتابة على يدى ... ومبادىء العشق على يدى .." . ومن هنا شعر نزار بحاسته الشعرية بمعاناة الجماهير العربية وانفصالها عن الحكام ، فكان عليه أن يعبر عن طموحات المعنيين ويدافع عنهم أو يتغنى - كما فعل غيره - باسم السلطان وقد انحاز للأولى معلنا العصيان على السلاطين فهو يرى أن " العرب عربان. عرب يحكمون . وعرب محكومون ... والعرب المحكومون ، على طيبتهم وبساطتهم ، لا يستطيعون أن ينتزعوا شعرةً واحدة من رأس السلطان . إننا نكذب على بعضنا إذا قلنا إن النفط فى حياتنا لم يأخذ شكل القضاء والقدر .. وأنا يطيب لى أحياناً أن أتحرش بالقضاء والقدر ... ".

لذلك يرى نزار ضرورة الثورة الانقلابية على كل الأوضاع العربية الراهنة ، محددا دور الأدب عامة والشعر خاصة ، إذ ينبغى أن تكون كلماته انقلابية أيضا ، يقول فى كتابه (الكتابة عمل انقلابى) : " الشرط الأساسى فى كل كتابة جديدة هو الشرط الانقلابى وهو شرط لا يمكن التساهل فيه ، أو المساومة عليه " .. إن المكان الطبيعى للكاتب العربى المعاصر هو فى صفوف الانقلابيين ومهما اختلفت المواقف الوجودية بين كاتب وكاتب وتباينت الرؤى بين شاعر وشاعر .. فإن القاسم المشترك بين كل من يكتبون هو الثورة والرغبة

المشتركة فى تغيير جلد العالم العربى .. وتغيير دمه . هذا هو الهدف العام الذى تركض باتجاهه كل الخيول وإن اختلفت طريقة الركض .. وأسماء الجياد " .

يقول نزار فى قصيدته (إفادة فى محكمة الشعر) :

نرفضُ الشعرَ مسرحاً ملكياً

من كراسيهِ يحرمُ البسطاءُ

نرفضُ الشعرَ أن يكونَ حصاناً

يمتطيهِ الطغاةُ والأقوياءُ

نرفضُ الشعرَ عتمةً ورموزاً

كيف تستطيعُ أن ترى الظلماءُ ؟

نرفضُ الشعرَ أرنباً خشبياً

لا طموحَ لهُ ولا أهواءُ

كلُّ شعرِ معاصر ليسَ فيهِ

غضبُ العصر نملة عرجاءُ

ما هوَ الشعرُ ... إن غدا بهلواناً

يتسلّى برقصهِ الخُلفاءُ

ما هو الشعرُ... حينَ يصبحُ فأراً

كِسرةُ الخبز –هَمُّهُ- والغِذاءُ

و إذا أصبحَ المفكّرُ بُوقاً

يستوى الفكرُ عندها والحذاءُ

يُصلبُ الأنبياءُ من أجل رأى

فلماذا لا يُصلبَ الشعراءُ ؟

ويقول نزار أيضا فى قصيدته (تقرير سرى جدا من بلاد قمعستان) :

يا أصدقائى:

ما هو الشعر إذا لم يعلن العصيان ؟

وما هو الشعر إذا لم يسقط الطغاة ... والطغيان ؟

وما هو الشعر إذا لم يحدث الزلزال

في الزمان والمكان ؟

وما هو الشعر إذا لم يخلع التاج الذى يلبسه

كسرى أنوشروان ؟



وهواهم عواطفٌ عمياء

وهذا ما جعل الشاعر مناهضا لكل الأنظمة العربية بجميع ألوانها وأشكالها (أنظر فصل الحرية فى هذا الكتاب) برغم معرفته الكاملة لما يمكن أن تسفر عنه هذه المناهضة غير أنه ينوى أن يصل إلى ما يصبو إليه مهما كان الثمن غاليا فيقول فى كتابه (ما هو الشعر ؟) :

أنا شاعر مزروع كالرمح فى الزمن العربى

أنا أدميه .. وهو يدمينى

أنا أحاول تغيير إيقاعه ، وهو يحاول تغيير صوتى.

أنا أحاول أن أفضحه ، وهو يحاول استئصال حنجرتى

أنا أحاول تحديه .. وهو يحاول رشوتى.

أنا رجل يصحو ، وينام ، ويكتب ، على ضفاف الجرح العربى المتقيح منذ سقوط الدولة العباسية حتى اليوم

الفرق بينى وبين سواى ، أننى لا أؤمن بالطب العربى ،

ولا بالسحر العربى .. ولا أسمح لنفسى بالبقاء خارج غرفة العمليات أشرب القهوة .. وأدخن السجائر .. وأدعو للمريض بطول البقاء.

إن غريزة الصراخ هى أقوى غرائزى.

لذلك أرى نفسى فى حالة صدام تلقائية ، مع كل (كاباريهات) السياسة العربية ، ومع كل المطربين ، والطبالين ، والزمارين ، والحشاشين ، والقوالين ، والقوادين ، الذين يشربون فى النهار نخب الأمة العربية .. ويشربون فى الليل دمها.

أرى نفسى فى حالة صدام يومية ، مع الذين يحترفون الزنى السياسى العلنى على أرصفة الوطن العربى ، ومع هذا السيرك الكبير الذى ما زالت حيواناته المدربة تقرقش عظام الشعب العربى كما يقرقش السنجاب حبة البندق ....

وإلى أن تغلق أبواب كباريهات السياسة العربية ، ويستقيل مدربو الأفيال ، ومرقصو القردة ... يتوجب على الشعر أن يفضح تفاهة التمثيلية .. ورداءة الإخراج .. وكذب الممثلين .. وأن يستمر فى مطاردة هؤلاء .. حتى يغادروا المسرح نهائياً."

أنظر فى ذلك قصائد " الممثلون" ، " عزف منفرد على الطبلة" ، " من يوميات كلب مثقف" ، " تقرير سرى جدا من بلاد قمعستان" ، " لماذا يسقط متعب بن تعبان فى امتحان حقوق الإنسان " ، وديوان قصائد مغضوب عليها ، وكذلك قصيدة " أنا يا صديقة متعب بعروبتى " . وديوان أو قصيدة " السيرة الذاتية لسياف عربى ".

وإذا كان هذا موقف الشاعر الذى لا يحيد عنه ولا يرضى بغيره بديلا فإن أول ما يتفجع الشاعر عليه هو تحول بعض الشعراء والكتاب إلى دهاليز السلطة ، على مصلحة العرب العليا ، حيث إنه لا يوجد بين الحكام جميعا من يطمئن الشاعر إليه لذلك وصف الحكام بأبشع الصفات ، كما فى قصيدة (تقرير سرى جدا من بلاد قمعستان) :

لم يبق فيهم لا أبو بكر .. ولا عثمان

جميعهم هياكل عظمية فى متحف الزمان

تساقط الفرسان عن سروجهم

وأعلنت دويلة الخصيان

واعتقل المؤذنون في بيوتهم

وألغى الأذان..

جميعهم .. تضخمت أثداؤهم

وأصبحوا نسوان

جميعهم يأتيهم الحيض ومشغولون بالحمل

وبالرضاعة..

جميعهم قد ذبحوا خيولهم

وارتهنوا سيوفهم

وقدموا نساءهم هدية لقائد الرومان

ما كان يدعى ببلاد الشام يوما

صار فى الجغرافيا..

يدعى (يهودستان)

بألوف القصائد المنافقة التى تحولت مع مرور الزمن إلى هياكل من الشك وأكوام من الخردة ، غير أن ما يدهشنا هو أن تستمر هذه الظاهرة فى الشعر العربى الحديث حيث نلاحظ أن بعض شعرائنا قد تحولوا هم أيضا إلى أوتوبيسات تنحرف يمينا ويسارا على عواصم الوطن العربى حاملة فى صناديقها الخلفية ألبسة التمثيل وأدوات الماكياج وقصائد تتغير عناوينها حسب مقتضى الحال ولا يمكن للشاعر أن يختار الثلج والنار معا ولا يمكنه أن يكون فى النجاة وفى الموت فى الوقت نفسه ، وثلاثة أرباع الكتاب العرب موظفون أميريون يكتبون وفى جيوبهم بوليصة تأمين ضد الفقر ، والمرض والشيخوخة ، والطرد التعسفى لذلك فهم عاجزون عن أى إضراب وعن السير فى أية مظاهرة وعن توزيع أية قصيدة أو منشور سرى لا يوافق عليه رب العمل وهكذا يقف الكاتب العربى ممزقا بين وضعه المدنى كرجل متزوج من الحكومة ووضعه الفنى كرجل يشتهى خيانة زوجته الحكومة ولكنه لا يستطيع التنفيذ حرصا على مستقبل الأولاد وشرف العائلة ، وإلى أن يوجد الكاتب العربى الشجاع الذى يستطيع أن يمزق ورقة زواجه من السلطة ويمارس الخيانة الزوجية ولو مرة واحدة سوف تبقى كتب الأدب لدينا بعيدة عن المنع والمصادرة تماما ككتب التدبير المنزلى " ، فالشعر أعلى منزلة من هذه الهوة السحيقة التى دفن فيها ، على أيدى مريديه وأربابه لكن نزار يوضح ذلك بصورة جلية فى قصيدته (قصيدة اعتذار لأبى تمام) :

إذا كنّا نظنُّ الشعرَ راقصة .. مع الأفراح تُستأجَرْ

وفى الميلادِ .. والتأبين تُستأجرْ

ونتلوهُ كما نتلو كلامَ الزّير أو عنترْ

إذا كانتْ همومُ الشعر يا سادةْ

هى الترفيهُ عن معشوقةِ القيصرْ

ورشوة كلّ مَن في القصر من حَرسٍ .. ومن عسْكَرْ..

إذا كنّا سنسرقُ خطبةَ الحجّاج ، والحجّاجَ ، والمنبرْ

ونذبحُ بعضنا بعضاً لنعرفَ مَن بنا أشْعَرْ

فأكبرُ شاعرٍ فينا هو الخنجرْ ..

ونلاحظ هنا أن الشاعر تعامل مع التراث الإسلامى بشكل يخدم رؤيته ، فهو يستخدمه بشكله المباشر ،

فسطوة الحجاج وجبروته كانت سطوة وبطولة وهمية لأنها لم توجه إلى الأعداء ، وفى الوقت نفسه نكلت بأوصال الأمة ، صحيح أعادتها إلى وحدتها تحت سيطرة الخلافة الأموية ، لكن تم ذلك على أنقاض الكعبة وأشلاء الزبيريين وعبد الله بن الزبير ، وباستعمال سياسة الحديد والنار مع أهل العراق ، فقد كان الحجاج مخلب قط للسلطان وما يشبه وزير الداخلية أو رئيس أمن الدولة أو قائد المعتقلات الحربية والسياسية فى دول العالم الثالث والدول الدكتاتورية ، واشتهر بجرأته على النبى وآل بيته والصحابة والفقهاء ، وسياسته المعتمدة على الإرهاب والتنكيل وسفك الدماء البريئة ، (ومن الغريب أن نرى اليوم على الانترنت من يدافع عن هذا السفاح الطاغية من الوهابيين الذين يدافعون كذلك عن يزيد وأبيه معاوية) ، فالشاعر يستغل ذلك الموروث ـ سواء الحجاج بقوته أو بخطبه القوية المجلجلة من مثل خطبته التى بدأها ببيت شعر مشهور لسحيم بن وثيل الرياحى : أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ، متى أضع العمامة تعرفونى- للإيحاء بالنهاية الحتمية لهذا التهريج الأدبى فى قصر السلطان . وثمة ملاحظة أخرى هى حوار الشاعر فى هذه القصيدة بشاعر تراثى هو أبو تمام ، وعند ذكر هذا الشاعر على وجه الخصوص نتذكر المجد العربى فى عنفوانه ، فتح عمورية والمعتصم العباسى ، والشاعر من خلال الحوار بينه وبين أبى تمام يبرز لنا كيف كان الشعر مواكبا للبطولات العربية وكيف كان موقف

الشاعر تجاه القضية الأولى وهى " الوطنية " وكيف أصبح الشعر والشعراء فى هذا العصر الجبان وكيف تحول الحكام من مدافعين عن حمى العروبة والإسلام إلى أشباه موتى لا حس ولا خبر . يقول فيها أيضا :

أبا تمّام . أينَ تكونُ ؟ أينَ حديثُكَ العَطِرُ ؟

وأينَ يدٌ مغامِرةٌ ؟

تسافرُ فى مجاهيلٍ ، وتبتكِرُ.

أبا تمّام . أرملةٌ قصائدُنا . وأرملةٌ كتابتُنا

وأرملةٌ هىَ الألفاظُ والصّوَرُ.

فلا ماءٌ يسيلُ على دفاترنا.

ولا ريحٌ تهبُّ على مراكبنا.

ولا شمسٌ .. ولا قمَرُ

أبا تمّام . دارَ الشعرُ دورتَهُ.



وما زلنا نُجادِلُ بعضنا بعضاً

عن المصروفِ ، والممنوع من صَرْفِ

وجيشُ الغاصبِ المحتلِّ ممنوعٌ من الصرفِ.

وما زلنا نُطقطِقُ عَظْمَ أرجُلنا

ونقعُدُ فى بيوتِ اللهِ ننتظرُ.

بأن يأتى الإمامُ علىٌّ .. أو يأتى لنا عُمَرُ

ولن يأتوا .. ولن يأتوا.

فلا أحدٌ بسيفٍ سواهُ ينتصرُ

أبا تمّام

إنَّ الناسَ بالكلماتِ قد كَفروا

وبالشعراءِ قد كفروا.

وبالصلواتِ ، والدعواتِ ، والأمواتِ ، والموتِ

وبالحربِ التى تأتى . ولا تأتى

فقُلْ لى أيّها الشاعرْ

لماذا شعرُنا العربىُّ قد يَبِسَتْ مفاصلُهُ

منَ التكرار .. واصفرَّتْ سنابلُهُ

وقُلْ لى أيّها الشاعرْ

لماذا الشعرُ - حينَ يشيخُ -

لا يستلُّ سكّيناً .. وينتحِرُ ..

فالشاعر الذى لا يثور يكون فى حيز العدم ، ويقول نزار فى ذلك فى كتابه (ما هو الشعر ؟) : " لا يمكننى أن أتصور شعرا لا ينحاز إلى جانب ما .. لا يتخذ موقعاً ما .. لا يقاتل من أجل رأى ما .. لا يرفع سيفه لرفع الظلم عن إنسان ما.

إننى ضد شعر الكورس بجميع أشكاله ونماذجه..



ضد الشعر الذى تكتبه الأغنام لاسترضاء راعيها..

ضد كل الشعراء الذين لا يزالون يقبضون مخصصاتهم الشهرية من خزانة سيف الدولة .. أو خزانة الباب العالي.

وأنا ضد سيرك (مدرانو) فى الأدب حيث يرقص الأدباء رقصة الأفيال .. ويمدون خراطيمهم إلى مقصورة الحاكم ليضع فيها موزة .. أو تفاحة .. أو ساعة أوميغا .. أو رغيفاً مبللا بماء الذل ...".

لذلك فإن نزارا لا يجد من بين شعراء العربية سوى شعراء الأرض المحتلة . فيقول فى قصيدته (شعراء الأرض المحتلة) :

شعراءَ الأرض المحتلة

يا أجملَ طير يأتينا من ليل الأسرْ

يا حزناً شفافَ العينين، نقيّاً مثلَ صلاةِ الفجرْ

يا شجرَ الوردِ النابتِ من أحشاءِ الجمرْ

يا مطراً يسقطُ .. رغمَ الظلم ، ورغمَ القهرْ

نتعلمُ منكم كيف يغنّى الغارقُ من أعماق البئرْ

نتعلمُ .. كيفَ يسيرُ على قدميهِ القبرْ

نتعلمُ كيفَ يكونُ الشعرْ.

فلدينا .. قد ماتَ الشعراءُ ، وماتَ الشعرْ..

الشعرُ لدينا درويشٌ.

يترنّحُ فى حلقاتِ الذكرْ

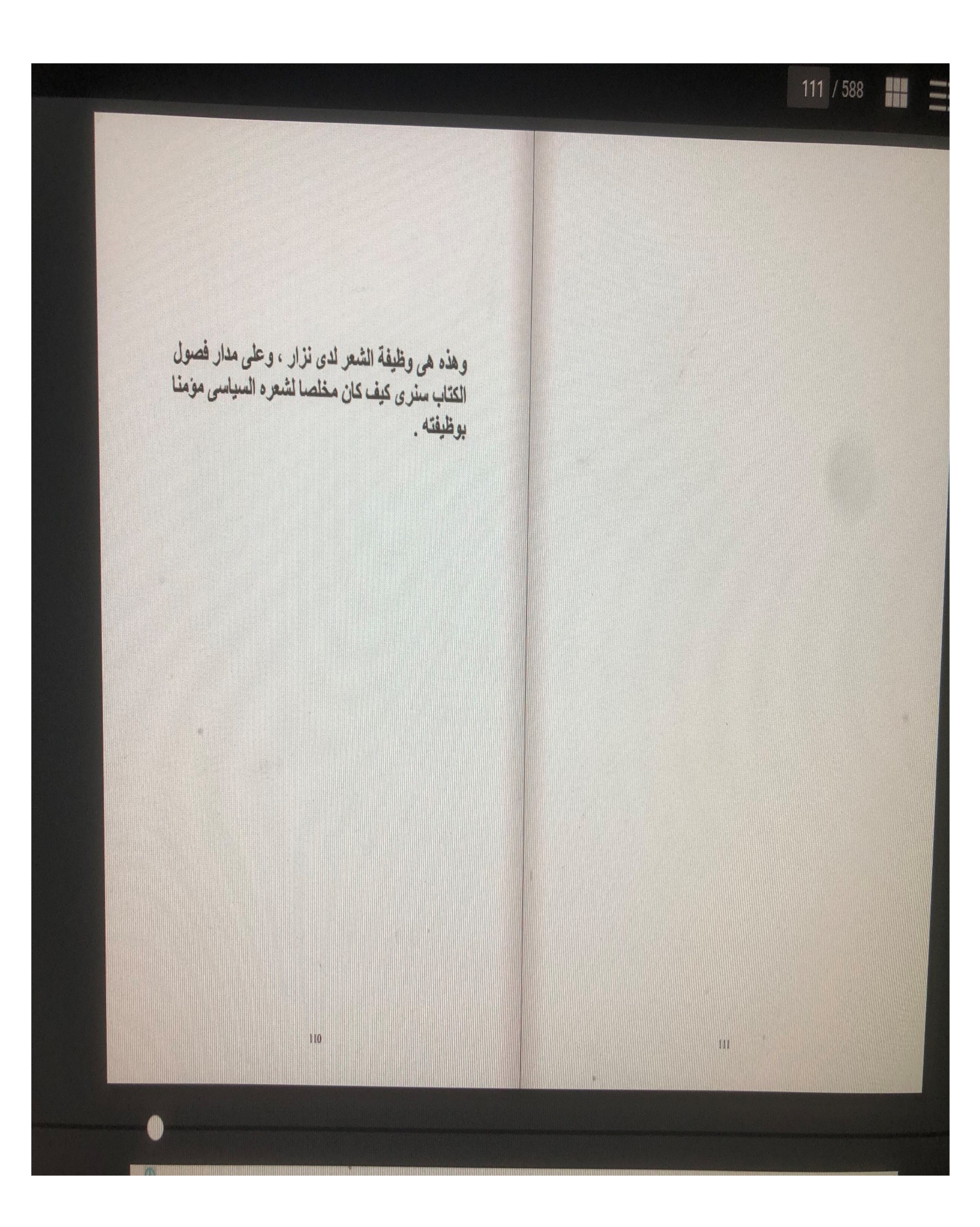
والشاعرُ يعملُ حوذياً لأمير القصرْ..

الشاعرُ مخصىُّ الشفتين .. بهذا العصرْ

يمسحُ للحاكم معطفهُ ، ويصبُّ لهُ أقداحَ الخمرْ

الشاعرُ مخصىُّ الكلماتِ.

وما أشقى خصيانَ الفكرْ ...



وهذه هى وظيفة الشعر لدى نزار ، وعلى مدار فصول
الكتاب سنرى كيف كان مخلصا لشعره السياسى مؤمنا
بوظيفته .

110

111

الفصل الثالث : فلسطين فى شعر نزار

أول ما كتب نزار عن القضية الفلسطينية كانت قصيدته الرائعة (قصة راشيل شوارزنبرغ) . ويقص فيها قصة اغتصاب اليهود لفلسطين الأرض المقدسة ، أرض التين والزيتون ، التى تضم أولى القبلتين وثانى المسجدين وثالث الحرمين الشريفين ، قصة زرع الغرب الإمبريالى - دول الحلفاء - بعيد الحرب العالمية الثانية للكيان الصهيونى فى قلب الأمة العربية ، القصة فى بدايتها ، ويكشف حقيقة الأمم المتحدة :

أكتب للصغار

للعرب الصغار

حيث يوجدون

لهم على اختلاف اللون والأعمار

والعيون

أكتب للذين سوف يولدون

لهم أنا اكتب للصغار

لأعين يركض فى أحداقها النهار

أكتب باختصار

قصة إرهابية مجندة ..

يدعونها راشيل

قضت سنين الحرب فى زنزانة منفردة

كالجرذ .. فى زنزانة مفردة .

شيده الألمان في براغ

كان أبوها قذراً من أقذر اليهود ..

يزور النقود ..

وهى تدير منزلاً للفحش فى براغ

يقصده الجنود .

وآلت الحرب إلى ختام

وأعلن السلام

ووقع الكبار

أربعة يلقبون نفسهم كبار

صك وجود الأمم المتحدة ..

وأبحرت من شرق أوروبا مع الصباح

سفينة تلعنها الرياح

وجهتها الجنوب

تغض بالجرذان .. والطاعون .. واليهود

كانوا خليط من سقاطة الشعوب

من غرب بولندا ،

من النمسا من استمبول من براغ

من آخر الأرض .. من السعير

جاؤوا إلى موطننا الصغير

موطننا المسالم الصغير

فلطخوا ترابنا

وأعدموا نساءنا

ويتموا أطفالنا

ولا تزال الأمم المتحدة ..

ولم يزل ميثاقها الخطير

يبحث فى حرية الشعوب

وحق تقرير المصير

والمثل المجردة ..

****

فليذكر الصغار

العرب الصغار حيث يوجدون

من ولدوا منهم ، ومن سيولدون

قصة إرهابية مجندة

يدعونها راشيل

حلت محل أمي الممددة

في أرض بيارتنا الخضراء فى الخليل

أمى أنا الذبيحة المستشهدة ..

وليذكر الصغار ..

حكاية الأرض التى ضيعتها الكبار

والأمم المتحدة ..

أكتب للصغار

قصة بئر السبع ، واللطرون والجليل

وأختى القتيل

هناك ، فى بيارة الليمون أختى القتيل

هل يذكر الليمون فى الرملة ..

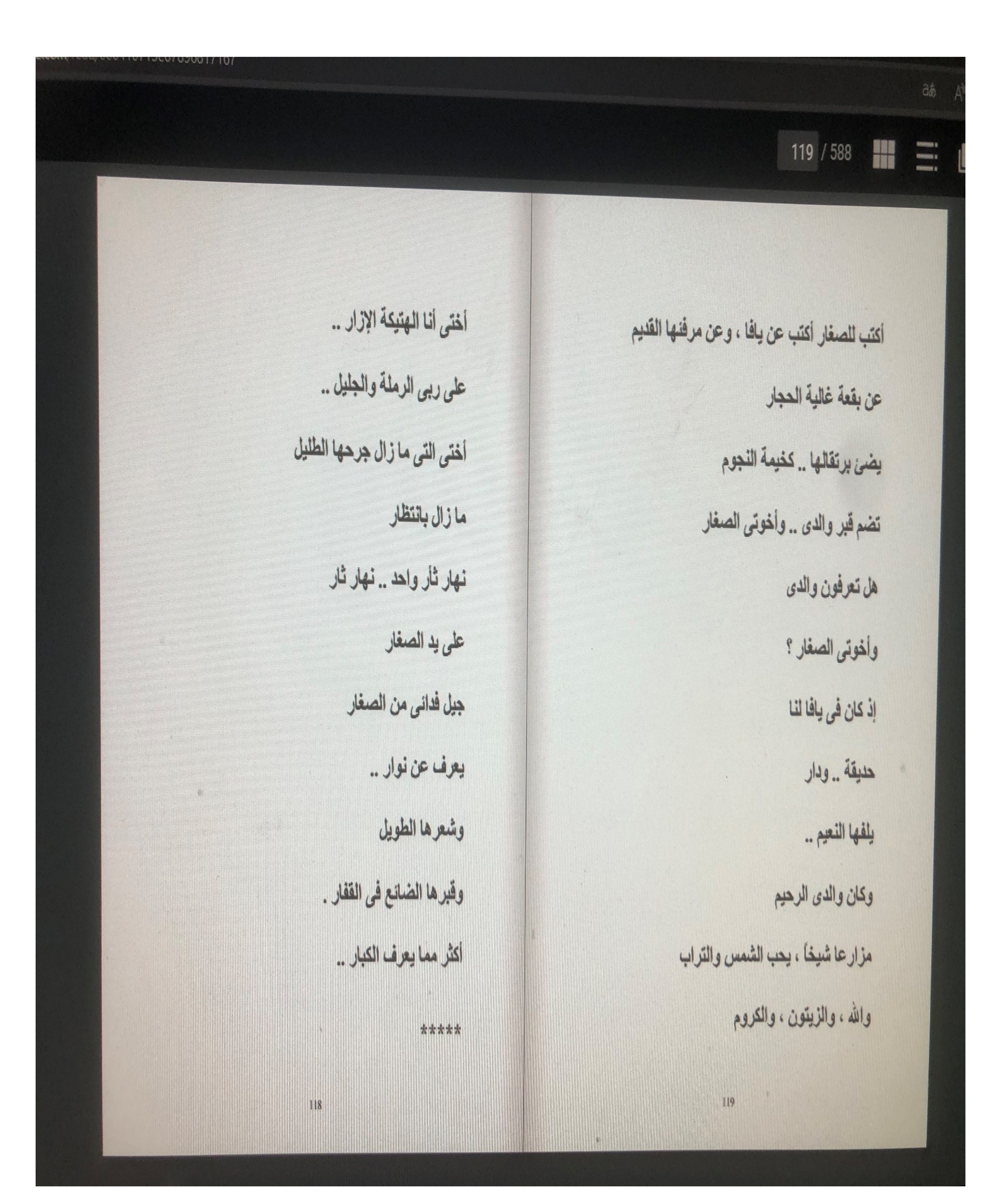
فى اللد ..

وفى الخليل ..

أختى التى علقها اليهود فى الأصيل

من شعرها الطويل

أختى أنا نوار ..



119 / 588

أختى أنا الهتيكة الإزار ..

على ربى الرملة والجليل ..

أختى التى ما زال جرحها الطليل

ما زال بانتظار

نهار ثأر واحد .. نهار ثار

على يد الصغار

جيل فدائى من الصغار

يعرف عن نوار ..

وشعرها الطويل

وقبرها الضائع فى القفار .

أكثر مما يعرف الكبار ..

*****

118

أكتب للصغار أكتب عن يافا ، وعن مرفئها القديم

عن بقعة غالية الحجار

يضئ برتقالها .. كخيمة النجوم

تضم قبر والدى .. وأخوتى الصغار

هل تعرفون والدى

وأخوتى الصغار ؟

إذ كان فى يافا لنا

حديقة .. ودار

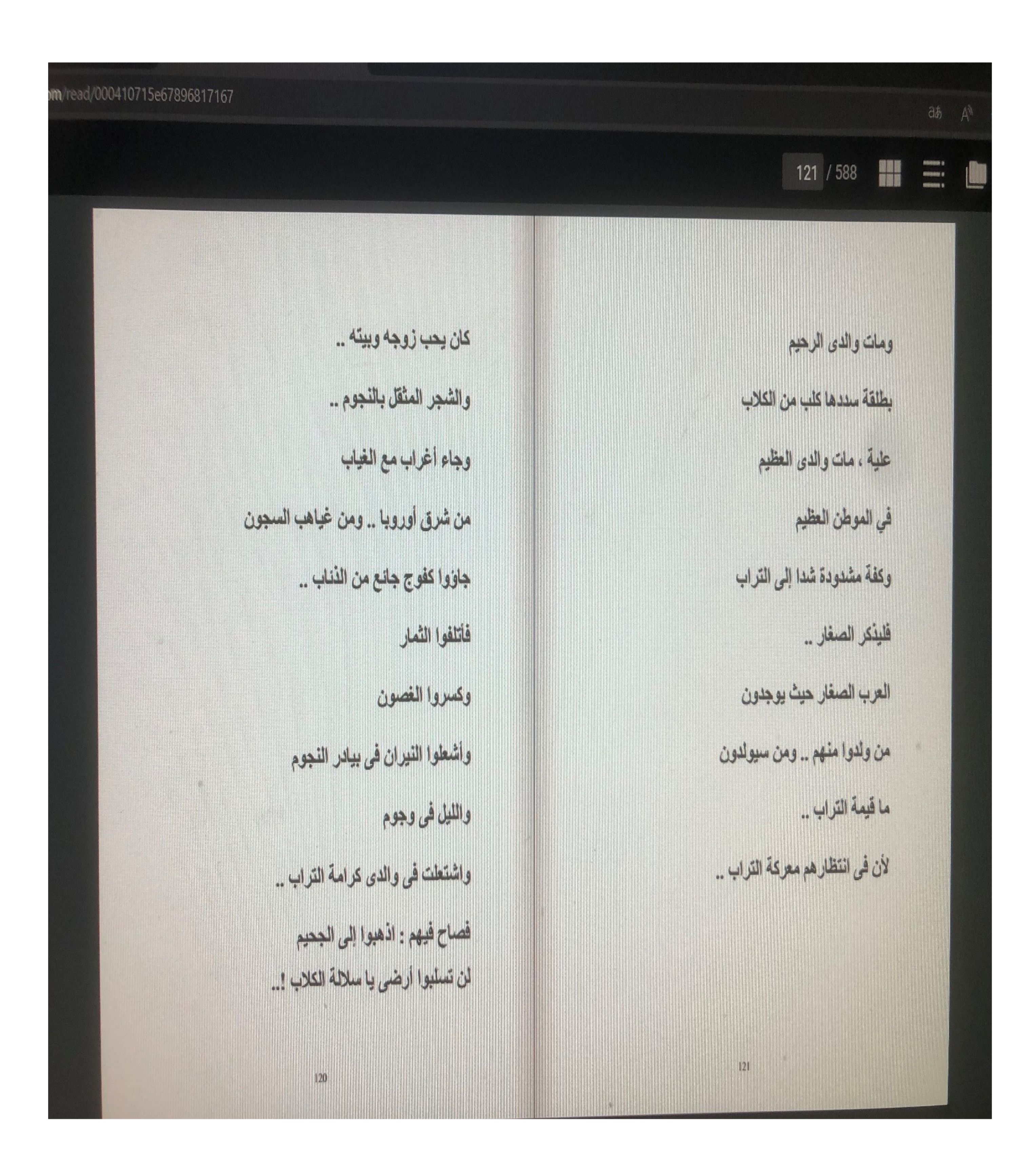
يلفها النعيم ..

وكان والدى الرحيم

مزارعا شيخاً ، يحب الشمس والتراب

والله ، والزيتون ، والكروم

119


om/read/000410715e67896817167

121 / 588

كان يحب زوجه وبيته ..

والشجر المثقل بالنجوم ..

وجاء أغراب مع الغياب

من شرق أوروبا .. ومن غياهب السجون

جاؤوا كفوج جائع من الذئاب ..

فأتلفوا الثمار

وكسروا الغصون

وأشعلوا النيران فى بيادر النجوم

والليل فى وجوم

واشتعلت فى والدى كرامة التراب ..

فصاح فيهم : اذهبوا إلى الجحيم

لن تسلبوا أرضى يا سلالة الكلاب !..

120

ومات والدى الرحيم

بطلقة سددها كلب من الكلاب

علية ، مات والدى العظيم

في الموطن العظيم

وكفة مشدودة شدا إلى التراب

فليذكر الصغار ..

العرب الصغار حيث يوجدون

من ولدوا منهم .. ومن سيولدون

ما قيمة التراب ..

لأن فى انتظارهم معركة التراب ..

121

يا فلسطين ، لا تزالين عطشى
وعلى النفط نامت الصحراء

العباءات.. كلها من حرير
والليالى رخيصة حمراء

يا فلسطين، لا تنادى عليهم
قد تساوى الأموات والأحياء

قتل النفط ما بهم من سجايا
ولقد يقتل الثرىُّ الثراء

يا فلسطين، لا تنادى قريشاً
فقريشٌ ماتت بها الخيلاء

لا تنادى الرجال من عبد شمسٍ
لا تنادى .. لم يبق إلا النساء

فيطلب الشاعر أن تنسى فلسطين العرب لأنهم خذلوها ، وبالتالى فهو الكفر الخفى بكل الحكام العرب . ونلحظ هنا أيضا التكرار بأداة النفى" لا " وأداة النداء " يا " ولفظة " فلسطين " وهذا التكرار يدل على الحرقة والألم فى نفس الشاعر ، وهو تكرار جهورى يناسب الموقف فهو يقرع الأسماع بالكلمة المثيرة ويؤدى الغرض الشعرى فى الوقت ذاته . وهو يحوى الثورة ضد المتخاذلين .

الشاعر والعمل الفدائى :

يعد نزار من أوائل الشعراء العرب الذين يؤمنون إيمانا مطلقا بضرورة القوة العسكرية المسلحة لاسترداد الحق المسلوب لأن طلب الحقوق بالمفاوضات السلمية مضيعة للوقت ولا يؤدى إلى نتيجة فعالة لا سيما مع اليهود (وها هى قد مرت عشرون سنة على مدريد وأوسلو ولم تقام دولة فلسطينية ولا تزال المفاوضات متعثرة) لذلك فهو يبارك العمل الفلسطينى المسلح لاسترداد الحق المغتصب ولا يعترف بالمنظمات الدولية كمجلس الأمن والأمم المتحدة ، وهو محق فى ذلك ، فكم من قرار صدر عن مجلس الأمن أو الأمم المتحدة

يطالب إسرائيل بالانسحاب من أرض العرب ومضى على هذه القرارات ما يزيد على ربع قرن ولم تعترف إسرائيل بها حتى الآن (على سبيل المثال القرار رقم 242 فى نوفمبر 1967 على الرغم من كونه قرارا لا يعبر عن الحقوق الكاملة للشعب الفلسطينى) ، والفيتو الأمريكى بالمرصاد لكل محاولة أو مشروع إدانة لإسرائيل . ونزار عندما يتناول هذه القضية يبرز جانبين الأول هو الاستكانة والضعف أمام موائد الأمم المتحدة طلبا للحق المسلوب ، كما فى قصيدته (منشورات فدائية على جدران إسرائيل) :

ظلَّ الفلسطينىُّ أعواماً على الأبوابْ..

يشحذُ خبزَ العدل من موائدِ الذئابْ

ويشتكى عذابهُ للخالق التوَّابْ

أما الجانب الثانى ، وهو نتيجة للجانب الأول فالضعف لا يمكن أن يعيد حقا ضائعا ، والقوة وحدها هى التى تجيد الكلام على أصوات البنادق :

وعندما .. أخرجَ من إسطبلهِ حصاناً

وزيَّتَ البارودةَ الملقاةَ فى السردابْ

أصبحَ فى مقدورهِ أن يبدأ الحسابْ..

نحنُ الذينَ نرسمُ الخريطة

ونرسمُ السفوحَ والهضابْ..

نحنُ الذينَ نبدأ المحاكمة

ونفرضُ الثوابَ والعقابْ ..

وما دام هناك حق عربى ضائع ، وحكام عرب خونة ومتخاذلين ومتآمرين وتابعين ومتأمركين ومطبعين ، وأطماع صهيونية التهمت هذا الحق بل وتريد المزيد والتوسع فهناك طريق واحد لتحرير فلسطين هذا الطريق هو فوهة البندقية لأن السلام مع اليهود مسرحية هزلية فهم كما أخبرنا القرآن يخلفون وعدهم فى كل مرة مع أنبياء الله (أنظر موقف اليهود مع

موسى فى سورة البقرة) ، ويزعمون فى عقيدتهم المحرفة أن الله قد وعدهم بفلسطين والأرض العربية الممتدة ما بين النيل بمصر والفرات بالعراق ، خرافة إسرائيل الكبرى ، فى سفر التكوين ، وقد وعد الله إبراهيم وذريته بهذه الأرض الخصبة ، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .. وفوق ذلك كله فقد أراق هؤلاء السفاحون الجزارون دماء آلاف العرب والمسلمين أنهارا ، فكيف تعقد مع قتلة أهلك وآبائك وإخوانك وهاتكى نسائك وأخواتك سلاما ؟!.
لذلك ينادى الشاعر الفدائيين الأبطال فى كل أرجاء فلسطين ، فى قصيدته (طريق واحد) والتى مطلعها أصبح عندى الآن بندقية :

يا أيّها الثوار..

في القدس ، فى الخليل ،

في بيسانَ ، فى الأغوار..

في بيتِ لحم، حيثُ كنتم أيّها الأحرار

تقدموا..

تقدموا..

فقصةُ السلام مسرحيّةٌ..

والعدلُ مسرحيّةٌ..

إلى فلسطينَ طريقٌ واحدٌ

يمرُ من فوهةِ بندقيّةٍ..

ويرى الشاعر أن الفدائى (والاستشهادى) هو الشاعر الحقيقى والذى ينبغى احترامه وتقديسه فهو وحده الذى يسطر التاريخ الحقيقى للأمة ، فما يسجله من بطولات وأعمال جدير بالاحترام ، فهو عندما يجعل بندقيته تعزف لحن التحرير تموت جميع القصائد أمام هذا العزف المنفرد ، فى قصيدته (إفادة فى محكمة الشعر) :

الفدائى وحده .. يكتب الشعر

و كل الذى كتبناه هراء

إنه الكاتب الحقيقى للعصر

يقول زكى شنودة:- (تجرى فى عروق اليهود مع دمائهم وحشية بشعة شنيعة متأصلة فيهم، متغلغلة في كيانهم وفى أعماق وجدانهم، وقد كانت هذه الوحشية من أبرز صفاتهم منذ نشأتهم، وظلت تلازمهم فى كل أطوار تاريخهم، وفى كل مظاهر حياتهم، فهم تسيطر عليهم على الدوام نزعة عنيفة مخيفة إلى القسوة الجنونية، وولع حقود مضطرم بالقتل والذبح والشنق والخنق والحرق، والرجم والتنكيل والتعذيب، وتقطيع الأوصال وإبادة الناس بالجملة ، وإشعال النار فى المدن، وإشاعة الدمار فى كل مكان يقع في قبضتهم. لا يعرفون في ذلك رحمة، ولا يدفعهم عنه شعور، ولا يمنعهم عن ارتكابه دين ولا عقيدة، ولا ضمير كأنهم ذئاب جائعة، أو كلاب مسعورة، أو خنازير أصابها الجنون، أو أعماها الغضب، فهى لا تفتأ تنشب أنيابها وتضرب مخالبها فى كل ما يصادفها من أحياء، وهى أبدًا لا يروى عطشها غير الدماء. ولا يشفى غليلها إلا أن ترى الأرض حواليها مفروشة بالجثث والأشلاء) .

وجاء فى كتاب (بوليميك) : إن لحم الأميين لحم حمير، ونطفتهم نطفة حيوانات غير ناطقة !! أما اليهود فإنهم تطهروا على طور سيناء، والأجانب تلازمهم النجاسة لثالث درجة من نسلهم، ولذلك أمرنا بإهلاك مَن كان غير يهودى!!

ويقول التلمود: « اقتل الصالح من غير الإسرائيليين،

ومحرّم على اليهودى أن ينجى أحدًا من باقى الأمم من هلاك، أو يخرجه من حفرة يقع فيها؛ لأنه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيين».

وجاء في صحيفة أخرى: « إذا وقع أحد الوثنيين فى حفرة يلزمك أن تسدها بحجر».

وزاد الحاخام (رشى): « أنه يلزم عمل الطرق اللازمة لعدم خلاص الوثنى المذكور منها».

وقال (ميمونيد): « الشفقة ممنوعة بالنسبة للوثنى، فإذا رأيته واقعًا في نهر، أو مهددًا بخطر، فيحرم عليك أن تنقذه منه، لأن السبعة شعوب الذين كانوا في أرض كنعان المراد قتلهم من اليهود لم يُقتلوا عن آخرهم، بل هرب بعضهم واختلط بباقى أمم الأرض ». ولذلك قال (ميمونيد): « إنه يلزم قتل الأجنبى، لأنه من المحتمل أن يكون من نسل السبعة شعوب . وعلى اليهودى أن يقتل مَن تمكَّن من قتله، فإذا لم يفعل ذلك يخالف الشرع ».

وقال التلمود: إنه جائز قتل مَن ينكر وجود الله، وإذا رأى أحد اليهود كافرًا فى حفرة فعليه ألا يخرجه منها، حتى لو وجد فيها سلمًا يمكن الكافر أن يخرج بواسطته منها وجب على اليهودى نزعه محتجًا بأنه أخرجه حتى لا ينزل عليه قطيعه، وإذا وجد حجرًا بجانب الحفرة

وجب عليه وضعه عليها، ويقول: إنى أضع هذا الحجر ليمر عليه قطيعى .

بل إن الحاخامات اليهود يستبيحون قتل أو ذبح بعض الناس وتصفية دمائهم بطريقة ما، وأخذ هذه الدماء البشرية لاستعمالها فى صنع بعض الفطائر، لتؤكل فى عيد الفصح وغيره، بدعوى أن تعاليم الدين تقرر هذا

ومن الحوادث المشهورة فى هذا الشأن حادثة قتل القسيس (توما) وخادمه (إبراهيم عمار) في بيروت عام 1255هـ/ 1840م، وقد اعترف المتورطون فى هذه الحادثة - وعلى رأسهم الحاخامات الذين أمروا بذبح الرجلين وتصفية دمائهما - بأن هذا كان لأسباب دينية، حيث يُؤخذ الدم لوضعه فى الفطير الذى لا يُعطى عادة إلا للأتقياء من اليهود - فى زعمهم - وأن هذا الأمر تقرر فى « الكنيس » بمعرفة الحاخام، إلى غير ذلك من الاعترافات الخطيرة بهذا الشأن

وأنظر كتاب الكنز المرصود فى فضائح التلمود ، وكتاب المجتمع اليهودى لزكى شنودة تجد المزيد من أخلاق اليهود ومعتقداتهم المحرفة وعنصريتهم ضد الأغيار .

وعلى ذلك أصبح اليهودى نازيا له ضحاياه يقتل بدلا من أن يُقتل .. بل أسوأ من النازية فاليهودى لا مثيل له

فى إجرامه وتعطشه للدماء هو والأمريكى .. (وقد أحسن الرئيس نجاد والكاتب روجيه جارودى فى كتابه الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية وكل من فضح أكذوبة الهولوكوست وخرافة المحرقة النازية لليهود)
وهكذا كانت مذابح دير ياسين وكفر قاسم ، ومجزرة الحرم الإبراهيمى ، وحرق المسجد الأقصى ، وبحر البقر ، ومخيمات صبرا وشاتيلا عام 1982 أثناء غزو لبنان والتى نفذوها بالتعاون مع حزب الكتائب اللبنانى المسيحى المتعصب ، وسط صمت عربى مريب ، والرصاص المسكوب فى نهاية 2008 ، وعدوان يوليو تموز 2006 على لبنان ، وعناقيد الغضب فى قانا ، فالإجرام متصل ومستمر يمارس بوحشية فى الأرض المحتلة فى فلسطين منذ النكبة 1948 ، وفى سيناء المصرية ضد الأسرى المصريين بعد نكسة 1967 ، وفى لبنان منذ 1982 ، وحتى 2006 .. فاليهودى القاتل يرى نفسه قتيلا فى ضحيته ، وهنا يستمر فعل القتل ، وكأنه بذلك يهرب من صورته مقتولا من ضحاياه وهو أمر لا يستطيع منه خلاصا ومن هنا نجد تفسير ذلك القهر الذى لا يجد القاتل منه فكاكا فالجريمة تؤدى لأخرى ، وهو أن يستمر فى القتل كيلا يُقتل ، ومع تزايد ضحاياه يتزايد خوفه من الثأر والانتقام ، وهكذا فإنه بالقتل يبرر حماية الحياة وإذا كان الكفاح المسلح هو عقيدة الشاعر التى لا يحيد عنها فإنه يتلاقى فى الهدف والسلوك مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومع حماس والجهاد الإسلامى وجميع فصائل

يأتون فى دموع أمهاتنا

فى أعين الغالين من أمواتنا

مهما هم تأخروا فإنهم يأتون

من درب رام الله أو من جبل الزيتون

يأتون مثل المن والسلوى من السماء

ومن دمى الأطفال من أساور النساء

ويسكنون الليل والأحجار والأشياء

من حزننا الجميل ينبتون

أشجار كبرياء

ومن شقوق الصخر يولدون

باقة أنبياء

ليس لهم هوية ليس لهم أسماء

لكنهم يأتون

لكنهم يأتون

وتتحول فتح إلى أمل خرافى خارق للعادة ينتظره الشاعر - هذا الأمل الذى يحمل فى جبهته القدس وغزة ، وبيسان والجليل ويحرر كل الأرض المغتصبة عنوة ، هذا هو حلم الشاعر الذى قد يخرج عن العادة أحيانا :

يا فتح يا حصاننا الجميلا

يحمل فى غرته بيسان والجليلا

وغزة والقدس والطيور والحقولا

ويحمل البحار فى نظرته ويحمل السهولا

يا ماءنا يا ثلجنا يا ظلنا الظليلا

لقد سرقتمْ وطناً..

فصفقَ العالمُ للمغامرةْ

صادرتُمُ الألوفَ من بيوتنا

وبعتمُ الألوفَ من أطفالنا

فصفقَ العالمُ للسماسرةْ.

سرقتُمُ الزيتَ من الكنائس

سرقتمُ المسيحَ من بيتهِ فى الناصرةْ

فصفقَ العالمُ للمغامرةْ

وتنصبونَ مأتماً

إذا خطفنا طائرةْ

وهكذا يعلن الشاعر أن الإرهاب الحقيقى هو فى تشريد الآمنين من السكان العرب وطمس الهوية الفلسطينية ، وكل هذه الآثام نتج عنها الكفاح المسلح وليس الإرهاب

حين قرأنا عنكم كل الذى قرأنا ..

خمسين قرنا .. بكم كبرنا ..

وارتفعت قامتنا ،

وأزهرت حياتنا

من بعدما نشفنا ..

والكيان الصهيونى فى كل مناسبة يصف الفدائيين العرب بالإرهابيين أو المخربين ، لكن الشاعر يعيد إليهم هذه الصفات ، فهم الإرهابيون منذ فجر التاريخ ، كما يقول وجيه أبو ذكرى فى كتابه (الإرهابيون الأوائل جيراننا الجدد) ، وما العمل الفدائى إلا طلب لحق ضاع فى ردهات الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، فى قصيدته (منشورات فدائية على جدران إسرائيل) :

فالذين يطالبون بحقوقهم الضائعة بالسلاح هم أبطال حقيقيون ، والكيان الصهيونى منذ قيامه فى منتصف مايو 1948 م يحاول تهويد الأرض العربية وظل على هذه الحال حتى أعلنت فتح - برعاية عبد الناصر- بداية الكفاح المسلح فى أوائل عام 1965 م ، قرابة عشرين سنة والفلسطينى موزع فى أرجاء الأرض بلا وطن ، فى قصيدة (طريق واحد) :

عشرون عاما .. وأنا

أبحث عن أرض وعن هوية

أبحث عن بيتى الذى هناك

عن وطنى المحاط بالأسلاك

أبحث عن طفولتى وعن رفاق حارتى

عن كتبى .. عن صورى .. وعن كل ركن دافئ

وكل مزهرية

وقد أتى الشاعر بمبررات العمل الفدائى .. ثم تبدأ غضبة الشاعر الكبرى ضد الوطن العربى بأسره فهم أمام خيارين أولهما أن يكونوا عربا وفى هذه الحالة عليهم أن يعيدوا مجد الأجداد ويتحول الوطن كله إلى أدوات تدمير للكيان الصهيونى ، وأن يكون تحرير فلسطين هو الهدف الأول للعرب أجمعين ، والآخر أن ينسلخوا من العروبة التى ظلموها ومن أوطانهم .. بل ما هى الأوطان وما قيمتها ووجودها وما قيمة الوطنية والتعصب الوطنى المُدَعَى إن لم تتكرس لإزالة الغدة السرطانية المسماة إسرائيل ، والشيطان الأصغر كما أسماه الإمام والزعيم الإيرانى روح الله الخمينى ، فى قصيدته(تـ عريف غير كلاسيكى للوطن) :

وطني !

يفهمكَ السذج ريحاناً وراحْ

ويظنونك درويشاً يهزّ الرأسَ ، أو رقص سماحْ

ويظنونكَ فى غفلتهم

نغمةً من بزقٍ ..

وقنانى عرقٍ ..

ومواويل تغنى للصباحْ ..

وطني ، يا أيها الصدر بالجراحْ

وطني . من أنتَ ؟ إنْ لم تنفجرْ

تحت إسرائيلَ صندوقَ سلاحْ .

فليس الوطن مباراة كرة قدم للمنتخب المصرى فى الأمم الأفريقية ولا مباراة كرة قدم فى الدورى ، ولا أغنية جوفاء تغنى فى طابور الصباح المدرسى ، ولا علم مرفوع فى الاستادات ، وليس الوطن تعصبا كرويا وسبابا فى الفرق المنافسة وإفساد الروابط العربية والأخوية بين مصر والجزائر ، وليست الوطنية ما قام به عمرو أديب ومدحت شلبى وخالد الغندور وعلاء مبارك من سباب وتجريح ضد الشعب الجزائرى .. وليست الوطنية رحرحة وفنجرة بق ، وثرثرة .. فالوطنية ليست موسيقى تعزف ولا خمرا يراق ويجرع ولا خطابا خشبيا محنطا نازيا شوفينيا من نوعية أم الدنيا وفوق الجميع ، ولا منا وأذى على الدول

الأفريقية والعربية ، ولا ادعاءات سيادة وريادة جوفاء .. بل هى كفاح ونضال وجهاد.

يقول نزار فى قصيدته (بلقيس) :

لو أنهم حملوا إلينا ..

من فلسطين الحزينةْ ..

نجمةً ..

أو برتقالة ..

لو أنهم حملوا إلينا

من شواطئ غزّةٍ

حجراً صغيراً

أو محارةْ

لو أنهم من ربع قرن حرّروا ..

زيتونة ..

أو أرجعوا ليمونة

ومحوا عن التاريخ عاره

لشكرت من قتلوك .. يا بلقيس ..

يا معبودتى حتى الثمالة ..

لكنهم .. تركوا فلسطينا

ليغتالوا غزالة !! ...

الشاعر وإجهاض الثورة الفلسطينية :

تقوم إسرائيل بتوطين يهود الشتات فى أرض فلسطين العربية وتتزايد الهجرة إلى أرض الميعاد كما يزعمون ، حتى غطت على الزيادة الطبيعية بين السكان العرب ،

وإذا كان هذا هو الخطر الداهم فإن العرب ينبغى أن يتحولوا إلى جبهة واحدة لانتزاع فلسطين أو يساعدوا المنظمات الفدائية المنوطة بتحرير أرضها وشعبها ولا يرقى هذا إلى أضعف الإيمان ، لكن هذه المنظمات فقدت فى قتالها فيما بينها ، وما بينها وبين بعض الأقطار العربية أضعاف أضعاف ما خسرته فى حروبها مع إسرائيل .

وما عرف باسم مذبحة أيلول يعتبر أسوأ المذابح التى تعرض لها شعب فلسطين على طول تاريخه المخضب بالدماء فقد قتل الجيش الأردنى العميل أربعة عشر ألف قتيل من الشعب الفلسطينى فى عمان والزرقاء والوحدات بالإضافة إلى خمسة وعشرين ألف جريح هدمت عليهم مستشفى الأشرفية التى تعالجهم ، وقد تم سحب ثلاثة ألوية مدرعة وأربعة ألوية مشاة من الجبهة لقتال الفلسطينيين ، وتركت على الجبهة سرية واحدة قوامها مائة وعشرون جنديا فقط وعلى هدير المجزرة فر إلى سوريا أربعة وسبعون ألف فلسطينى ، وكانت الضربة القاضية والقاصمة التى أجهزت على الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وهو يحاول وقف نزف الدم العربى العربى وكبح جماح الحماقة الأردنية . فهذه المحنة يعتبرها الشاعر مذبحة لكل شرائع السماء ، فى قصيدته (دفاتر فلسطينية) :

حين رأيتُ اللهَ .. فى عمّانَ

مذبوحاً ..

على أيدى رجال البادية

غطيتُ وجهى بيدى ..

وصحتُ : يا تاريخُ !

هذى كربلاءُ الثانية ....

فثمة رابط مشترك بين كربلاء ، المدينة العراقية التى وقعت بها موقعة الطف محرم عاشوراء 61 هـ ، وبها مسجد ومرقد الإمام الحسين سيد الشهداء وإمام الثوار ، وهى التى استشهد فيها الحسين بن على رضى الله عنهما سبط وابن رسول الله ، وأهله وصحبه وسبيت النساء وتم سلب الملابس والحلى والخواتم من الشهداء والأحياء ، على يد جنود مسلمين للأمويين ، بعد منع ماء الفرات عن الحسين وصحبه وأهله ، فى عهد يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، وعبيد الله بن زياد ، واحتز رأسه شمر بن ذى الجوشن وقاد الجيش

الأموى عمر بن سعد بن أبى وقاص ، وكان لهذه الوقعة أثرها فى ظهور المذهب الإسلامى الشيعى لليوم وقضى دم الحسين على الدولة الأموية ومذبحة أيلول ، فكلاهما صراع غير متكافئ بين الحق والباطل ، وقد انتصر الباطل فى كليهما على الحق ، لكن الحق وإن طمس حينا فإنه لابد أن ينجلى ، فقد كان لاستشهاد الحسين أثر السحر فى نفوس تابعيه أكبر من الأثر الذى اعتراهم فى حياته وعلى ذلك فالشعب الفلسطينى لا يمكن إبادته ولا تزيده المحن إلا إصرارا كما قال الشاعر محمود درويش : " نحن الضحية التى جُربت فيها كل أنواع القتل منذ صراع قابيل وهابيل حتى أحدث الأسلحة الأمريكية .. لكننا الضحية الأعجوبة التى لا تموت ولا تستطيع أن تموت ". من كل هذه الأحداث يرسل نزار صرخته التى يعتريها الأسى والحزن ، فهل الذى يقتل الثورة وهى بعد فى ثياب عرسها يمكن له أن يدعى أنه يمت للعرب بصلة (فى قصيدته دفاتر فلسطينية) :

يا مجهضى الثورة ..

وهى بعدُ .. في ملابس العروسْ

يا قاتلى الربيع فى أوله ..

يا سارقي الشموسْ

هل أنتمُ – كما ادعيتمْ – عربٌ

أم أنكمُ مجوسْ ..

فالشاعر هنا لا يفرق بين عبدة النار (المجوس) الذين حملوا حقدا دفينا على العرب منذ الفتح الإسلامى لبلادهم ، وبين الذين يجهزون على الثورة المسلحة للشعب الفلسطينى ، وربما هذا ما جعل الشاعر يصرح بأن العرب هم قتلة عبد الناصر لأنه - أى عبد الناصر- بحسه القومى لم يحتمل هذه المذبحة الرهيبة اللا أخلاقية واللا إسلامية ، وهذا هو الفرق بين عرب الحقيقة واليقين وبين ارتداء ثوب العروبة .

ونختم بما قال نزار فى نهاية الدفاتر الفلسطينية :

كلّ الكتابات التى أكتبها ..

تغسلها الكآبة ..

فبعد أن تمزقت دفاترى

صارتْ فلسطينُ هى الكآبة ..

بقدر ما يتسع الفداء

تتسع السماء ..

مساحةُ النصر الذى نطلبهُ ..

تكون فى مساحة العطاءْ

كلّ أديبٍ عندنا لا يحملُ الصليبْ

يصيرُ حمالاً على مرفأ تل أبيبْ ..

الفصل الرابع : هزيمة يونيو 1967م فى شعر نزار

كانت هزيمة 1967 م نقطة تحول فى حياة نزار الشعرية ، ونستطيع القول بأن الهزيمة أثرت على الأدب العربى شعره ونثره ، فقد عصفت الهزيمة بأحلام وآمال الشعراء والكتاب على السواء ، وفقد العالم العربى أولى الحتميات وهى الثقة بالنفس ، وازداد الشعور بالمرارة واليأس ولما كان الشعراء يمتلكون رهافة الحس والمشاعر كانوا أسبق الناس تأثرا ومعاناة ، ونزار نفسه يعترف بذلك فى قصيدته (هوامش على دفتر النكسة) :

يا وطنى الحزين

حولتنى بلحظة

من شاعر يكتب شعر الحب والحنين

فقد كانت هزيمة فى المشاعر قبل أن تكون ضياعا لفلسطين كلها ، فقد ضاع معظمها فى نكبة 1948 ، وضاع قطاع غزة والضفة الغربية أى ما تبقى منها فى نكسة 67 ، وهضبة الجولان السورية وأكثر من17 % من مساحة مصر (سيناء) فهل يأنس الشاعر فى أهوال تلك المصيبة إلى شعر الغزل الذى تمرس عليه قرابة ربع قرن من الزمان ؟ وكيف له ذلك وهو من أول يوم للهزيمة يشعر أن كابوسا مخيفا يجثم على صدره وصدر كل عربى حتى أصبح الجميع يشعر أنه من جيل الهزيمة والمهزومين ، والمتأمل فى شعر نزار قبانى سوف يرى بوضوح أن اللغة الأصيلة فى شعره هى لغة اليأس ولغة الحزن ، وأن اللغة الخطابية ذات الإيقاع الرنان قد توارت من شعره وقد يكون أصدق شعر كتبه نزار هو شعر هذه المرحلة وقصيدة بلقيس وقصائده السياسية جميعا .

ونزار لم يكن فى هذه المرحلة باكيا على أطلال العرب ، لكن على عكس ذلك تماما ، فقد تحدث عن الهزيمة وعن أسبابها وعن رؤيته المستقبلية للعرب بعد يونيو 1967 م .

الهزيمة وأثرها :

كانت الهزيمة بمثابة الستار الذى كشف عن الوجوه الحقيقية للحكام العرب حين أسدل فى يونيه 1967 م وانتهت مسرحية الزيف ، فطالما سمعنا الحكام العرب يؤكدون فى خطبهم نهاية الكيان الصهيونى وتحرير فلسطين وإلقاء ذلك الكيان الهش فى البحر ، فى الوقت نفسه لم يتم الإعداد الجاد والاستعداد والتجهز الكامل للمعركة والقتال ، ولم يكن وزير الحربية المصرى شمس بدران ولا قائد القوات المسلحة المشير عبد الحكيم عامر على القدر الواجب من المسؤولية ، وكانت الاستهانة بالحرب رغم تحذيرات الرئيس عبد الناصر لعامر من القيام الوشيك للحرب ، إضافة لتآمر دول الرجعية العربية (محور الاعتلال والخيانة القديم المكون من السعودية والمغرب والأردن وتركيا وإيران الشاه) مع أمريكا وإسرائيل والناتو ضد مصر وحلفائها تضافرت هذه العوامل جميعا وكانت الهزيمة .. وكان الانسحاب العشوائى دون خطة مرسومة . كل ذلك كان من أسباب الهزيمة التى رآها الشاعر :

إذا خسرنا الحرب .. لا غرابة

لأننا ندخلها

بكل ما يملك الشرق من مواهب الخطابة

بالعنتريات التى ما قتلت ذبابة

لأننا ندخلها

بمنطق الطبلة والربابة ..

وقد أعلن الشاعر كفره - ككل الوطنيين العرب - بكل الأنظمة التى تسببت فى ذلك الجرح المزمن والأزلى ، فما قادنا إلى الهزيمة سوى فكر السياسيين العفن .

أنعى لكم

يا أصدقائى اللغة القديمة

والكتب القديمة

أنعى لكم

كلامنا المثقوب كالأحذية القديمة

ومفردات العهر ، والهجاء ، والشتيمة

أنعى لكم .. أنعى لكم

نهاية الفكر الذى قاد إلى الهزيمة

وإن تكرار " أنعى لكم " يؤكد موت ما ينعيه فى الأمة .. لقد انتهز السعوديون والرأسماليون والملكيون والرجعيون والمباركيون والساداتيون هذه النكسة من أجل الهجوم على الفترة الناصرية وتمزيقها وتشويهها والانقلاب عليها كيلا يتم تكرارها ولا إحياءها مرة أخرى .. لقد دفنوها تماما .. حتى أنك لا تجد فى مصر كلها تمثالا واحدا لعبد الناصر فى ميدان من ميادين القاهرة أو 6 أكتوبر ، أو الإسكندرية ، أو أى من مدن مصر شمالا وجنوبا فى الوجه البحرى أو القبلى .. قد يكون هذا هو مقصد الشاعر أو نبوءته .. وقد يكون نبوءة لإعادة بناء القوات المسلحة وبطولات حرب الاستنزاف ومحاسبة المخطئين ومحاكمة المسؤولين عن الهزيمة فى صفوف القوات المسلحة وعلى رأسهم عبد الحكيم عامر وشلته المكونة من صلاح نصر وشمس بدران إلخ.

ويعمد الشاعر إلى التعبير المجازى عن الهزيمة للإثارة :

كلفنا ارتحالنا

خمسين ألف خيمة جديدة

إنه يقصد وفود المزيد من اللاجئين الفلسطينيين إلى الدول العربية وإلى الشتات فى العالم أجمع ومعيشتهم فى خيام للإيواء كضحايا الزلازل ، خيام تفتقر إلى الكرامة وإلى أبسط حقوق البشر الآدمية والإنسانية من حيث المسكن الملائم والحمام الصحى إلخ ، ويكفى شعور اللاجئ بأنه عبء على بلد عربى له مشكلاته وتضيق حكومته به وتعتبره مصدر إرهاب وتخريب كما فى الأردن ولبنان مثلا .. وليست المشكلة فحسب فى الخمسين ألف خيمة جديدة ولا فى اللاجئين الذين يسكنونها ، بل لقد خرج من المخيمات عظماء من أمثال ناجى العلى وعبد البارى عطوان ، ولكن المشكلة الأكبر الأرض التى ضاعت وكرامة الأمة التى ذبحت ، وهذه براعة الشاعر فى التعبير عن ذلك بالإيحاء دون الثرثرة التى لا تفيد . ويقول أيضا :

خلاصة القضية

توجز فى عبارة

لقد لبسنا قشرة الحضارة

والروح جاهلية

بالناى والمزمار

وبهذه الأبيات القلائل أعطى الشاعر كل إيحاءات التخلف الفكرى والعلمى والدينى والسياسى والثقافى الذى تعانيه الأمة بأسرها ولكنها لا تعترف به ، وهكذا يشخص الشاعر الداء جيدا ويعطى روشتة الدواء أيضا . فالجاهلية فيها وأد البنات واعتبار الحب جرما مما حرم عنترة من عبلة وكثير من عزة وقيس من ليلى وجميل من بثينة إلخ .. وفيها العناد والقسوة والتخلف والعهر .. وفيها عبادة الأصنام والتعصب القبلى والتناحر العربى العربى بين القبائل .. والتفرق والتشرذم العربى .. لقد أخذنا نحن العرب من الغرب قشور الحضارة فقط ولم نتعمق فى الأخذ بالحضارة ولكن بقينا من الداخل متزمتين ومنافقين ومتكاسلين نحمل مساوئ العرب القديمة من تعصب وجهل وكسل ومبالغة وعدم استعداد جاد .. فبالغناء الحماسى وحده أو بالخطب والشعارات الرنانة وحدها دون عمل دؤوب سرى جاد لا يتحقق انتصار ، بل إن العمل فى صمت أفضل وأقوى وأكثر خطورة وكما يقال : ما خفى كان أعظم .

البطـولاتُ موقفٌ مسرحيٌّ

ووجوهُ الممثلينَ طلاءُ

و فلسطينُ بينهم كمزادٍ

كلُّ شـار يزيدُ حين يشـاءُ

وبرغم الجريمة وبشاعتها وإدانة الجميع بتلك الجريمة فإن أحدا لم يعترف بجرمه ، ولم يحاول أن يضمد ذلك الجرح النازف الكبرياء ، تسلل الجميع وأدانوا غيرهم . كما فى قصيدته (جريمة شرف أمام المحاكم العربية) :

وتتجلى براعة الشاعر فى إدانته لكل أنظمة العرب وشعوبها فليس هناك متهم بالهزيمة وغير متهم . كما فى قصيدته (إفادة فى محكمة الشعر) :

مـا لنا ؟ ما لنا نلـومُ حزيرانَ

و فى الإثم كلُّنا شركاءُ؟

من هم الأبرياءُ ؟ نحنُ جميـعاً

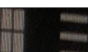
حامـلو عارهِ ولا استثناءُ

عقلُنا ، فكرُنا ، هزالُ أغانينا

روانا، أقوالُـنا الجوفـاءُ

نثرُنا، شعرُنا، جرائدُنا الصـفراءُ

والحبرُ والحـروفُ الإمـاءُ





وفقدتَ يا وطني البكارةْ

لم يكترثْ أحدٌ.

وسُجِّلَتِ الجريمةُ ضدَّ مجهولٍ ،

وأرخيتِ السّتارةْ

ونحنُ ضاجعنا الغزاةَ ثلاثَ مرّاتٍ.

وضيّعنا العفافَ ثلاثَ مرّاتٍ.

وشيّعنا المروءةَ بالمراسمِ ، والطقوسِ العسكريّةْ

" لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ" !

ونحنُ غيّرنا شهادتَنا.

وأنكرنا علاقتَنا.

وأحرقنا ملفّاتِ القضيّةِ ..

كان يمكن لهذه الأبيات أن تكون ضمن شعر المناسبات الذى يموت عشية يوم قوله ، لكن القصيدة ارتفعت بالمناسبة وارتفعت عنها لتكون أنينا فى وجدان المتلقى حتى بعد المناسبة بمئات السنين ، وذلك قدر الفن العظم - دوما - فالشاعر بعدما أعطى الهزيمة حجمها فى الأبيات السابقة لم يسترسل فى ذكر الضياع الذى حاق بالشرف والمال والبنين ، لكنه أعطى مقابلة فنية لهذا الضياع توجب على العرب تحريك ذلك الواقع المرير إلى واقع مشرف . يقول فى قصيدته (الممثلون) :

حربُ حزيرانَ انتهتْ..

وضاعَ كلُّ شئٍ.

الشّرفُ الرّفيعُ ، والقلاعُ ، والحصونْ

والمالُ والبنونْ

لكننا .. باقونَ فى محطةِ الإذاعة.

" فاطمةُ تُهدى إلى والدِها سلامَها .. "

" وخالدٌ يسألُ عن أعمامِهِ فى غزّةَ .. وأينَ يقطنونَ ؟

"

" نفيسة قد وضعتْ مولودَها .. "

" وسامرٌ حازَ على شهادةِ الكفاءةْ .. "

" فطمئنونا عنكُم.

" عنوانُنا المخيّمُ التسعونْ .. "

وواضح من كلمات الأبيات السابقة أنها مباشرة لا غموض فيها ، وإذا كان بعض النقاد يعتبرون المباشرة فى الشعر تجعله شعرا سطحيا ، فليس الأمر بهذه البساطة مع نزار ، فهو لا يكتفى بتصوير الواقع فحسب بل يشكل واقعا أكثر خصوبة وأعظم عطاء ، والفن مهما يكن وليد عصره فهو يضمن قسمات ثابتة من قسمات الإنسانية وبقدر ما صور هوميروس وإسخيلوس الظروف البسيطة لمجتمع قائم على العبودية كانا مقيدين بعصرهما وفات أوانهما ، ولكن بقدر ما كشفا فى ذلك المجتمع عظمة الإنسان وسجلا فى شكل فنى صراعه وأشواقه .. فإن كتاباتهما تبقى

حية بل ومعاصرة .. لا تزال تؤثر فينا حتى اليوم ، وستؤثر فى مصير الإنسان على الدوام .

وإذا كان الشاعر يصور مأساة واقعية فإنه لا يخرجها من شاعريتها حتى ولو أتت الألفاظ بسيطة التركيب وتلكم من أهم سمات نزار ، ولا نعنى ببساطة التركيب فقر الدلالة ولكن على عكس ذلك :

حربُ حزيرانَ انتهتْ..

وضاعَ كلُّ شئْ.

الشَرفُ الرّفيعُ ، والقلاعُ ، والحصونْ

والمالُ والبنونْ

ذلك لأن ميله إلى التعبير المباشر - كما لاحظنا - بعيد تماما عن السطحية فهو يبنى القصيدة على أسس فنية صارمة ويستخدم عناصر تبدو سهلة يسيرة وما هى كذلك وذلك مرجعه إلى طبيعة نزار الفنان الممتلئ بالعواطف والعواصف العاتية ، ولكنه أبدا لا يكرر غيره ، وإذا كان شعره السابق يقترب كثيرا من النثر

ونلاحظ كما ذكرنا اختفاء النبرة الخطابية وعلو نغمة المرارة والتحسر فالشعر السياسى الجيد هو الشعر القابل للقراءة همسا وليس الشعر الذى لا يصلح إلا للجلجلة على منابر الخطابة السياسية ، ولننظر إلى التوجع فى الأبيات التالية من قصيدة (الممثلون) :

حربُ حُزيرانَ انتهتْ.

فكلُّ حربٍ بعدَها ، ونحنُ طيّبونْ

أخبارُنا جيّدةٌ

وحالُنا ـ والحمدُ للهِ ـ على أحسنِ ما يكونْ

جمرُ النراجيلِ ، على أحسنِ ما يكونْ

وطاولاتُ الزّهرِ .. ما زالتْ على أحسنِ ما يكونْ

والقمرُ المزروعُ فى سمائِنا

مدوَّرُ الوجهِ على أحسنِ ما يكونْ

وصوتُ فيروزَ ، من الفردوس يأتى : " نحنُ راجعونْ

ويغتالونَ كلَّ الراقصينْ)

ـ إنَّ السّويدياتِ أحسنُ من يمارسنَ الهوى

ـ والجنسُ فى ستوكهولمَ يُشربُ كالنبيذِ على الموائدْ.

ـ الجنسُ يُقرأ فى السّويدِ مع الجرائدْ

(الناطقُ الرسمىُّ يعلنُ فى بلاغ لاحق ،

أنَّ اليهودَ تزوّجوا زوجاتِنا ، ومضوا بهنَّ .. فبالرفاهِ وبالبنينْ)

وهى تعبير عام عن التناحر العربى والانشغال بالجنس والخمر والتوافه بينما الأخبار الرسمية تؤكد أن العدو ينتصر الانتصار تلو الانتصار وينتهك الأعراض إلخ ..

"

تغلغلَ اليهودُ فى ثيابنا ، و " نحنُ راجعونْ"

صاروا على مِترَينْ من أبوابنا ، و " نحنُ راجعونْ"

ناموا على فراشِنا ، و "نحنُ راجعونْ"

وكلُّ ما نملكُ أن نقولَهُ:

" إنّا إلى الله لراجعونْ " ...

وواضح ما فى الأبيات من سخرية وتهكم حتى الكتاب والأدباء لم يستنكروا الهزيمة ، بل ظلوا حسب المنهج الرسمى يبررون مواقف الحاكمين المنهزمين :

حربُ حزيرانَ انتهتْ

وحالُنا - والحمدُ للهِ - على أحسن ما يكونْ

كُتّابُنا على رصيفِ الفكر عاطلونْ

من مطبخ السلطان يأكلونْ

بسيفِهِ الطويل يضربونْ

كُتّابُنا ما مارسوا التفكيرَ من قرونْ

لم يُقتَلوا .. لم يُصلَبوا.

لم يقِفوا على حدودِ الموتِ والجنونْ

كُتّابُنا يحيونَ في إجازةٍ.

وخارجَ التاريخ .. يسكنونْ.

حربُ حزيرانَ انتهتْ

جرائدُ الصباح ما تغيّرتْ

الأحرفُ الكبيرةُ الحمراءُ .. ما تغيّرتْ

الصورُ العاريةُ النكراءُ .. ما تغيّرتْ

والناسُ يلهثونْ .. تحتَ سياطِ الجنسِ يلهثونْ

تحتَ سياطِ الأحرفِ الكبيرةِ الحمراءِ .. يسقطونْ

الناسُ كالثيران فى بلادِنا ، بالأحمر الفاقع يُؤخذونْ ...

لذلك تبدو أهمية أمانة الكلمة ، فإذا تحولت إلى نفاق سياسى ضاعت كل قيم الأمة التى ينتمى إليها الكتاب وهذا ما جعل الشاعر يعلن الحرب على أصحاب الكلمة فى كل موقع ، فى قصيدته (حوار مع أعرابى أضاع فرسه) :

لو أعطى السّلطة فى وطنى

لقلعتُ نهارَ الجمعةِ أسنانَ الخُطباءْ

وقطعتُ أصابعَ من صبغوا .. بالكلمةِ أحذيةَ الخُلفاءْ

وجلدتُ جميعَ المنتفعينَ بدينار .. أو صحنِ حساءْ

لو أعطى السُّلطة فى وطنى

أعدمتُ جميعَ المنبطحينَ على أبوابِ مقاهينا

وقصصتُ لسانَ مغنّينا

وفقأتُ عيونَ القمر الضاحكِ من أحزانِ ليالينا

وكسرتُ زجاجتَهُ الخضراءْ.

وأرحتُكَ يا ليلَ بلادى.

من هذا الوحشِ الآكلِ من لحمِ البُسطاءْ ..

وإذا كان هذا الموقف هو موقف الشاعر الذى يدافع عنه ولا يحيد ، فإنه يؤمن بضرورة القتال بالكلمات الحرة ومن يُقتل فى سبيل الكلمة فهو شهيد ، ووطنيته ليست شوفينية متعصبة تسب الدول العربية الأخرى ولا تقول " مصر فوق الجميع " بل هى محبة بصيرة لا عواطف عمياء ، كما فى قصيدته (إفادة فى محكمة الشعر) :

كلُّ من قاتلوا بحرفٍ شجاع

ثم ماتـوا.. فإنـهم شهداءُ

لا تعاقب يا ربِّ من رجمونى

واعفُ عنهم لأنـهم جهلاءُ

إن حبّى للأرض حبٌّ بصيرٌ

وهواهم عواطفٌ عمياءُ

إن أكُن قد كَوَيْتُ لحمَ بلادى

فمن الكىِّ قد يجئُ الشفاءُ

وعندما يخيم الحزن على نفس الشاعر ، يعلن كفره بالموجودات كلها ، فحزيران بالنسبة للشاعر خنجر فى

قلبه ، لن يخرج إلا ومعه الروح ، فى قصيدته (إليه فى يوم ميلاده) :

أبا خالدٍ أشكُو إليكَ مواجِعى

ومثلى لهُ عُذرٌ .. ومثلكَ يعذُرُ

أنا شَجَرُ الأحـزان ، أنزفُ دائماً

وفى الثلـج والأنـواءِ .. أعطى وأثمِرُ

يُثيرُ حـزيرانٌ جنونـى ونقمتّى

فأغتالُ أوثانـى .. وأبكى .. وأكفُرُ

حتى حياة الشاعر اليومية تحولت إلى النقيض فحزن الهزيمة بدل متعته ألما لا يبرأ منه ، فى قصيدته (قراءة أخيرة على أضرحة المجاذيب) :

من مللى

شنقت نفسى أمس .. فى ضفائر الحبيبة

لم أستطع أن أفعل الحبّ .. كما عودتها

كانت خطوط جسمها غريبة

كان السرير بارداً ..

والبردُ كان بارداً ..

ونهدُ من أحبها ليمونةٌ كئيبة ..

بعد حزيران أضعتُ شهوتى

سقطتُ فوق ساعدىْ حبيبتى

كالراية المثقوبة ..

تقابل هذه الصورة الكئيبة والحالة النفسية السيئة للشاعر حالة الحكام العرب وخداعهم للجماهير بالخطب الرنانة ويوم التحرير الذى طال انتظاره ، كما فى قصيدته (الخطاب) :

أيها السّادةُ

إني وارثُ الأرض الخرابْ

كلّما جئتُ إلى بابِ الخليفة

سائلاً عن (شرمِ الشيخ) وعن (حيفا) ..

و (رامَ)اللهِ (الجولان) أهدانى خطابْ.

كلما كلمتُهُ - جلَّ جلالُهُ

عن حزيرانَ الذى صارَ حشيشاً .. نتعاطاهُ صباحاً ومساءً

واحتفالاً مثلَ عيدِ الفطر ، والأضحى ، وذكرى كربلاءْ

ركبَ السيّارة المكشوفة السقف .. وغطى صدرهُ بالأوسمة

ورشانى بخطابْ.

كلّما ناديتُهُ : يا أميرَ البرّ .. والبحر .. ويا عالى الجنابْ

سيفُ إسرائيلَ فى رقبتِنا .. سيفُ إسرا .. سيفُ إسـ..

ركبِ السيّارةَ المكشوفةَ السقف .. إلى دار الإذاعة

ورشانى بخطابْ..

ورمانى بينَ أسنان الجواسيس ، وأنيابِ الكلابْ

فاعذرونى ، أيّها السّادةُ ، إن كنتُ كفرتْ

وَصَفوا لى صبرَ أيّوبَ دواءً .. فشربتْ

أطعمونى ورقَ النشّافِ .. ليلاً ونهاراً .. فأكلتْ

أدخلونى لفلسطينَ على أنغامِ (ما يطلبهُ المستمعونْ)

أدخلونى فى دهاليز الجنونْ.

فاعذرونى - أيّها السّادةُ - إن كنتُ ضحكتْ

كان فى ودّىَ أن أبكى.

ولكنّى ضحكتْ.

ونلحظ من الأبيات :

أن الشاعر وصلت به درجة الأداء الفنى ذروته مع الاحتفاظ بالخيط الفكرى فى الأبيات دون علو النبرة الخطابية وتلك من الأشياء الفريدة التى تحلى بها نزار ، وأن الشاعر يجئ إلى باب الخليفة للسؤال عن الأرض المحتلة ، وأن إجابة الحاكم تتلخص فى هدية ثم رشوة للشاعر أو للمواطن العربى عموما لإسكاته عبارة عن خطاب ، وأن الشاعر يحدث الخليفة عن حزيران الذى أدمناه ، أى الهزيمة والانهزامية التى أدمناها ،
الاستسلام الذى أدمناه وأبرمناه فى معاهدات استسلام مصرية وأردنية إلخ ، على حين يهتم الحاكم بمظهره وأوسمته ويركب السيارة المكشوفة كى يظهر للجميع ، أى زعامة جوفاء زائفة مظهرية وغير حقيقية .. وقد يقول البعض إن شرم الشيخ تحررت وصارت تحت السيطرة المصرية مجددا اليوم بعد إبرام معاهدة السلام كامب دافيد 1979 ، وحتى الآن .. ولكن كأن الشاعر تنبأ بأن عاصمة مصر الرسمية ومقر الرئيس لم يعد القاهرة وإنما أصبحت شرم الشيخ البعيدة عن الشعب وعن العاصمة ، والمؤمنة جيدا والمنعزلة عن الشعب .. شرم الشيخ المنزوعة السلاح كحال سيناء كلها .. شرم الشيخ التى تغص هى ومدن جنوب سيناء بالسياح

الإسرائيليين اليوم .. أما بقية المدن ، حيفا لا تزال هى ويافا واللد والرملة وعسقلان وطبريا وصفد وبيسان والناصرة وعكا وبئر سبع فى يد الصهاينة وفى داخل كيانهم الغاصب منذ 1948 وحتى اليوم ، والجولان السورى لا يزال تحت الاحتلال الإسرائيلى إلى اليوم .. أما رام الله فقد أصبحت مقر السلطة الفلسطينية الفتحاوية الصورية التى تشرف على الاستيطان فى الضفة الغربية والتى ليس لها من السلطة إلا الاسم ..

وتظهر براعة الأداء فى التعبير عن الحاكم بلفظ الخليفة لما يوجبه هذا اللفظ من عظيم المسؤولية على صاحبه وإذا اتصف بصفات غير حميدة كان اللفظ للسخرية كما فى هذه الأبيات ، والتعبير بـ "جل جلاله " الخاص بالله تعالى فى هذا الموقف يبرز ما وصلنا إليه من تأليه الحكام .. أنظر كيف يطلق ملك السعودية على نفسه لقب كان يخص الخلفاء العثمانيين فيما مضى وهو خادم الحرمين الشريفين ، وأنظر كيف يسمى ملك المغرب نفسه بلقب أمير المؤمنين الخاص بالخلفاء !! إنهم مصابون بجنون العظمة وكل منهم يطمح للاستيلاء على بقية الأراضى العربية أو على الأقل التلقب ولو بالاسم فقط باسم خليفة أو لقب خليفة .. وأنظر كيف يحرم وعاظ السلاطين الثورة والخروج على الطغاة الذين يحكمون دول محور الاعتلال اليوم.

ويرون الحاكم بالفعل إلها وإن لم يصرحوا بذلك جهرة ..

وتغطية الصدر بالأوسمة فى حالة الهزيمة دلالة على استهزاء الحاكم بشعبه وبتوهمه بأنه منتصر وهو مهزوم .. ألم تر إلى البذلة العسكرية والنياشين التى كان السادات يرتديها مثلا ..

وجعل الخطاب فى المرة الأولى - أهدانى خطاب- مهدى من الحاكم وفى المرة الثانية - رشانى بخطاب- رشوة منه دلالة على كثرة الحيل التى يلجأ إليها أولئك الذين يخونون عهدهم وأماناتهم وشعوبهم وأنفسهم فإذا كان هذا هو الحال فالشاعر لا يملك أولا غير الشكوى فى قصيدته (من مفكرة عاشق دمشقى) :

يا ابنَ الوليدِ .. ألا سيفٌ تؤجِّرهُ ؟

فكلُّ أسيافنا قد أصبحت خشبا

دمشقُ، يا كنزَ أحلامى ومروحتى

أشكو العروبةَ أم أشكو لكِ العربا ؟

أدمت سياطُ حزيرانَ ظهورَهم

فأدمنوها.. وباسوا كفَّ من ضربا

لقد أدمن العرب الانهزامية وترديد أقاويل " لا طاقة لنا بأمريكا وإسرائيل" ، " كفوا عن العنتريات" ، " الحكمة والتريث لا التهور" ، " العين لا تستطيع أن تقاوم المخرز " إلخ . بل وأصبحوا ماسوشيين يستلذون بالإهانة والضرب ، بل ويحرضون إسرائيل وأمريكا وفرنسا وبريطانيا على من يقاوم أو يحاول رفع رأسه مثل حماس أو حزب الله أو إيران أو العراق ، ويشمتون فيهم .. خلصونا من حزب الله ، خلصونا من إيران رأس الأفعى .. صدام يملك أسلحة دمار شامل ويهدد جيرانه .. إلخ .

ولا يملك الشاعر ثانيا غير دعوة حزيران (فهو يستعمل كلمة حزيران إسقاطا وتعبيرا عن الهزيمة العربية عموما والمستمرة إلى اليوم فى نكسات متتابعة منذ نكبة 48 مرورا بنكسة 67 مرورا باتفاقية79 مرورا بالغزو الإسرائيلى للبنان 82 وحتى قانا ، والعدوان على لبنان 2006 ، وعلى قطاع غزة 2008) .. دعوة حزيران عامة والخامس منه على وجه الخصوص للاصطياف كى ينسى ثأره وثورته وجرحه الدامى ، فبعد مرور خمس سنوات على الهزيمة أصيب الشاعر - كما أصيب العالم العربى - بحالة يأس ، وأصبحت ذكرى الهزيمة تمر على الحكام العرب دون أن تهتز فى رؤوسهم شعرة كرامة واحدة ، كما فى قصيدته (دعوة اصطياف للخامس من حزيران) :

سنةٌ خامسةٌ تأتى إلينا

حاملاً كيسكَ فوقَ الظهر، حافى القدمينْ

وعلى وجهكَ أحزانُ السماواتِ، وأوجاعُ الحسينْ

سنلاقيكَ على كلِّ المطاراتِ.. بباقاتِ الزهورْ

وسنحسو - نخبَ تشريفكَ - أنهارَ الخمورْ

سنغنّيكَ أغانينا..

ونُلقى أكذبَ الأشعار ما بينَ يديكْ

وستعتادُ علينا .. مثلما اعتدنا عليكْ ..

وفى بناء فنى متميز أعطى الشاعر كل دلالات البؤس والشقاء لحزيران جاعلا منه رمزا للتشرد والضياع ، والصيغة الفنية جديرة بالتأمل لما فيها من الحركة والتشخيص ، فالشاعر يجعل حزيران إنسانا حافى القدمين (دلالة على البؤس والشقاء) ويحمل كيسه

فوق ظهره (دلالة الفاقة) وينجح الشاعر فى إسقاط حادثة كربلاء التاريخية نجاحا ملحوظا ، فبالرغم من تعود الشعراء العرب على استخدام التراث لا يوجد فيهم شاعر واحد أخذ الحسين دلالة لـ "حزيران" وثمة تشابه بين الحسين وحزيران فكلاهما له أتباع وكلاهما موجوع بأتباعه لخداعهم إياه ..

ما هو موقف أتباع حزيران منه ومن فجيعته ؟

يقول الشاعر :

سنلاقيكَ على كلِّ المطاراتِ.. بباقاتِ الزهورْ

وسنحسو - نخبَ تشريفكَ - أنهارَ الخمورْ

سنغنّيكَ أغانينا..

ونُلقى أكذبَ الأشعار ما بينَ يديكْ

وستعتادُ علينا .. مثلما اعتدنا عليكْ ..

لم يتعلم العرب الغضب الذى يفضى إلى الثأر وهذه هى المفارقة الفنية التى أرادها الشاعر .. فأتباع الحسين

خذلوه حيا خوفا من سيوف بنى أمية وطمعا فى عطاياهم لكنهم ناصروه بعد استشهاده وزلزلوا كيان بنى أمية حتى انهار ، والمسلمون الشيعة وإلى يومنا هذا فى دول الخليج وفى إيران ولبنان والعراق تنظم مظاهرات حزن وغضب فى ذكرى الحسين وكربلاء من ليلة الأول من محرم وطوال عشرة أيام وليال حتى عاشوراء أى العاشر من محرم ذكرى استشهاد الحسين ، أما العرب المعاصرون فنسوا هزيمة الخامس من يونيه 1967 م ، عشية وقوعها - هذا رأى الشاعر- وأصبحت تمر السنون دون محاولة للثأر :

سنة خامسة..

سادسة ..

سابعة ..

ثامنة ..

تاسعة..

عاشرةٌ ..

ما تهمُّ السنواتْ ؟

إنَّ كلَّ المدنِ الكبرى من النيل .. إلى شطِّ الفراتْ

ما لها ذاكرةٌ .. أو ذكرياتْ

كلُّ من سافرَ فى التيهِ نسيناهُ.

ومن قدْ ماتَ ماتْ.

ما تهمُّ السنواتْ ؟

نحنُ أعددنا المناديلَ ، وهيأنا الأكاليلَ ،

وألفنا جميعَ الكلماتْ

ونحتنا ، قبلَ أسبوعٍ ، رخامَ الشاهداتْ

أيها الشرقُ الذى يأكلُ أوراقَ البلاغاتْ.

ويمشى - كخروفٍ- خلفَ كلِّ اللافتاتْ

أيها الشرقُ الذى يكتبُ أسماءَ ضحاياهُ.

على وجهِ المرايا.

وبطون الراقصاتْ.

ما تهمُّ السنوات ؟

ما تهمُّ السنوات ؟

إن النسيان آفة الشعوب العربية دوما .. فقد نسينا فى مصر ثأر آبائنا وإخوتنا فى سيناء وعقدنا سلما وحلفا مع الصهاينة قتلتهم .. ونسينا قضية العرب المركزية والعدو الأول للأمة العربية إسرائيل وأصبح العدو عندنا إيران وحماس وحزب الله .. كم من فضائح تظهر للتعاون المصرى والسعودى والخليجى والأردنى الرسمى مع إسرائيل ، والتبعية لأمريكا وضرب اليمنيين الحوثيين الزيديين ، ثم ننسى كل شئ .. وكم من قضية كقضية هشام طلعت مصطفى قاتل المطربة سوزان تميم .. وكم من فضيحة لرجال الأعمال المصريين النواب وأعضاء لجنة السياسات بالحزب الوطنى الحاكم ، والكل ينسى ولا حساب ..

إن الشاعر لا يكشف عن واقع ، لكنه يكشف عن الحزن الذى يسكنه ، والمرارة التى تعتريه ، ولو رجعنا إلى تاريخ هذه القصيدة(5 يونيه 1972 م) لوجدنا أن العالم العربى قد ضاق بحكامه فى هذه الفترة التى أطلق عليها (اللاسلم واللاحرب) وأصابه اليأس والملل

والرفض وقامت المظاهرات فى مصر تطالب بالثأر من العدو ، فهل كان نزار إفرازا طبيعيا لشعور الأحرار فى الأمة العربية آنذاك ؟ فى تصورى إنه كذلك والذى يدل على ذلك شعره فى هذه المرحلة ، فهو نوع من الثورة الخفية التى تكشف عورات الأنظمة ولننظر إلى حواره مع حزيران :

نحنُ ندعوكَ لتصطافَ لدينا

مثلَ كلِّ السائحينْ

وسنعطيكَ جناحاً ملكياً

لكَ جهزناهُ من خمس سنينْ

سوفَ تستمتعُ بالليل .. وأضواء النيونْ

وبرقص الجيركِ.

والجاز.

وأفلام الشذوذِ.

فهُنا .. لا نعرفُ الحزنَ .. ولا من يحزنونْ

204

سوفَ تلقى فى بلادىَ ما يسرُّكْ:

شفقاً مفروشة للعاشقينْ

وكؤوساً نُضّدت للشاربينْ

وحريماً لأمير المؤمنين.

فلماذا أنتَ مكسورُ الجناحْ ؟

أيها الزائرُ ذو الوجهِ الحزينْ

ولدينا الماءُ .. والخضرةُ .. والبيضُ الملاحْ

ونوادي الليل تبقى عندنا مفتوحة حتى الصباحْ.

فلماذا تتردّد ؟

سوفَ ننسيكَ فلسطينَ.

ونستأصلُ من عينيكَ أشجارَ الدموعْ

وسنُلغى سورة (الرحمن) .و(الفتح) ..

205

ونغتالُ يسوعْ.

وسنُعطيكَ جوازاً عربياً..

شُطبتْ منهُ عباراتُ الرجوعْ ...

لقد أبرز الشاعر العاهات التى تشل أجسادنا ، وتوقف تحركنا الطبيعى فى القضايا المصيرية ، فالطبيعة العربية ، والشخصيةُ العربية وما جبلت عليه ، قد خالفناها ، فأصبحنا ضد قيم العرب ، وفخر العرب ، وشرف العرب :

أيها الشرقُ الذى يكتبُ أسماءَ ضحاياهْ.

على وجهِ المرايا..

وبطون الراقصاتْ.

ما تهمُّ السنوات ؟

ما تهمُّ السنوات ؟

وهنا نتساءل هل كانت هزيمة يونيه فرصة لكل من يملك سكينا شعريا أو سياسيا أو عقائديا ؟ وهل كان نزار ساديا حين تحدث عن جرح يونيه ؟ راميا سكاكينه اللامعة ورماحه الرشيقة فى الجثة العربية الهامدة بعد حرب 1967 م وإلى اليوم .

إننا لا نستطيع أن نتهم نزارا بالسادية ، لسبب بسيط وهو - رغم فداحة الهزيمة - لم يكن الشاعر انهزاميا باكيا على أطلال الهزيمة فى كل شعره لكنه حاول أن يجعل من يونيه ثورة عربية داخلية وخارجية . يقول فى قصيدته (خطاب شخصى إلى شهر حزيران) :

كنْ يا حزيرانُ انفجاراً فى جماجمنا القديمة

كنُسْ ألوفَ المفردات .. وكنس الأمثالَ ، والحكم القديمة

مزق شراشفنا التى اصفرتْ ..

ومزق جلدَ أوجهنا الدميمة ..

وكن التغير ، والتطرفَ ، والخروج على الخطوط المستقيمة.

أطلقْ على الماضي الرصاص ..

كُن المسدسَ والجريمة ..

من بعد موت الله ، مشنوقاً ، على باب المدينة

لم تبقَ للصلوات قيمة ..

لم يبقَ للإيمان أو للكفر قيمةْ

والأكثر من ذلك أن الشاعر لم يوجه حرابه إلى الجرح العربى فقط ، لكنه ناصر الحق العربى وقام بثورة ضد اليهود وقد جعل الشاعر من حزيران بداية النصر الحتمى ، فى قصيدته (منشورات فدائية على جدران إسرائيل) :

ليسَ حزيرانُ سوى يومٍ من الزمانْ

وأجملُ الورودِ ما ينبتُ فى حديقةِ الأحزانْ ..

وعندما يوجه حديثه إلى اليهود نرى شموخ العرب الرافض للواقع ، الباحث دوما عن ثأره :

ما بيننا.. وبينكم.. لا ينتهى بعامْ

لا ينتهى بخمسةٍ.. أو عشرةٍ.. ولا بألفِ عامْ

طويلةٌ معاركُ التحرير كالصيامْ

ونحنُ باقونَ على صدوركمْ

كالنقش فى الرخامْ

باقونَ فى صوتِ المزاريبِ.. وفى أجنحةِ الحمامْ

باقونَ فى ذاكرةِ الشمس، وفى دفاتر الأيامْ

باقونَ فى شيطنةِ الأولادِ.. فى خربشةِ الأقلامْ

باقونَ فى الخرائطِ الملونة

باقونَ فى شعر امرئ القيس

وفى شعر أبى تمّامْ

باقونَ فى شفاهِ من نحبّهمْ

باقونَ فى مخارج الكلامْ..

ويقول أيضا فى الغرض نفسه :

لن تفلتوا من يدنا

فنحنُ مبثوثونَ فى الريح، وفى الماءِ، وفى النباتْ

ونحنُ معجونونَ بالألوان والأصواتْ

لن تُفلتوا.. لن تُفلتوا

فكلُّ بيتٍ فيهِ بندقيّة

من ضفةِ النيلِ إلى الفراتْ

فهل يمكن لنا أن نقول إنه سادى ؟ أم الأحرى أن نقول إنه شاعر عربى له طموح الشعب وفى الوقت نفسه تعتصره آلامه وأحزانه ؟

من أسباب الهزيمة الاستخدام العكسى للنفط العربى:

لو نظرنا فى ديوان الشعر العربى لا نجد شاعرا لديه حساسية مفرطة تجاه النفط قدر ما كان لـ " نزار " وهنا لابد لنا من الرد على بعض النقاد الذين اتهموا نزارا بأنه لا يعنى بالمستقبل ، والمستقبل هو ما يتغنى به الشعراء وسحرة الشعر لكن الحاضر ما يتغنى به



213 / 588

سحرة السياسة . وبنوا على هذا الاتهام الباطل نتيجة باطلة وهى سادية الشاعر .

لقد أدرك الشاعر أهمية استخدام النفط العربى كسلاح فعال فى المعارك الحربية قبل وبعد هزيمة 1967 م وإلى اليوم ، وهو ما استخدمه العرب فى حرب 1973 م ، بالفعل ، لكنهم من بعدها ولليوم لم يتجاسروا على تكرار التجربة مع أنها ملحة اليوم أكثر من أى وقت مضى ، يقول نزار فى قصيدته (هوامش على دفتر النكسة) :

كانَ بوسع نفطنا الدافق بالصحارى

أن يستحيلَ خنجراً..

من لهبٍ ونار..

لكنهُ..

واخجلةَ الأشرافِ من قريش

وخجلةَ الأحرار من أوسٍ ومن نزار

يراقُ تحتَ أرجل الجوارى ...

أليس ذلك قراءة لكف المستقبل النفطى ؟

ورغم ذلك لم يقنع الشاعر بمستقبلية النفط ، لأن ذلك أمر غاية فى المهانة حيث واقع الهزيمة المرة ، كان يفرض عليه أن يندد بالاستخدام الخاطئ للنفط ، من هنا كانت حسرة الشاعر وتفجعه فيقول كما ذكرنا (واخجلة الأشراف من قريش .. حتى يراق تحت أرجل الجوارى) ...

وقد لجأ الشاعر إلى المجاز فالنفط فى الحقيقة لا يراق تحت أقدام الجوارى لكنه سبب فى الخمور والمال اللذين يرميان على أرجل الجوارى .

نعود ونقول إن الشاعر فى قصيدة " الحب والبترول " التى كتبها عام 1958 م ، أى قبل الهزيمة بتسع سنوات تنبأ بهذه الهزيمة المروعة ، وصورها وكأنها حاضرة أمامه :

تمرّغ يا أميرَ النفطِ .. فوقَ وحول لذّاتكْ

كممسحةٍ .. تمرّغ فى ضلالاتكْ

لكَ البترولُ .. فاعصرهُ على قدَمى خليلاتكْ

كهوفُ الليل فى باريسَ .. قد قتلتْ مروءاتكْ

على أقدام مومسةٍ هناكَ .. دفنتَ ثاراتكْ

فبعتَ القدسَ .. بعتَ الله .. بعتَ رمادَ أمواتكْ

كأنَّ حرابَ إسرائيلَ لم تُجهضْ شقيقاتكْ

ولم تهدمْ منازلنا .. ولم تحرقْ مصاحفنا

ولا راياتُها ارتفعت على أشلاءِ راياتكْ

كأنَّ جميعَ من صُلبوا.

على الأشجار .. فى يافا .. وفى حيفا.

وبئرَ السبع .. ليسوا من سُلالاتكْ

تغوصُ القدسُ فى دمها.

وأنتَ صريعُ شهواتكْ

تنامُ .. كأنما المأساةُ ليستْ بعضَ مأساتكْ

متى تفهمْ ؟

متى يستيقظُ الإنسانُ فى ذاتكْ ؟

أليست هذه نشرة بما سوف يأتى من الأحداث ؟ بل إنها نشرة تنبؤية تصلح حتى يومنا هذا فى 2010 ، فكيف إذن يتهم الشاعر بهذا الاتهام الذى يبنى عليه ما يبنى من نتائج غير علمية ، أما على المستوى الفنى فنلاحظ سهولة التراكيب اللغوية مع عمق الدلالة فيها ، وأن الشاعر بعد إلى حد ما عن الخطابية ، وتحول شعره هنا إلى شعر يقرأ همسا ويكون أقرب إلى التأمل منه إلى الإنشاد . وأنه يحذر من الهزيمة قبل وقوعها بمدة كافية وذلك يرجع لما يملكه من رؤى إنسانية وتاريخية وحضارية عميقة ، أليست هذه سمات الشعر السياسى والشاعر السياسى ؟

إن نزارا لم يأت بعد الهزيمة ليلوم ويلطم ويتشفى ، وإنما أتى مجروحا بذلك الخنجر المسموم الذى مزق أعناق الأحرار فى هذا الوطن .



وإن قسا على العرب فى شعره فإن ذلك من فرط حبه لأمته وعروبته كما يقول فى قصيدته (أنا يا صديقة متعب بعروبتى) :

وإذا قسوت على العروبة مرة

فلقد تضيق بكحلها الأهداب

فلربما تجد العروبة نفسها

ويضئ فى قلب الظلام شهاب

وقبل أن نتحدث عن رؤية الشاعر للواقع النفطى العربى نوضح أثر النفط فى المنطقة العربية وقلبه لميزان الحياة وهذا هو سبب ثورة الشاعر ضد النفط ، فقد انقسم العرب إلى طبقات أربع حسب تقسيم 1977 م كما يلى (من كتاب د. سعد الدين ابراهيم " النظام الاجتماعى العربى الجديد ") :

الطبقة الأولى : وهى طبقة الأغنياء ، وتضم خمس دول منتجة ومصدرة للبترول وهى : السعودية ، الكويت ، الإمارات العربية المتحدة ، قطر ، ليبيا .

الطبقة الثانية : وهى طبقة الميسورين وتضم خمس دول كذلك هى : عمان ، البحرين ، العراق ، لبنان والجزائر .

الطبقة الثالثة : وهى الطبقة الوسطى وتضم أربع دول هى : سوريا ، تونس ، الأردن والمغرب .

الطبقة الرابعة : وهى طبقة الفقراء وتضم ست دول هى : اليمن ، مصر ، السودان ، موريتانيا ، والصومال .

ودول الطبقة الأولى من حيث الثراء تعتبر فى أدنى القاع من حيث نسبة مشاركة السكان ضمن قوة العمل ومن هنا انخفض معدل المشاركة الاقتصادية لهذه الدول ، وأصبح لدينا داخل الأمة العربية ، سادة وعبيد ، دول غاية الغنى وأخرى غاية الفقر ، وبهذا التقسيم وتلك الفجوة اختلفت المعايير وانهار ما يسمى بالقومية العربية على الأقل على مستوى الشعوب وبدأت الدول الميسورة تتطلع لزعامة العالم العربى ، وتستقطب العمالة الآسيوية والمصرية وتستعبدهم بنظام بدائى عجيب يسمى نظام الكفيل ، وبدأت الهجمة الوهابية



السعودية الشرسة تدمر بلاد الحضارات الكبرى مثل سوريا ومصر والعراق ، وتشوه عقول أبنائها وبناتها ، وتمن على الدول العربية الفقيرة بالمساعدات وتنظر إلى الشعب المصرى مثلا باحتقار وتسميه الشعب الحافى وشعب الفول والطعمية ، بعدما كانت الكسوة والمساعدات المالية المصرية هى التى تقيم أود أهل الحجاز ونجد .. وبدأ الخليجيون النفطيون يفسقون فى أوربا ، ويأتون لمصر ويتزوجون عروسة للصيف من أهلها الريفيين البسطاء ثم يتركونها ويهربون. ه ذا إضافة للإنفاق على الجهل والتوافه ، ويا حسرتا على الثقافة .. (لذلك حقد النفطيون لليوم على نزار واستعملوا شيوخهم لتكفيره وتشويه سمعته) .

وكان نزار فى طليعة من فطنوا لذلك عندما يجد دولة فقيرة مثل مصر تخوض غمار المعارك ودولا أخرى تخوض غمار المتع فى أوروبا ، كما فى قصيدته (حوار ثورى مع طه حسين) :

تَستَبِدُّ الأحزانُ بى ... فأنادى

آهِ يا مِصرُ مِن بنى قحطانِ

تاجروا فيكِ.. ساوَموكِ.. استَباحوكِ

وبَاعُوكِ كَاذِبَاتِ الأمَانِى

حَبَسوا الماءَ عن شفاهِ اليَتامى

وأراقوهُ فى شِفاهِ الغَوانى

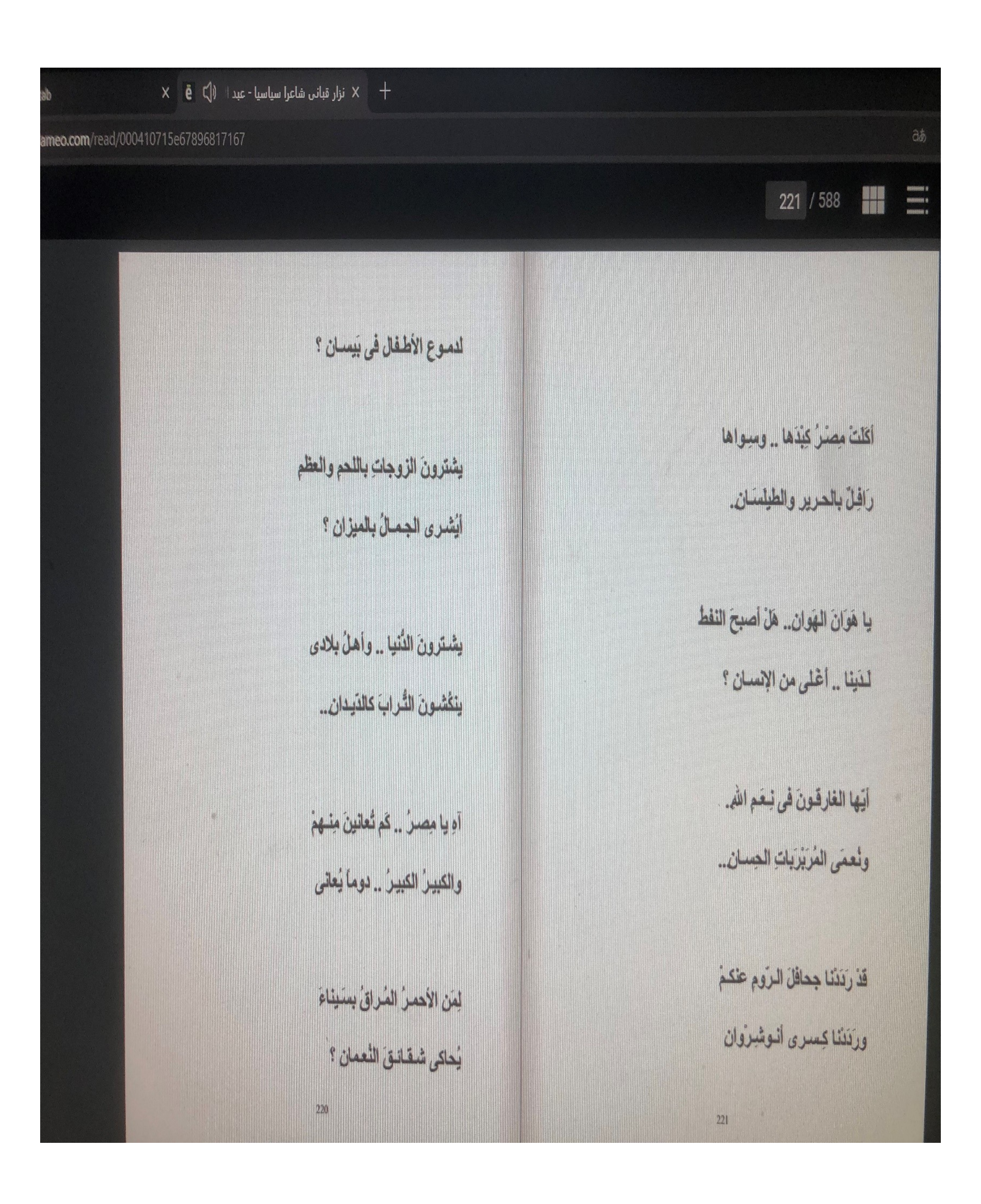
تَركوا السَّيفَ والحصانَ حَزينَيْن

وباعوا التاريخَ للشَّيطانِ

يشترونَ القصورَ .. هل ثمَّ شارٍ

لقبورِ الأبطالِ فى الجَولانِ ؟

يشترونَ النساءَ .. هل ثمَّ شارٍ



لدموع الأطفال فى بَيسان ؟

يشترونَ الزوجاتِ باللحم والعظمِ

أيُشرى الجمالُ بالميزان ؟

يشترونَ الدُّنيا .. وأهلُ بلادى

ينكُشونَ التُّرابَ كالدِّيدان..

آهِ يا مِصرُ .. كم تُعانينَ مِنهمْ

والكبيرُ الكبيرُ .. دوماً يُعانى

لِمَن الأحمرُ المُراقُ بسَيناءَ

يُحاكى شقائقَ النُّعمان ؟

أكلَتْ مِصرُ كِبْدَها .. وسِواها

رافِلٌ بالحرير والطيلسان.

يا هَوانَ الهوان.. هَلْ أصبحَ النفط

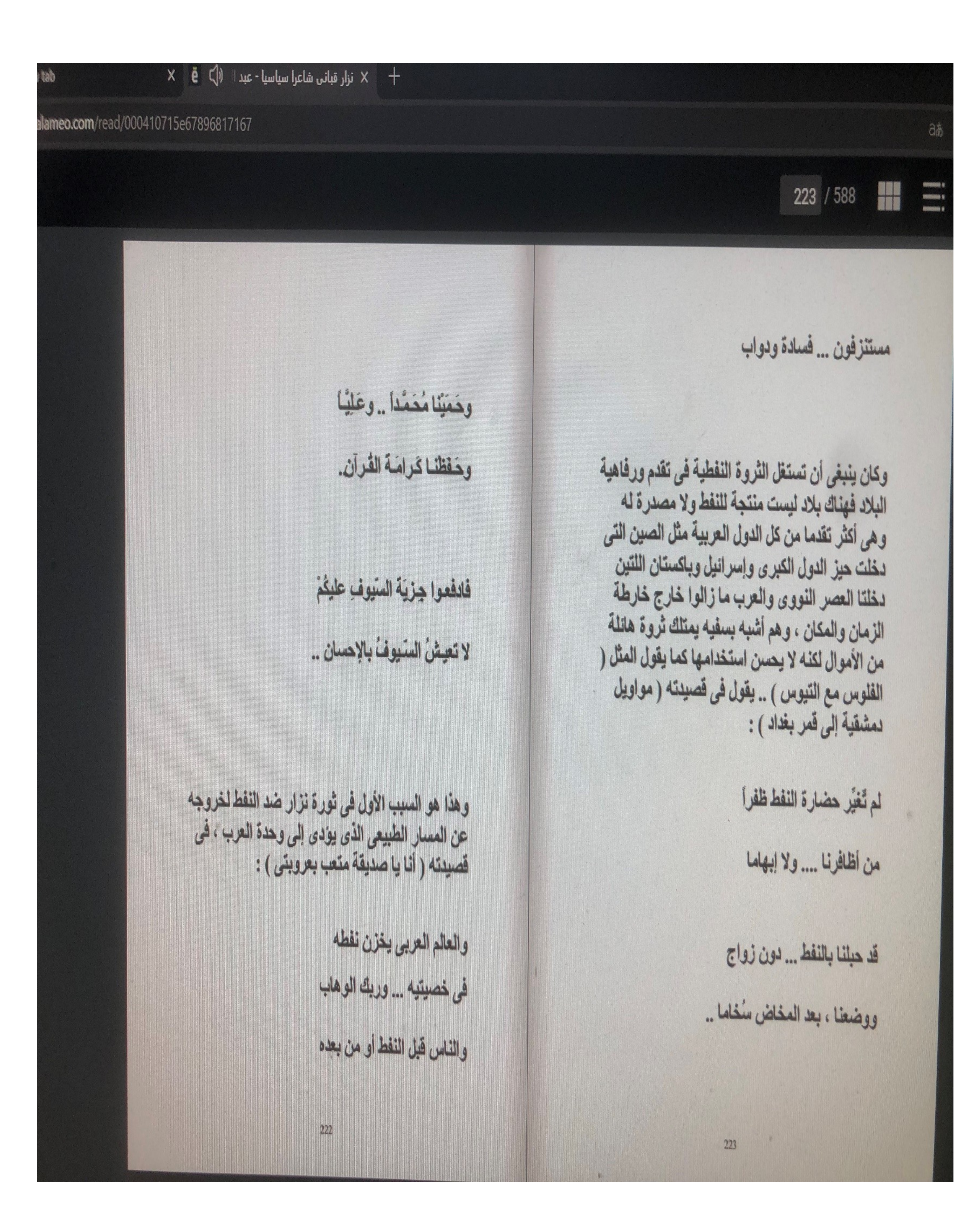
لَدَينا .. أغلى من الإنسان ؟

أيّها الغارقونَ فى نِعَم اللهِ.

ونُعمَى المُرَبْرَباتِ الحِسان..

قَدْ رَدَدْنا جحافلَ الرّوم عنكمْ

ورَدَدْنا كِسرى أنوشِرْوان



وحَمَيْنا مُحَمَّداً .. وعَلِيَّاً

وحَفظْنا كَرامَةَ القُرآن.

فادفعوا جِزيَةَ السّيوفِ عليكُمْ

لا تعيشُ السّيوفُ بالإحسان ..

وهذا هو السبب الأول فى ثورة نزار ضد النفط لخروجه عن المسار الطبيعى الذى يؤدى إلى وحدة العرب ، فى قصيدته (أنا يا صديقة متعب بعروبتى) :

والعالم العربى يخزن نفطه

فى خصيتيه ... وربك الوهاب

والناس قبل النفط أو من بعده

222

مستنزفون ... فسادة ودواب

وكان ينبغى أن تستغل الثروة النفطية فى تقدم ورفاهية البلاد فهناك بلاد ليست منتجة للنفط ولا مصدرة له وهى أكثر تقدما من كل الدول العربية مثل الصين التى دخلت حيز الدول الكبرى وإسرائيل وباكستان اللتين دخلتا العصر النووى والعرب ما زالوا خارج خارطة الزمان والمكان ، وهم أشبه بسفيه يمتلك ثروة هائلة من الأموال لكنه لا يحسن استخدامها كما يقول المثل (الفلوس مع التيوس) .. يقول فى قصيدته (مواويل دمشقية إلى قمر بغداد) :

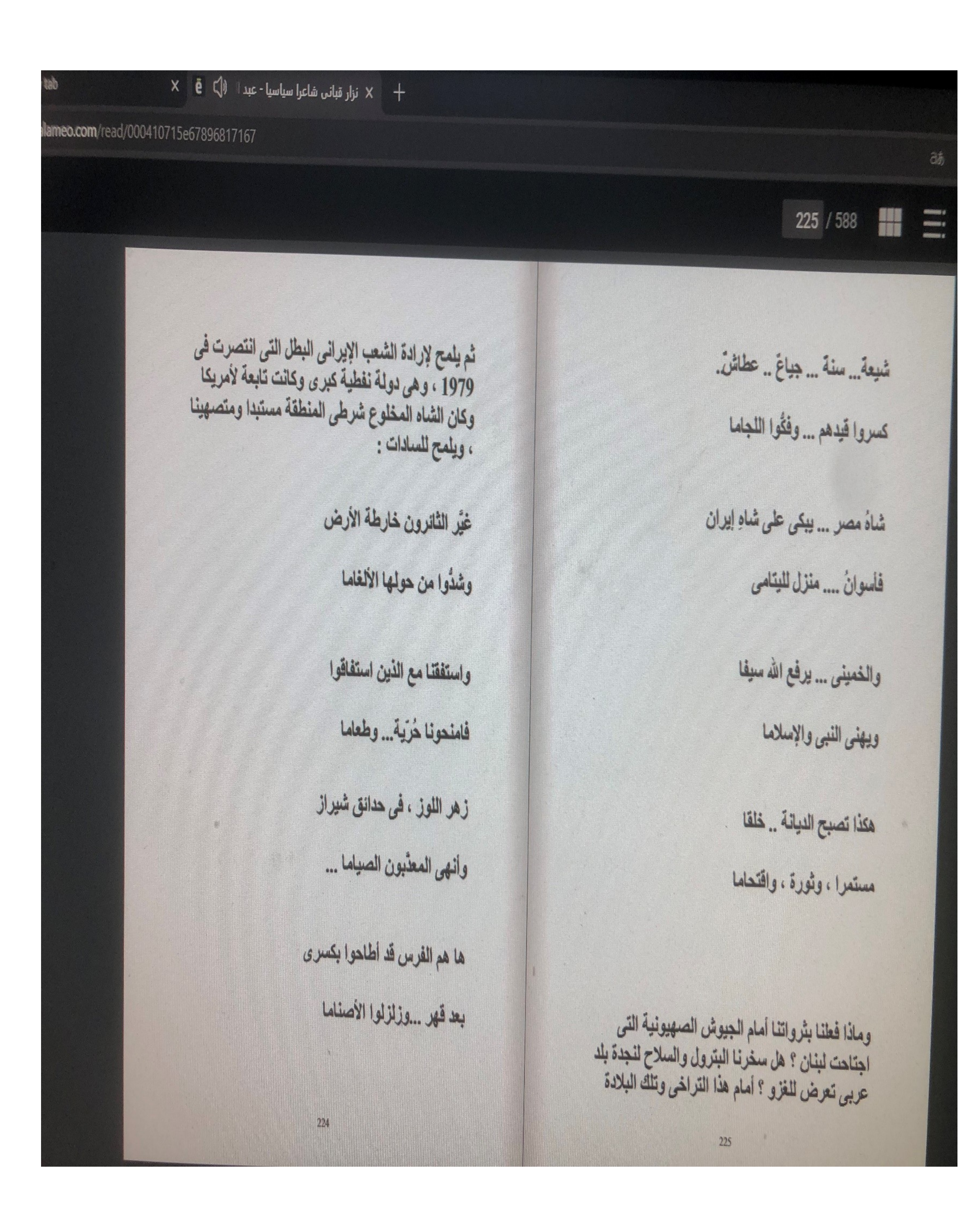
لم تُغيِّر حضارة النفط ظفراً

من أظافرنا .... ولا إبهاما

قد حبلنا بالنفط ... دون زواج

ووضعنا ، بعد المخاض سُخاما ..

223



ثم يلمح لإرادة الشعب الإيرانى البطل التى انتصرت فى 1979 ، وهى دولة نفطية كبرى وكانت تابعة لأمريكا وكان الشاه المخلوع شرطى المنطقة مستبدا ومتصهينا ، ويلمح للسادات :

غيَّر الثائرون خارطة الأرض

وشدُّوا من حولها الألغاما

واستفقنا مع الذين استفاقوا

فامنحونا حُرّية... وطعاما

زهر اللوز ، فى حدائق شيراز

وأنهى المعذّبون الصياما ...

ها هم الفرس قد أطاحوا بكسرى

بعد قهر ...وزلزلوا الأصناما

224

شبعةٌ... سنةٌ ... جياعٌ .. عطاشٌ.

كسروا قيدهم ... وفكُّوا اللجاما

شاهُ مصر ... يبكى على شاهِ إيران

فأسوانُ .... منزل لليتامى

والخمينى ... يرفع الله سيفا

ويهنى النبى والإسلاما

هكذا تصبح الديانة .. خلقا

مستمرا ، وثورة ، واقتحاما

وماذا فعلنا بثرواتنا أمام الجيوش الصهيونية التى اجتاحت لبنان ؟ هل سخرنا البترول والسلاح لنجدة بلد عربى تعرض للغزو ؟ أمام هذا التراخى وتلك البلادة

225



كتب نزار فى أواخر عام 1984 م قصيدة بعنوان " آخر عصفور يخرج من غرناطة " وصف فيها النفط العربى بالنفط المنوى :

هذا هو الزمنُ الذى فيه الثقافةُ،

والكتابةُ،

والكرامةُ،

والرُجُولةُ فى غُروبْ

ودَفَاتري ملأى بآلاف الثُقُوبْ.

النفط يستلقى سعيداً تحت أشجار النُعَاس،

وبين أثداء الحريمْ

هذا الذى قد جاءنا

بثيابِ شَيْطانٍ رجيمْ.

النّفْطُ هذا السائلُ المَنَوِيُّ

لا القوميُّ

لا الشَعبيُّ

هذا الأرنبُ المهزومُ فى كلِّ الحروبْ

النّفْطُ مَشْروبُ الأَبَاطِرةِ الكبارِ،

وليسَ مَشْروبَ الشعوبِ.

كيف الدخولُ إلى القصيدة يا تُرى؟

والنّفْطُ يَشْرِى

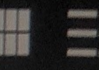
ألفَ مُنْتَجٍ (بماربيًّا)...

ويَشْرِى نصفَ باريسٍ

ويَشْرِى نصفَ ما فى (نيسَ) من شمسٍ وأجسادٍ

ويَشْرِى ألفَ يَخْتٍ فى بحارِهِا.

يَشْرِى ألفَ امرأةٍ بإذنِ اللهِ



لا يشترى سَيْفاً لتحرير الجنوبْ..

وبدلا من تسخير النفط فى صالح القضايا العربية ، أصبح النفط هو الذى يسخر الإنسان العربى الذى أصبح عابدا لذاته وغرائزه ، كما أن جميع القتلى العرب فى جميع الحروب التى خاضها العرب ماتوا بأسلحة أمريكية فهى العدو الأول للعرب وما إسرائيل سوى السوط لهذه الدولة الغاشمة ، ومع ذلك فإن بترول العرب يتدفق إليها دون انقطاع وكذلك رؤوس الأموال العربية ، إن أمة بهذه الحالة جديرة بالرثاء لحالها .. أنظر لقد ساعدت الدول الخليجية أمريكا على غزو أفغانستان 2001 ، والعراق 2003 ، وساعدتها على النهوض من الأزمة العالمية 2009 و 2010 .. وحرضتها على المقاومة الفلسطينية حماس 2008 واللبنانية حزب الله 2006 .. ومن قبل حرضوا العراق على ضرب واجتياح إيران خلال الثمانينات .. فلما مس الكويت انقلبوا عليه وجلبوا أمريكا لغزوه 1991 ثم 2003 .. ثم يتهمون إيران بأنها من ساعد أمريكا فى غزو العراق . يقول نزار فى قصيدته (هجم النفط مثل ذئب علينا) :

هجمَ النفطُ مثلَ ذئبٍ علينا

فارتمينا قتلى على نعليهِ

وقطعنا صلاتنا.. واقتنعنا

أنَّ مجدَ الغنىِّ فى خصيتيهِ

أمريكا تجرِّبُ السوطَ فينا

وتشدُّ الكبيرَ من أذنيهِ

وتبيعُ الأعرابَ أفلامَ فيديو

وتبيعُ الكولا إلى سيبويهِ

أمريكا ربٌّ.. وألفُ جبانٍ

بيننا، راكعٌ على ركبتيهِ




وعلى الزيت نامت الصحراء

العباءات.. كلها من حرير

والليالى رخيصة حمراء

يا فلسطين، لا تنادى عليهم

قد تساوى الأموات والأحياء

قتل النفط ما بهم من سجايا

ولقد يقتل الثرى الثراء

يا فلسطين، لا تنادى قريشاً

فقريشٌ ماتت بها الخيلاء

لا تنادى الرجال من عبد شمس

لا تنادى .. لم يبق إلا النساء

وما دام النفط تحول إلى مجرم وقاتل للقيم العربية وأصبح تواجده فى أماكن اللهو والمجون ، وقد ترك ساحة الجهاد وودعها إلى غير رجعة ، ونشر الفكر

لهذا يعز على الشاعر أن يرى العرب ترتمى فى أحضان قاتليهم لا سيما الدول النفطية التى تربطها بأمريكا علاقات قوية ليس قوامها التوازن والصداقة ومنفعة الشعبين العربى والأمريكى لكنها تقوم على امتصاص بترول العرب وجعلهم تابعين غير شرعيين لأمريكا أو بالأحرى تابعين من الدرجة العاشرة .. يقول فى قصيدته (جريمة شرف أمام المحاكم العربية) :

يا سادتي : إنَّ المخطَّط كلَّهُ من صنع أمريكا،

وبترولُ الخليج هو الأساسُ ، وكلُّ ما يبقى

أمورٌ جانبيّة

وهذه النعمة تحولت إلى نقمة ، ونسينا القضية الأولى للعرب جميعا وهى " فلسطين " وإن أقصى ما يطالب به العرب انسحاب الكيان الصهيونى إلى ما قبل هزيمة يونيه 1967 م ، ولكن العرب يطلبون فلسطين من فوق صدور محظياتهم وعلى صوت أقداح النبيذ ، لقد تحول النفط إلى أداة لقتل كل المروءات العربية ، كما فى قصيدته (إفادة فى محكمة الشعر) :

يا فلسطين، لا تزالين عطشى

الوهابى البغيض وحارب الفنون والحضارة ، فإن الشاعر لا يجد بدا من التمنى بزوال ذلك العار الذى حل علينا ألا وهو النفط ، فى قصيدته (حوار مع أعرابى أضاع فرسه) :

يا بلدى الطيّبَ .. يا بلدى

لو تنشفُ آبارُ البترول .. ويبقى الماءْ

لو يُخصى كل المنحرفينَ .. وكلُّ سماسرةِ الأثداءْ

لو تُلغى أجهزةُ التكييفِ .. من الغرفِ الحمراءْ

وتصيرُ يواقيتُ التيجان .. نعالاً فى أقدام الفقراءْ.

أو أملكُ كرباجاً بيدى..

جرّدتُ قياصرة الصحراءِ من الأثوابِ الحضرية

ونزعتُ جميعَ خواتمهمْ

ومحوتُ طلاءَ أظافرهمْ

وسحقتُ الأحذية اللمّاعة .. والسّاعاتِ الذهبية

وأعدتُ حليبَ النُوق لهمْ

وأعدتُ سروجَ الخيل لهمْ

وأعدتُ لهم ، حتّى الأسماءَ العربية

وهذا يعود إلى رغبة الشاعر فى العودة إلى التراث المشرق والبعد عن زيف الحضارة والثراء وقشرتها الخادعة التى انغمسنا فيها (لو أملك كرباجا بيدى ..... حتى الأسماء العربية) . تتعجب من أسماء السعوديين الغريبة مثل اللحيدان والعثيمين إلخ .. كما أن أسماء المحلات والمنتجعات والملاهى والمجمعات السكنية فى مصرنا أصبحت أسماء أجنبية .

ويوبخ نزار امرأة خانت مبادئها وحبيبها وتزوجت من أمير نفطى .. هكذا يفعل النفط بالحب والمبادئ والنساء الغادرات وخصوصا الممثلات وما سمية الخشاب وأمثالها منا ببعيد .. قصيدة (إلى صاحبة السمو .. حبيبتى سابقا) :

وتزوجت أخيرا ..

بئر نفط ..

وتصالحت مع الحظ أخيرا ..

كانت السحبة - يا سيدتى - رابحة

ومن الصندوق أخرجت أميرا ..

عربي الوجه .. إلا أنه ..

ترك السيف يتيماً .. وأتى

يفتح الدنيا شفاهاً .. وخصورا

فاستريحى الآن .. من عبء الهوى

طالما كنت تريدين أميرا ..

تتسلين به وقتاً قصيرا ..

يتسلى بك - يا سيدتى - وقتاً قصيرا

ويمد الأرض ، من تحتك ، ورداً وحريرا

فاشربى نفطاً .. وسبحان الذى

جعل البترول مسكاً وعبيرا .

ويختم قائلا :

ألف مبروك .. أيا سيدتى

وأدام الله بترول العرب ..

ولا يوبخ نزار النفطيين الخليجيين مدعيى الثقافة والتدين فقط ، بل يوبخ السادات وخلفه وتطبيعهما وصهيونيتهما .. كما فى قصيدته (أنا يا صديقة متعب بعروبتى) :

من ذا يصدق أن مصر تهودت

هل أتتكَ الأخبارُ يا مُتنبِّى

أنَّ كافور فكَّكَ الأهراما؟

سقطت مِصرُ فى يَدى قروىٍّ

لم يجد ما يبيع إلا (الترام)

مسرحى الطموح ، يلبس وجهاً

للكوميديا .... وثانياً للدراما

هو فاروق ... شهوة ، وغروراً

والخديوى ... تسلُّطا وانتقاما

وعد الناس بالرحيق وبالشّهد

ولكن سقاهُم الأوهاما

فمقام سيدنا الحسين يباب

ما هذه مصر ... فإن صلاتها

عبرية ... وإمامها كذاب

ما هذه مصر ... فإن سماءها

صغرت ... وإن نساءها أسلاب

إن جاء كافور ... فكم من حاكم

قهر الشعوب ... وتاجه قبقاب

فيلمح بكافور الإخشيدى الأسود للسادات .. ونلاحظ التشابه بين كراهية المتنبى لكافور وهجائه له وشعور نزار تجاه السادات .. كلاهما - كافور والسادات - أسمر البشرة ، وكلاهما كانت مصر فى عصرهما فى انحطاط وتردى .. يقول نزار فى قصيدته (مواويل دمشقية إلى قمر بغداد) :



مثل الشاة

منحنيا.. منكسرا نصفين

وشاحبا.. وصامتا.. وزائغ العينين

وكان أقصى حلمه

في أول الثورة أن يهتم بالحقائب

وأن يقول للرئيس آخر النكات

كنا نراه دائما

يجلس فى سيدنا الحسين

يستغفر الله

ويتلو سورة الرحمن

كنا نظنه أنه يرتل القرآن

لكنه فاجأنا... وأخرج التوراة

كنا نظن أنه

سيدخل القدس على حصانه

و يستعيد المسجد الأقصى من الأسر

ويدعو الناس للصلاة

لكنه فاجأنا

وسلم الأرض من النيل إلى الفرات

هل أصبحت راشيل فى تاريخنا خديجة ؟

و صار موسى ... أنور السادات

و يا للعجب

كان اسمه

من قبل أن يرتد عن شريعة الاسلام

محمدا.. وصار أبراهام

كان اسمه سيدنا الشيخ

وكان دائم الصلاة والصيام

وكان فى جبينه علامة

من كثرة الركوع والقيام

وكان كالأطفال يبكى

إن تذكر الرسول

أو جاء ذكر الله .. ذى الجلال والإكرام

كان تقيا .. ورعا

يخاف أن يدوس النمل

أو يروع الحمام

و كان أهل مصر يقصدونه

ليطرد الشيطان عن أولادهم

و يحمل الفول إلى صحونهم

و يحمل الطعمية

لكنه فاجأنا

يلبس فى نيويورك جبة الحاخام

ويقرأ القرآن بالعبرية

و يرفع الآذان بالعبرية

و يهدم الملك الذى أسسه هشام

و يغرس الخنجر فى صدر بني أمية

فكيف يا سيدنا الإمام ؟

من أجل عبرانية عشقتها

ذبحت أولادك في الظلام

وأمهم بهية

ويا للعجب

كان اسمه عنترة

في سالف الزمان

ويدعى بأنه من تغلب

كان من قحطان

وأنه تعلم الدين على الشيخ أبي حنيفة

والشعر عن حسان

كان يقول أنه يؤمن بالحرية

والحب والإنسان

وأنه يعشق بنتا حلوة مثل القمر

يدعونها بهية

لكنه فاجأنا

من بعدما أعطاه عبد الناصر الأمان

فافترس الحرية

وافترس الإنسان

244

وطلق البنت التي يدعونها بهية

وحارب الأنصار والصحابة

وأرجع الأوثان

وارتد عن عبادة الله

إلى عبادة الشيطان

فكيف يا عنترة ؟

أصبحت في جراحة صغيرة

حاييم.. أو ناتان

و كيف في جراحة صغيرة ؟

أصبحت مخصيا من الخصيان

ويا للعجب

كان اسمه

245

في المتحف المصرى إخناتون

سحنته سحنة إخناتون

جبهته جبهة اخناتون

لهجته لهجة إخناتون

وكان فى أعماقه

أشياء من خوفو و فرعون

لكن عبد الناصر العظيم

ألبسه عباءة المأمون

فباعها

وأحرق العقال والكوفية

وأطلق النار من الخلف على ابن العاص

وأحرق الحنطة.. والغلال

والبيادر الخصبية

وأحرق العروبة

فكيف زوجوك يا بهية ؟

من ذلك المجنون

وكيف خدروك يا بهية ؟

بالخمر

والحشيش

والأفيون

وكيف أرغموك يا بهية ؟

أن تحملي الخمر إلى مليكهم داوود

وكيف علموك يا بهية ؟

أن تقرأى التلمود

وتصبحى راقصة فى حارة اليهود

و يا للعجب

كان اسمه الفنى

فى مسارح المدينة

زوربا

وكان يعشق الظهور

وكان من أحلامه أن يصبح المطرب والعازف

والممثل المشهور

و كان يسمى نفسه

العزيز

والعظيم

والقوى

والعلى

والقدير

والمعصوم

والغفور

وصانع العبور

كان اشتراكيا

يعيش عيشة الأباطرة

ويعشق السلطان

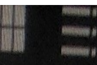
وعنده مزرعة كبيرة .. كبيرة

تعرف باسم القاهرة

وعنده.. كل سرايات بنى عثمان

كان (ترافولتا) عصره

فى روعة الرقص



وفى أناقة الخطوات

وكان شعبيا بأمريكا

وكان كوكب الشاشات

فكيف يا محمد .. يا أنور السادات

من أجل عبرانية عشقتها

تغدر بالأحياء والأموات

وتدعي أن النبى مات

وكيف .. يا .. أنور المأساة

تصبح إسرائيل فى طنطا

وفى بنها

وفى إيلات

ويا للعجب

يا مصر

يا قصيدة المياه ، والجسور

والمآذن الوردية

يا زهرة اللوتس

يا كتابة زرقاء فاطمية

أيتها الصابرة ، الصامتة

الطيبة، النقية

أيتها القاهرة ، المقهورة

الضعيفة ، القوية

يا من يداها ذهب

وصوتها حرير

ماذا جرى ؟

من بعد عبد الناصر الكبير

من مسح الحنة عن يديك يا بهية ؟

من سرق النجوم من ليل العيون السود ؟

ماذا جرى لجيبك الملحنة ؟

والعسل المسكوب

من لهجتك المصرية

ماذا جرى ؟

للكعك.. والأطفال .. والموالد الشعبية

والحزن فى الشوارع الخلفية

يا مصر

يا حبيبة ابن العاص

وعشقه الأول والأخير

لن يستطيع الرجل الصغير

أن يطفئ الشمس ، وأن يزور القضية

فأنت مهما ضاقت الحياة

أو جاء كافور إلى الحكم ، أو السادات

باقية فى القلب يا بهية

باقية فى القلب يا بهية

باقية فى القلب يا بهية

حيث الكتابة رحلة

بين الشظية .. والشظية

وقد أخذت بيروت ، ملمحين فى شعر نزار السياسى ، الملمح الأول ملمح " القاتلة " وقد ظهر هذا الملمح فى شعر نزار إثر مقتل بلقيس الراوى زوج الشاعر نفسه تحت أنقاض السفارة العراقية فى بيروت ، ومن هنا حول نزار استشهادها إلى قضية كبرى لا على الصعيد الأدبى ولكن على الصعيد السياسى ، لقد تحولت بلقيس إلى زعيمة كبيرة للمعارضة عاشقة لبيروت والعروبة ، لكن بيروت تحولت إلى قاتل محترف ، كما فى قصيدته (بلقيس) أيضا :

وبيروت التى قتلتك .. لا تدرى جريمتها

وبيروت التى عشقتك.

تجهل أنها قتلت عشيقتها.

بيروت .. تقتل كل يوم واحداً منا.

وتبحث كل يوم عن ضحية

والموت.. فى فنجان قهوتنا..

وفى مفتاح شقتنا..

وفى أزهار شرفتنا..

وفى ورق الجرائد..

والحروف الأبجدية..

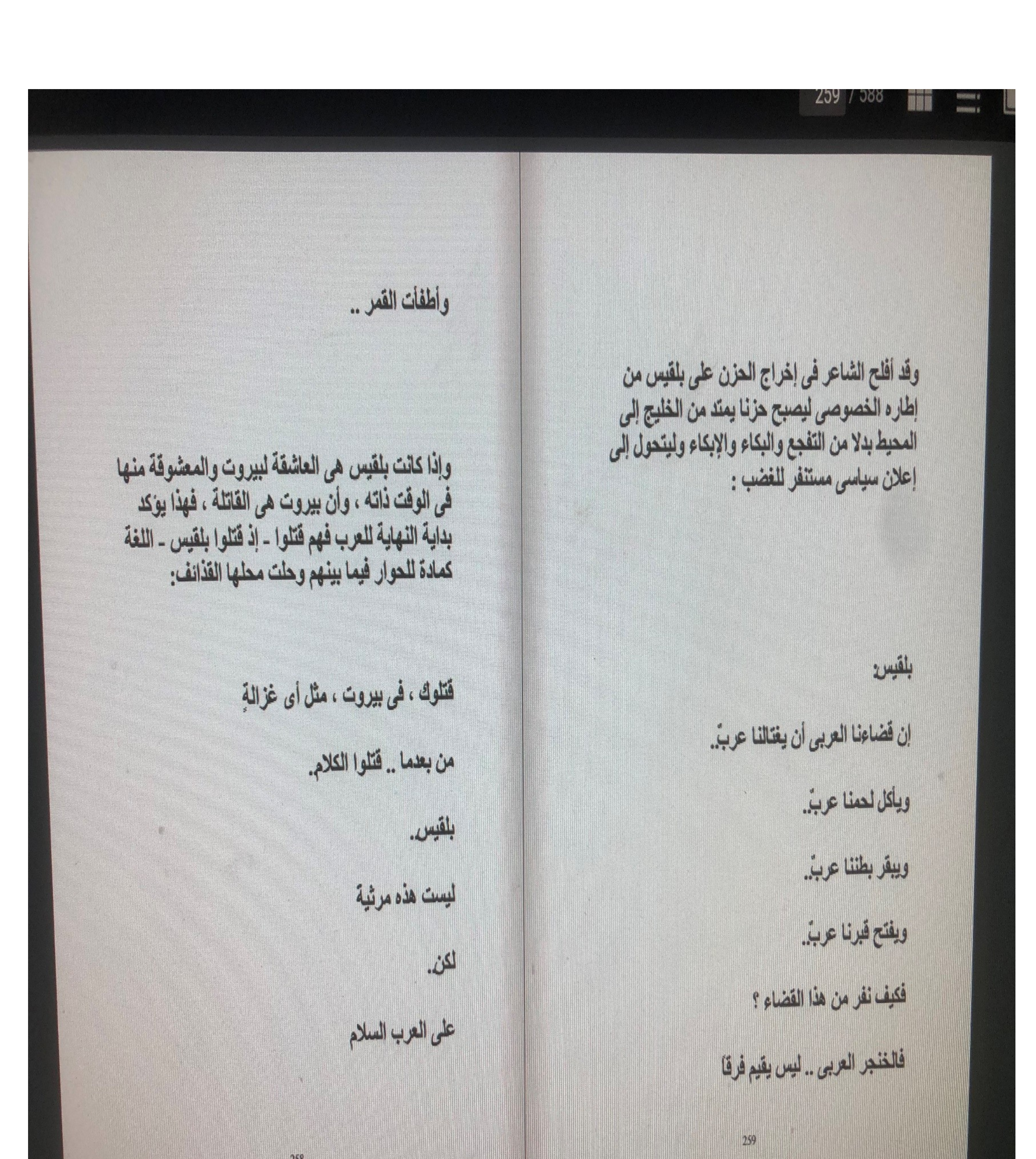
ها نحن .. يا بلقيس.

ندخل مرةً أخرى لعصر الجاهلية..

ها نحن ندخل فى التوحش.

والتخلف .. والبشاعة .. والوضاعة.

ندخل مرةً أخرى .. عصور البربرية.



وأطفأت القمر ..

وإذا كانت بلقيس هى العاشقة لبيروت والمعشوقة منها فى الوقت ذاته ، وأن بيروت هى القاتلة ، فهذا يؤكد بداية النهاية للعرب فهم قتلوا - إذ قتلوا بلقيس - اللغة كمادة للحوار فيما بينهم وحلت محلها القذائف:

قتلوك ، فى بيروت ، مثل أى غزالةٍ

من بعدما .. قتلوا الكلام.

بلقيس.

ليست هذه مرثية

لكن.

على العرب السلام

258

وقد أفلح الشاعر فى إخراج الحزن على بلقيس من إطاره الخصوصى ليصبح حزنا يمتد من الخليج إلى المحيط بدلا من التفجع والبكاء والإبكاء وليتحول إلى إعلان سياسى مستنفر للغضب :

بلقيس:

إن قضاءنا العربى أن يغتالنا عربٌ.

ويأكل لحمنا عربٌ.

ويبقر بطننا عربٌ.

ويفتح قبرنا عربٌ.

فكيف نفر من هذا القضاء ؟

فالخنجر العربى .. ليس يقيم فرقاً

259

بين أعناق الرجال.

وبين أعناق النساء.

بلقيس:

إن هم فجروك .. فعندنا

كل الجنائز تبتدى فى كربلاء.

وتنتهى فى كربلاء ..

ويلوح الشاعر بكربلاء حيث القاتل عربى مسلم والمقتول عربى مسلم أيضا وفى القرن العشرين تتكرر المأساة التاريخية "كربلاء" ، وإذا تطور العالم كله شرقه وغربه ، فنحن ما زلنا بعقلية العشيرة ونعمل بالتكفير وفتاوى سفك الدماء والفتن الطائفية والمذهبية ولذلك فإن الضحايا فى بيروت كلما كثر عددهم دلل على حتمية التغيير ، أو الهلاك :

بلقيس : أيتها الأميرة

ها أنت تحترقين .. فى حرب العشيرة والعشيرة

ماذا سأكتب عن رحيل مليكتى ؟

إن الكلام فضيحتى.

ها نحن نبحث بين أكوام الضحايا.

عن نجمةٍ سقطت.

وعن جسدٍ تناثر كالمرايا.

ها نحن نسأل يا حبيبة..

إن كان هذا القبر قبرك أنت

أم قبر العروبة ..

وأمام هذا التخبط ، وتلك الأحداث الجسام ، نكون قد انفصلنا عن تاريخنا العريق ، فإننا الآن لا ننتمى له إذا كان ذلك التاريخ صحيحا ، وهذا ما جعل الشاعر يتساءل :

فهل البطولة كذبة عربية ؟

أم مثلنا التاريخ كاذب ؟.

وما يحدث فى لبنان من قتل ، وتدمير ، استطاع الشاعر أن يجسده من خلال مقتل بلقيس تجسيدا مذهلا إذ ركز الشاعر على التناقض الحاد الذى يعترينا كعرب ، لدرجة أننا أصبحنا لا ننتمى إلى الإنسانية فى شئ .. والشاعر على حق فى ذلك ، لأن القتل والتدمير بين أبناء الوطن الواحد يعتبران من سمات الأمم المتخلفة :

إن زماننا العربى مختصّ بذبح الياسمين

وبقتل كل الأنبياء.

وقتل كل المرسلين.

حتى العيون الخضر..

يأكلها العرب

حتى الضفائر .. والخواتم

والأساور .. والمرايا .. واللعب.

حتى النجوم تخاف من وطنى.

ولا أدرى السبب..

حتى الطيور تفر من وطنى.

و لا أدرى السبب..

حتى الكواكب .. والمراكب .. والسحب

حتى الدفاتر. والكتب..

وجميع أشياء الجمال.




جميعها .. ضد العرب ..

لما تناثر جسمك الضوئى

يا بلقيس ،

لؤلؤة كريمة

فكرت : هل قتل النساء هواية عربية

أم أننا فى الأصل ، محترفو جريمة ؟

ويقول أيضا :

سأقول في التحقيق:

كيف أميرتى اغتصبت

وكيف تقاسموا فيروز عينيها

وخاتم عرسها..

وأقول كيف تقاسموا الشعر الذي

يجرى كأنهار الذهب..

سأقول في التحقيق:

كيف سطوا على آيات مصحفها الشريف

وأضرموا فيه اللهب..

سأقول كيف استنزفوا دمها..

وكيف استملكوا فمها..

فما تركوا به ورداً .. ولا تركوا عنب

هل موت بلقيس..

هو النصر الوحيد

بكل تاريخ العرب ؟؟...

سأقول فى التحقيق:

إن اللص أصبح يرتدى ثوب المقاتل

وأقول فى التحقيق:

إن القائد الموهوب أصبح كالمقاول.

وأقول:

إن حكاية الإشعاع ، أسخف نكتةٍ قيلت.

فنحن قبيلة بين القبائل

هذا هو التاريخ . . يا بلقيس.

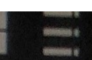
كيف يفرق الإنسان.

ما بين الحدائق والمزابل

أما الملمح الآخر فى شعر نزار فهو "بيروت المقتولة" وهذا الملمح ينقسم بدوره إلى شقين : الشق الأول فيه اغتنام الصهاينة لهذا التناحر فى لبنان واجتياح أراضيه ودخولهم بيروت فى 5 يونيه 1982 م تيمنا بنصرهم الساحق على العرب فى 5 يونيه 1967 م وتم لهم ذلك بسهولة ويسر ، أما الشق الآخر هو مسؤولية العرب أجمعين عن ذبح لبنان ، وتمزيقه .

الشق الأول :

فى ظل الموات العربى - ولا نقول السلبية - واجه الشعب الفلسطينى والشعب اللبنانى - وهما أصغر شعبين من شعوب العرب عددا - أكبر عدو للعرب عدة وقوة وصلفا ولم يتحرك أحد لإنقاذ هذين الشعبين ، مما كان له الأثر المفجع فى نفوس العرب المحكومين ، وجعل شاعرا كبيرا كالدكتور خليل حاوى ينتحر نتيجة



لذلك ، فهى ليست مأساة خليل حاوى وحده ولا الشعراء وحدهم لكنها مأساة أمة بأسرها .

يقول نزار فى قصيدته (آخر عصفور يخرج من غرناطة) :

بيروت أرملة العروبة

والحواجز ،

والطوائف ،

والجريمة، والجنون ..

بيروت تذبح فى سرير زفافها

والناس حول سريرها متفرّجون

بيروت ..

تنزف كالدجاجة فى الطريق ،

فأين فرّ العاشقون ؟

بيروت تبحث عن حقيقتِها ،

وتبحث عن قبيلتها ..

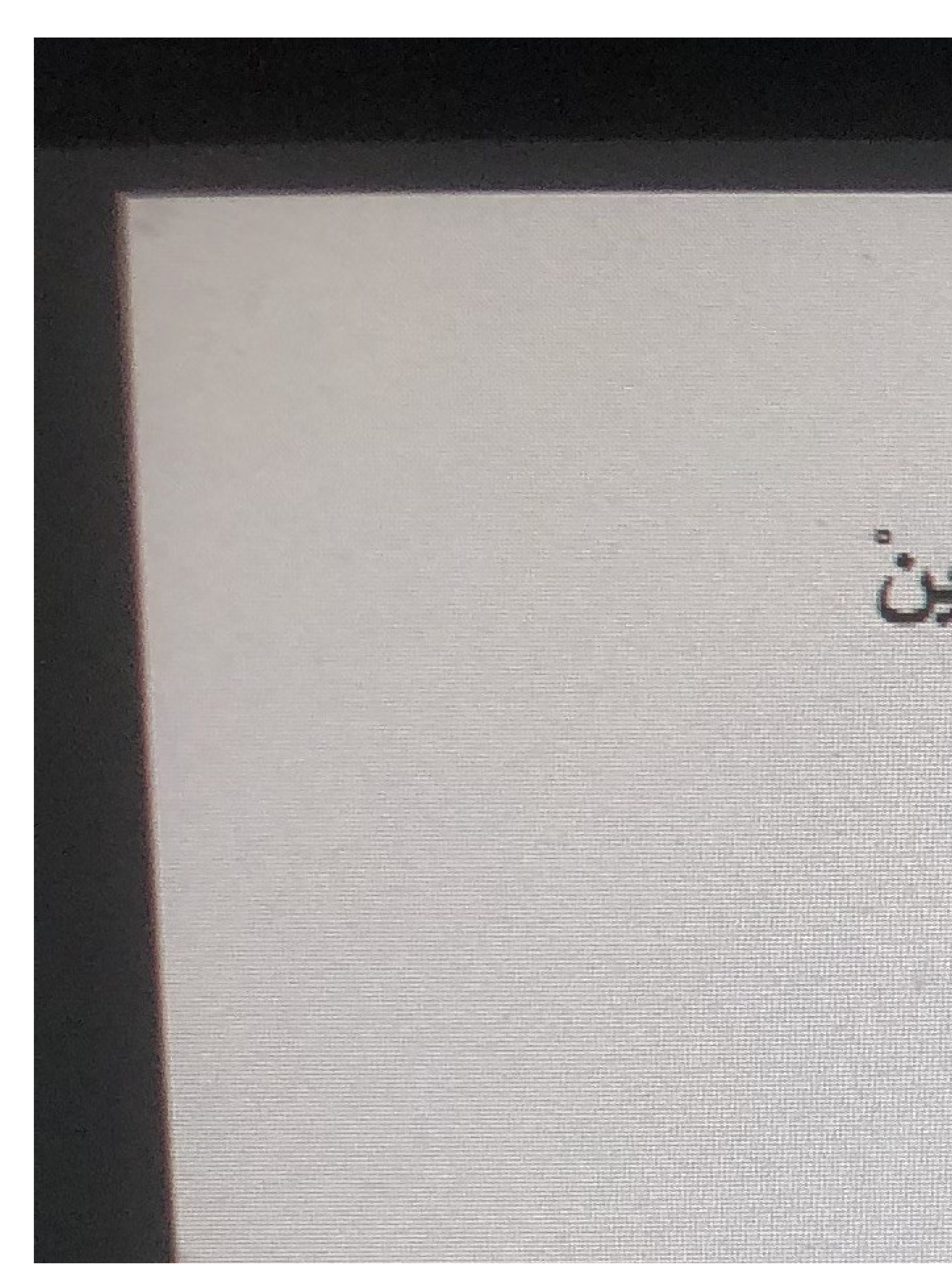
وتبحث عن أقاربها ..

ولكنّ الجميع منافقون.

وفى الوقت الذى أخذت فيه دبابات العدو حرية التجول فى لبنان ، وصوبت نيرانها فى كل بيروت ، وقف العرب بين متناس لهذه المأساة وبين شعارات كلامية لا تنقذ الأطفال والنساء العرب فى بيروت ، وقد نجح نزار فى تصوير ذلك فنيا فى قصيدته (بيروت محظيتكم .. بيروت حبيبتى) :

سامحينا.

إن تركناكِ تموتينَ وحيدة.



وتسلّلنا إلى خارج الغرفةِ نبكى كجنودٍ هاربينْ

سامحينا..

إن رأينا دمكِ الوردىَّ ينسابُ كأنهار العقيقْ

وتفرّجنا على فعل الزنا..

وبقينا ساكتينْ.

آهِ .. كم كُنّا قبيحينَ ، وكُنّا جُبناءْ.

عندما بعناكِ، يا بيروتُ، فى سوق الإماءْ

وحجزنا الشققَ الفخمة فى حيِّ (الإليزيه) وفى (مايفير) لندنْ..

وغسلنا الحزنَ بالخمرةِ، والجنس، وقاعاتِ القِمارْ

وتذكّرنا - على مائدةِ الروليتِ، أخبارَ الديارْ

وافتقدنا زمنَ الدِفلى بلُبنانْ.

وعصرَ الجُلّنارْ.

270

وبكينا مثلما تبكى النساءْ ..

والشاعر يطلب من بيروت السماح والعفو عن العرب وفى ذات الوقت يعترف الشاعر بالقبح الذى علا وجوهنا والجبن الذى تسرب فى أنسجتنا وما نتج عنهما من رخوة و ردة ، والمقابلة بين طلب العفو والإقرار بالذنب صورة جيدة فى الإبداع الفنى ، إذ توحى بالمرارة والألم فى داخل الشاعر وبالتالى داخل كل عربى مخلص ، لأن موت لبنان ما هو إلا موت للعرب كلهم ، كما فى قصيدته (إلى بيروت الأنثى مع الاعتذار) :

إن يَمُتْ لُبنانُ ... مِتُّم مَعَهُ

كُلُّ مَن يَقتُلُهُ ... كَانَ القتيـــلا

كُلُّ قُبح فيه .... قُبحٌ فِيكُمُ

فأعيدُوهُ كَمَا كَانَ جَميــــلا

271

.. من الجنوب .. وفر لحد الخائن وجيشه إلى إسرائيل ..

يقول نزار فى قصيدته (السيمفونية الجنوبية الخامسة) :

سَمَّيْتُكَ الجنوب

يا لابساً عباءة الحسين

وشمسَ كربلاء

يا شجرَ الوردِ الذى يحترفُ الفداء

يا ثورة الأرض التقت بثورةِ السماء

يا جسداً يطلعُ من ترابهِ

قمحٌ وأنبياء

إنَّ كَوناً ليسَ لُبنانُ فِيـهِ

سَوفَ يَبقى عَدَماً أو مُستَحِيلاً

كُلُّ مَا يَطلُبُهُ لُبنَانُ مِنكُم

أن تُحِبُوهُ .... تُحِبُوهُ قَلِيلاً

وأثناء تلك الظروف الصعبة تستطيع القوى الصهيونية تجنيد جيش لبنانى يحارب لصالحها فى جنوب لبنان بقيادة العميل سعد حداد ومن بعده أنطوان لحد إذ تنكرا للعروبة والعرب ، ومما يزيد الأمر سوءا قيام مجموعة من الشعراء ، بالدعوة إلى الجيش العميل والانسلاخ من الجسد العربى ، وفى ظل هذه الغياهب وقف الجنوب اللبنانى فى وجه كل هذه العوامل والقوى ، يعلن عروبته كل يوم بل جعل بقاء الصهاينة فيه مستحيلا ، وكذلك الجيش العميل التابع لهم ، مما جعل الشاعر يفرد لجنوب لبنان قصائد طويلة . لقد أدرك نزار ببصيرته واستشرافه أن المقاومة الجنوبية سوف يكون لها شأن آخر .. ولم يعش حتى يرى النصر المؤزر للسيد حسن نصر الله ، زعيم حزب الله ، فى عام 2000 م حين انسحب الصهاينة من آخر بقعة من أرض لبنان

النتيجة فهذه هى البطولة والفداء وانتصار الدم على السيف إنه الدم الذى قوض أركان بنى أمية ، وإذا كان الجنوب اللبنانى ارتدى عباءة الحسين ، فإن العرب كل العرب خذلوه كما خـُذِل الحسين لكن الجنوب أعطانا ـ نحن العرب ـ درسا فى البطولة الفردية فلولا هذه البطولات النادرة ، لم ينسحب جيش الصهاينة من لبنان أبدا ، عندما شعر بفداحة الخسارة فآثر السلامة :

سميتك الجنوب

يا أيها الطالع مثل العشب فى دفاتر الأيام

يا أيها المسافر القديم فوق الشوك و الآلام

يا أيها المضئ كالنجمة ، و الساطع كالحسام

لولاك ما زلنا على عبادة الأصنام

لولاك كنا نتعاطى علنا

حشيشة الأحلام

اسمح لنا بأن نبوس السيف فى يديك

اسمح لنا..

بأن نبوس السيف فى يديك

اسمح لنا..

أن نعبد الله الذى يطل من عينيك

يا أيها المغسول فى دمائه كالوردة الجورية.

أنت الذى أعطيتنا شهادة الميلاد

ووردة الحرية ..

والشاعر فيما سبق استخدم "كربلاء" رمزا للتناحر والصراع وهنا يستخدمها رمزا للبطولة والفداء ، فنعم الرمز العظيم هى رمز الصمود والثورة والثبات على الحق والبسالة الحسينية بسالة آل بيت النبى ، إذ تبدو كربلاء هكذا فمن ناحية المعركة بين الحسين رضى الله عنه وجيش يزيد بن معاوية ، تعتبر تناحرا ، أما من ناحية خوض الحسين نفسه المعركة وهو يعرف

اسمح لنا أن نجمع الغبار عن نعليك

لو لم تجئ يا سيدى الإمام

كنا أمام القائد العبرى

مذبوحين كالأغنام .

وبذلك أثبت الجنوب اللبنانى أنه مصدر الخصب فى أعوام الجدب والخراب :

يا سيد الأمطار و المواسم

يا ثورة شعبية تحمل فى أحشائها التوائم

سميتك الحب الذى يسكن في الخواتم

سميتك العطر الذى يسكن فى البراعم

سميتك السنونو

سميتك الحمائم

يا سيد الأسياد ، يا ملحمة الملاحم .

ولم يترك الشاعر العرب الذين تركوا الجنوب وحده يتحمل قدره ، فى وجه قوة عسكرية مجهزة بأحدث الأسلحة ، وتتمتع بقدر كبير من البطش والإرهاب واللاإنسانية :

سيذكر التاريخ يوما قرية صغيرة

بين قرى الجنوب ،

تدعى (معركة)

قد دافعت بصدرها

عن شرف الأرض، وعن كرامة العروبة

وحولها قبائل جبانة

و أمة مفككة ...

والشاعر يلجأ إلى الحوار مع البطل (الجنوب) ويحذره أن يرتد إلى ما يسمى بالعرب ، فإنهم غير موجودين ، وليست لهم هوية ، فقد اندثر العرب من زمن بعيد ، رضوا لأنفسهم أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وقبلوا المهانة وهم غير عرب الأمس الذين سطروا بشجاعتهم سجلا مشرفا :

يا أيها السيف الذى يلمع بين التبغ و القصب

يا أيها المهر الذى يصهل فى برية الغضب

إياك أن تقرأ حرف من كتابات العرب

فحربهم إشاعة..

وسيفهم خشب

وعشقهم خيانة

ووعدهم كذب

إياك أن تسمع حرفا من خطابات العرب

فكلها نحو .. وصرف .. و أدب

و كلها أضغاث أحلام ، ووصلات طرب

لا تستغث بمازن ، أو وائل ، أو تغلب.

فليس فى معجم الأقوام ،

قوم اسمهم عرب ! ! ..

فلم يبق من العرب سوى الجنوب فقط فهو عربى بالاسم والحقيقة ، بالهوية والسلوك ، بالسيف واللسان فى زمن عز فيه للعروبة تواجد ثورى أو فدائى ، أو فكرى :

يا سيدى : يا سيد الأحرار:

لم يبق إلا أنت.

في زمن السقوط و الدمار

في زمن التراجع الثورى

و التراجع القومى

و التراجع الفكرى

و اللصوص و التجار

في زمن الفرار

الكلمات أصبحت يا سيدى الجنوب ،

للبيع و الإيجار

و المفردات تشتغل راقصات

في بلاط النفط .. و الدولار.

لم يبق إلا أنت

تسير فوق الشوك و الزجاج

و الإخوة الكرام

نائمون فوق البيض ، كالدجاج

و في زمن الحرب ، يهربون كالدجاج

يا سيدى الجنوب:

فى مدن الملح الذى يسكنها الطاعون و الغبار

فى مدن الموت التى تخاف أن تزورها الأمطار



لم يبق إلا أنت

تزرع فى حياتنا النخيل ، و الأعناب ، و الأقمار

لم يبق إلا أنت .. إلا أنت .. إلا أنت

فافتح لنا بوابة النهار ...

الشق الآخر :

وهو مسؤولية العرب عن هذه المذبحة الدموية فى لبنان سواء قبل الغزو الصهيونى لها أو خلاله أو بعده ، فالعصبيات التى نشأت فى لبنان كانت أشد من عصبيات الجاهلية أثرا ودمارا وقد ساعد على ظهور بعض هذه العصبيات بعض القوى العربية (مثل مصر والسعودية اللتين دعمتا المسيحيين أولا ضد المسلمين ثم دعمتا المسلمين السنة ضد المسلمين الشيعة وذلك إلى اليوم) بالإضافة إلى المفجر الأساسى لهذه الفتنة

وهم اليهود فهذا دورهم على مر التاريخ وليس بجديد عليهم ، كما فى قصيدته (بيروت محظيتكم .. بيروت حبيبتى) :

آهِ .. يا بيروتُ ،

يا صاحبة القلبِ الذهبْ

سامحينا..

إن جعلناكِ وقوداً وحَطبْ

للخلافاتِ التى تنهشُ من لحم العربْ

منذُ أن كانَ العربْ

وهنا تتجلى براعة الشاعر فى بناء الصورة المركبة- التى أبدع نزار قبانى فيها ، ولا تدانيه فى ذلك إلا قلة من الشعراء المعاصرين - على النحو التالى :

يجسد الشاعر بيروت فى صورة أنثى تتميز بصفاء القلب والعرب يقومون بتحويل تلك الأنثى المتميزة بصفاء القلب إلى وقود وحطب ويجسد الشاعر الخلافات بين العرب فى صورة النار المستعرة التى تأكل الوقود والحطب (بيروت) .

ويشخص الشاعر - الخلافات - النار فى صورة وحش له قدرة النهش المستمر - دلالة ذلك التعبير بالفعل المضارع تنهش - من لحم العرب .

ويطلب السماح والعفو من هذه الأنثى (بيروت) وتتميز هذه الصورة الكلية المركبة - وغيرها عند نزار - بسهولة الألفاظ وروعة البناء الفنى ، فالشاعر يعترف بجمالها ويعترف بما آلت إليه ، ويقر بالجريمة ، ثم يطلب العفو ، ولنزار من هذه الصور المركبة الكثير ، يقول فى قصيدته (يا ست الدنيا يا بيروت) :

يا ست الدنيا يا بيروت...

من باعَ أساوركِ المشغولة بالياقوتْ ؟

من صادر خاتمكِ السحريَّ

وقصَّ ضفائرك الذهبية ؟

من ذبح الفرح النائم فى عينيك الخضراوين ؟

من شطب وجهكِ بالسكّين،

وألقى ماء النار على شفتيك الرائعتين ؟

من سمم ماء البحر، ورشَّ الحقد على الشطآن الوردية ؟

ها نحن أتينا .. معتذرين .. ومعترفين

أنا أطلقنا النار عليك بروح قبليّة ..

فقتلنا امرأةً .. كانت تدعى (الحرية) ...

وهذه الصورة المركبة تفوق الصورة السابقة من حيث البناء الفنى واختلاط المحسوس ، والمعنوى على النحو التالى :

بيروت أنثى جميلة

بالقتل والتعذيب ، ومن يفعل ذلك ليس محترف جريمة فحسب ، ولكنه أيضا لا يعرف عن معنى الإنسانية شيئا وهنا ـ نسأل هل الشاعر بالغ فى هذه الصورة ؟ أم أنها أتت نتيجة معاناة حقيقية من التردى العربى ؟

إن الشاعر محق فيما ذهب إليه ـ على ما يبدو ـ لا سيما أن الجريمة عربية ، ففى الوقت الذى استقبلوا العدو بالأحضان والنشيد الوطنى ورفع الأعلام الصهيونية ، مارسوا جريمتهم فى حق أنفسهم وهذا ما جعل الشاعر يقول فى حسرة فى قصيدته (مرسوم بإقالة خالد بن الوليد) :

ثم هل جاء زمان ؟

فيه نستقبل إسرائيل بالورد وآلاف الحمائم

و النشيد الوطنى

لم أعد أفهم شيئاً يا بنى

لم أعد أفهم شيئاً يا بنى

لم أعد أفهم شيئاً يا بنى ..

لها أساور مشغولة بالياقوت وخاتم سحرى وضفائر ذهبية وعينان خضراوان فيهما فرح دائم مستمر .

وجود مجهول باع الأساور وصادر الخاتم السحرى وقص الضفائر الذهبية وذبح الفرح النائم فى عينيها ثم شطب وجهها بالسكين وألقى ماء النار على هذا الوجه الجميل .

يعود الشاعر للكلام عن (لبنان) الطبيعة ويقرر أن ذلك المجهول سمم مياه البحر ، وأخذ يرش الحقد على شاطئيه الجميلين .

ذلك المجهول هو (العرب) باعتراف الشاعر أنهم أطلقوا النار عليها بروح التعصب القبلى الجاهلى- السعودية ودول الخليج تحمل حقدا دفينا على حرية وحضارة وثقافة الشام كله من العراق إلى سوريا إلى لبنان وفلسطين والى مصر ودول المغرب العربى .. لذلك صدرت إليهم الوهابية والتكفير والفتن والقلاقل- .

العرب لم يغتالوا لبنان لكنهم اغتالوا الحرية ، ونتاج ذلك أن ما قام به العرب تجاه بيروت يعتبر من أفظع أنواع الجرائم ، وهى (الحرابة) أى السرقة المصحوبة



ثم يأتى الشاعر بعد ذلك بكل قساوة ، وفـجْر العرب تجاه بيروت فى بيروت فى صورة كلية مجسدة ، يقول فى قصيدته (يا ست الدنيا يا بيروت) :

نعترف الآن.. بأنّا كُنا يا بيروت،

نحبُكِ كالبدو الرحَّل..

ونمارس فِعل الحبِّ.. تماماً

كالبدو الرحّل...

نعترف الآن .. بأنكِ كنتِ خليلتنا

نأوى لفراشكِ طول الليل ...

وعند الفجر، نهاجر كالبدو الرحَّل

نعترف الآن .. بأنّا كنّا أميين ..

وكنّا نجهل ما نفعل ..

نعترف الآن، بأنّا كنّا من بين القتلة ..

ورأينا رأسك ..

يسقط تحت صخور الروشةِ كالعصفور

نعترف الآن ..

بأنّا كنّا - ساعة نُفّذ فيكِ الحكم -

شهود الزور ..

نعترف أمام الله الواحد ..

أنّا كنّا منكِ نغار ..

وكان جمالكِ يؤذينا ..

نعترف الآن ..

بأنّا لم ننصفكِ .. ولم نعذركِ .. ولم نفهمكِ ..

وأهديناكِ مكان الوردةِ سكّينا ...

نعترف أمام الله العادل ...

أنّا راودناكِ ..

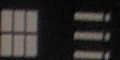
وعاشرناكِ ..

وضاجعناكِ ..

وحمّلناكِ معاصينا ..

يا ستَّ الدنيا، إنّ الدنيا بعدكِ ليست تكفينا ..

الآن عرفنا .. أنّ جذوركِ ضاربةٌ فينا ..



الآن عرفنا .. ماذا اقترفت أيدينا ..

والشاعر يكرر "نعترف الآن" خمس مرات ، و "الآن عرفنا" مرتين ، لإبراز قيمة ذلك الاعتراف وهو إصلاح الجريمة كما يأمل الشاعر ، وقد جعل الاعتراف أمام الله مرتين إذ لا مهرب من اللجوء إليه لا سيما فى الاختلافات المذهبية التى اشتعلت بيروت بسببها وهو يقرن لفظ الجلالة بالعدل مرة ، وبالوحدانية مرة أخرى وكأن الشاعر يستخدم هذا الأسلوب لتوبيخ العرب فهم يعترفون بأن الله واحد ، ويتقاتلون على أشياء جانبية ، ويعترفون بأن الله عدل محض ويمارسون الظلم والقتل والسفك ثم إن الشاعر فى حالة اللجوء إلى الله يعطينا إحساسه بأنه يئس من الأرض وما عليها من بشر ولم يكن أمامه هذه المرة إلا السماء فهى التى لم يعلن الشاعر بعد كفره بها ، فهى ما زالت أمله المنشود وحلمه الوردى لإعادة العرب - كل العرب - إلى سالف مجدهم .

الشاعر ومأساة لبنان :

لنزار رؤية خاصة وفريدة تجاه لبنان فهى موطنه المختار بعد أن يئس من الدول العربية ويئست هى منه ومن ثم أخذت لبنان لديه ملمح المعشوقة على طريقة شعره الغزلى الأول ، ولا نستطيع أن نبعد لبنان بالنسبة للشاعر عن هذا المفهوم ، يقول نزار فى ذلك فى كتابه (ما هو الشعر ؟) :

" فيما يتعلق بعشقى لبيروت ، أنا لم أتعود فى حالات الحب الكبير ، أن أطلب من حبيباتى شهادة حسن سلوك مصدقة من مختار الحارة .. ولا أسأل إذا كانت المرأة التى أحبها مليونيرة .. أم على الحصيرة .. عاقلة أم مجنونة .. مسلمة أم نصرانية .. خريجة (المقاصد) أم خريجة (الليسيه) .. عذراء أم لها تجارب جنسية .. تحب الشعر العربى ، أم تحب الشعر الفرنسى .. تطرب لأم كلثوم ، أم تطرب لخوليو إيغليزيا .. ".

والمختار تقابل العمدة فى القرية المصرية ، أو شيخ الحارة فى المدينة وهى كذلك فى لهجة الشام والعراق .



ويقول فى قصيدته (يا ست الدنيا يا بيروت) :

ما زلت أحبك يا بيروت المجنونة

يا حقل دماءٍ وجواهر..

ما زلت أحبك يا بيروت القلب الطيب ، يا بيروت الفوضى.

يا بيروت الجوع الكافر ، والشبع الكافر..

ما زلت أحبك يا بيروت العدل ، ويا بيروت الظلم ،

ويا بيروت القاتل والشاعر ...

ما زلت أحبك يا بيروت العشق ..

ويا بيروت الذبح من الشريان إلى الشريان ..

ما زلت أحبك رغم حماقات الإنسان ما زلت أحبك يا بيروت ..

لماذا لا نبتدئ الآن ؟؟

وعندما اشتد لهيب الحرب الأهلية ، تركها الشاعر إلى القاهرة لمدة عامين . وفى هذه الأثناء وقعت مصر معاهدة كامب ديفيد والتى خرج على أثرها الشاعر من مصر إلى بيروت ، لكن عند عودته إلى بيروت معشوقته ، رآها غير بيروت التى تركها ، ورغم ذلك ، رغم الدمار الذى لحقها يرسم صورة المأساة المختلطة بالحب والأمل :

اللهُ .. يفتّشُ فى خارطةِ الجنّةِ عن لُبنانْ

والبحرُ يفتّشُ فى دفترهِ الأزرق عن لُبنانْ

والقمرُ الأخضَر.

عادَ أخيراً كى يتزوّجَ من لُبنانْ.

أعطينى كفكِ يا جوهرةَ الليل، وزنبقةَ البلدانْ



والشاعر أمام معشوقته بيروت يقدم دفاعه عن نفسه ويبرر سبب هجره لها ، ثم يبرز لنا ما يدور على الساحة اللبنانية وعن وجهة نظره هو فيما يحدث .
يقول فى قصيدته (بيروت محظيتكم .. بيروت حبيبتى) :

اصفحى ، سيّدتى بيروتُ ، عنّا

نحنُ لم نهجركِ مختارينَ .. لكنّا قرفنا..

من مراحيض السّياسة..

ومللنا..

من ملوكِ السّيركِ .. والسيركِ .. وغشّ اللاعبينْ

وكفرنا..

بالدكاكين التي تملأ أرجاءَ المدينة..

وتبيعُ الناسَ حقداً وضغينة..

وبطاطينَ .. وسجاداً .. وبنزيناً مهربْ..

آهِ يا سيّدتى كم نتعذّبْ..

عندما نقرأ أنّ الشّمس فى بيروتَ، صارتْ

كُرةً فى أرجل المرتزقينْ ...

وهذه الفقرة من شعر نزار حافلة بالرمز الإيحائى :

فالسيرك : هو لبنان .

وملوك السيرك : زعماء الطوائف والميليشيات .

واللاعبون : هم أفراد هذه الطوائف والميليشيات .

والدكاكين : هى مكاتب الميليشيات فى كل أرجاء لبنان .

والبنزين : هو رمز الفتنة .

وتبرز البراعة الفنية للشاعر فى وصف الحياة السياسية العربية بأنها "مراحيض" وما توحيه من قذارة كما أن الشاعر يرمز بالبنزين - وهو مادة اشتعال - إلى الفتنة إذ هو المادة المحركة لها وقد سبق القرآن الكريم الشاعر فى ذلك فقال تعالى فى سورة المسد الآية 3 : "وامرأته حمالة الحطب" ، إشارة إلى ما كانت تقوم به أم جميل زوجة أبى لهب من فتنة لإشعال الحروب بين الناس فالحطب هو المادة المشتعلة ، التى بوجودها تستمر النار ، وكذلك البنزين الذى أتى به الشاعر غير أنه ليس بنزينا محليا بل استوردته المدينة من الخارج ، وكذلك آية 25 من سورة الأنفال "واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب" ، وتشبيه القرآن للحرب بالنار (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) .

وفى : (آه يا سيدتى كم نتعذب .. عندما نقرأ أن الشمس فى بيروت صارت كرة فى أرجل المرتزقين) .. عندما تصبح الشمس مصدر الإشعاع الضوئى والحضارى كرة فى أرجل المرتزقين ، تكون هذه صورة جميلة ولو أن الشاعر عبر عنها بالرؤية بدلا من القراءة فحسب لكانت أبلغ ولكنه اختار الصدق مع المتلقى . ويوالى الشاعر تقديم دفاعه أمام معشوقته :

طلبوا منّا بأن ندخلَ فى مدرسةِ القتل.

ولكنّا رفضنا.

طلبوا أن نشطرَ الربَّ لنصفين.

ولكنّا اختجلنا.

إننا نؤمنُ بالله.

لماذا جعلوا اللهَ هنا .. من غير معنى ؟

طلبوا منّا بأن نشهدَ ضدَّ الحبِّ.

لكنْ ما شهدنا..

طلبوا منّا .. بأن نشتمَ بيروتَ التى قمحاً .. وحبّاً

وحناناً .. أطعمَتْنا..

طلبوا.

أن نقطعَ الثدىَ الذى من خيره، نحنُ رضِعنا.

فاعتذرنا..

ووقفنا ضدَّ كلِّ القاتلينْ

وبقينا مع لُبنانَ سهولاً .. وجبالا..

وبقينا مع لُبنانَ جنوباً .. وشمالا..

وبقينا مع لُبنانَ صليباً .. وهلالا..

وبقينا مع لُبنانَ الينابيع.

ولُبنانَ العناقيد.

ولُبنان الصبابة.

وبقينا مع لُبنانَ الذى علمنا الشعرَ.

وأهدانا الكتابة

فالشاعر يرفض القتل ، وتبرز فنية الشاعر فى تعبيره عن ذلك بقوله "مدرسة القتل" وكأن لبنان ألغت كل العلوم التى تدرس فى مدارسها واستبدلت هذه العلوم بفنون القنص والاغتيال ، ويأتى الشاعر أيضا بعبارة "نشطر الرب" ليبين مدى الانحلال الدينى والأخلاقى الذى يدعو إلى تناحر هذه الطوائف من جهة ، ومدى أهمية لبنان الموحدة "شيعة وسنة ودروزا" هلالا وصليبا" ، و "جنوبا وشمالا" وهذه وجهة نظر الشاعر .

وبالرغم من الدمار الذى لحق لبنان فإن الشاعر يظهر سعادته للعودة إلى هذه الديار ، فى قصيدته (سبع رسائل ضائعة فى بريد بيروت) :

يا حبيبة:

بعد عامين طويلين من الغربة والنفى.

تذكَّرتكِ فى هذا المساء.

كنت مجنوناً بعينيكِ..

ومجنوناً بأوراقى.

ومجنونا لأنَّ الحبَّ جاء.

ولأنَّ الشعر جاء.

لكن الشاعر يفيق على الواقع المؤلم والدمار الذى لحق محبوبته (بيروت) والذى لا يمكن أن يتجاهله ، فى قصيدته (يا ست الدنيا يا بيروت) :

ماذا نتكلَّمُ يا بيروتْ..

وفي عينيكِ خلاصةُ حزن البشرية

وعلى نهديكِ المحترقين .. رمادُ الحربِ الأهلية

ماذا نتكلَّمُ يا مروحة الصَّيفِ، ويا وردتُهُ الجوريّة ؟

من كانَ يفكِّر أن نتلاقى - يا بيروتُ - وأنتِ خرابْ ؟

من كانَ يفكِّر أن تنمو للوردةِ الآفُ الأنيابْ ؟

من كانَ يفكِّر أنَّ العينَ تقاتلُ فى يومٍ ضدَّ الأهدابْ ؟

ماذا نتكلّم يا لؤلؤتى ؟

يا سنبلتى.

يا أقلامى.

يا أحلامى.

يا أوراقى الشعرية..

من أينَ أتتكِ القسوةُ يا بيروتْ ،

وكنتِ برقّةِ حوريّة ؟

لا أفهمُ كيف انقلبَ العصفورُ الدورىُّ..

لقطةِ ليلٍ وحشيّةٍ..

لا أفهمُ أبداً يا بيروتْ

لا أفهمُ كيف نسيتِ اللهَ.

وعُدتِ لعصر الوثنية ..

ويقول أيضا فى قصيدته (سبع رسائل ضائعة فى بريد بيروت) :

يا صديقة:

عائدٌ من زمن اللاشعر .. عارى القدمين

عائدٌ دون شفاهٍ.

عائدٌ دون يدين.

إنَّ حرب السنتين

كسرتنى.

كسرتْ سنبلة القمح التى تنبتُ بين الشفتين.

جعلتنى عاطلاً عن عمل الحبِّ..

فلم أقرأ مزاميرى لعينيكِ..

ولا قبلتُ عصفوراً غريباً..

أو قصيدة..

أفقدتنى ذلك الطهر الطفولىَّ الذى يدخلنى مملكة الله

ويعطينى مفاتيح اللغات النادرة.

فاعذرينى .. إن تأخرّت عن الوعد قليلا.

فلقد كان وصولى مستحيلا.

وبريدى مستحيلا.

إنَّ آلاف الحواجز

وقفت ما بين عينيكِ .. وبينى.

أطلقوا النار على الحُلم فأردوه قتيلا.

أطلقوا النار على الحبّ فأردوه قتيلا.

أطلقوا النار على البحر، على الشمس، على الزرع،

على كُتُب الأطفال، قصّوا شعر بيروت الطويل.

سرقوا العمر الجميلا ..

وإذا كانت معالم بيروت قد تغيرت كثيرا فى فترة غياب الشاعر فإن الشاعر - كما قلنا - يجد بيروت معشوقته الأولى على الأرض ، ولا يقبل معشوقة سواها ، ونحن نلحظ أن الشاعر فى شعره الغزلى كان يشعرنا أنه أحب آلاف النساء ، لكن أمام لبنان يقرر توبته عن عشق أى شئ سواها ، فى قصيدته (سبع رسائل ضائعة فى بريد بيروت) :

آه يا بيروت .. يا أنثاى من بين ملايين النساءِ

يا رحيلاً برتقالياً على وردٍ.. وبرقوقٍ.. وماءِ

يا طموحى - عندما أكتب أشعارى - لتقريب السماء

أيّ أخبارٍ تريدين عن الحبّ .. وعنى.

ومكاتيبى رمادٌ.

وأحاسيسى رماد ..

ثم تطغى الآثار الوحشيةَ المدمرة لبيروت عليه فيقول :

أين بيروتُ التى تختال بالقُبّعة الزرقاء مثل الملكة ؟

أين بيروت التى كانت على أوراقنا.

ترقص مثل السمكة.



نبحوها..

نبحوها..

وهي تستقبل ضوء الفجر مثل الياسمينة..

من هو الرابح من قتل مدينة ؟

ضّعوا بيروت، يا سيّدتى

ضيّعوا أنفسهم إذ ضيّعوها

سقطت كالخاتم السحرى فى الماء .. ولم يلتقطوها.

طاردوها مثل عصفور ربيعى إلى أن قتلوها..

هذه الورديَّةُ الجسم التى تلبس فى معصمها البحر سوارا

كم قطفنا البُنّ من أشجار نهديها.

وحوّلنا جبال الثلج نارا..

واكتشفناها رصيفاً .. فرصيفا.

وبنيناها جداراً فجدارا..

كم دخلنا بيتّها البحرىَّ أطفالاً صغارا..

فلعبنا .. ورقصنا..

وخرجنا نحمل الشمس بأيدينا..

وأسماكاً .. وخبزاً .. ومحارا..

فلماذا قتلوها ؟

هذه الأنثى التى كانت ترشُّ الماء .. فى وجه الصحارى ؟

وقد اتهم نزار بأنه يتعامل مع بيروت تعامل البرجوازى وأنه لا يتحدث إلا عن لبنان المبنى والأماكن الجميلة دون أى التفاتة إلى الإنسان الذى كان عذابه وألمه وفقره بعض أسباب ما حدث ، ويرد نزار على هذا الاتهام قائلا فى كتابه (ما هو الشعر ؟) :

" كفى حديثاً عن (بورجوازيتنا) ... فأنتم البورجوازيون بالفعل والممارسة .. أما نحن فبورجوازيون بالإشاعة فقط.

إن ثلاثة أرباع الويسكى المسروقة في الحرب اللبنانية شربها (الثوار) .. وثلاثة أرباع الخبز التى كانت تخرج من المخابز أكلها الثوار.

أما الفقراء الذين تدافعون عن حزنهم ومعاناتهم وانسحاقهم ، فلم يدخل عليهم أحدٌ خلال السنوات العجاف برغيف خبز .. ولم يتذكرهم أحدٌ بقنينة ويسكى ، ليغسلوا أحزانهم ، لأن الويسكى هو مشروب المنظرين والقادة . أما الفقير فلا يموت إلا صاحياً.

نرجو أن تعفونا من نصائحكم ومواعظكم .. فهذه اسطوانة حفظناها عن ظهر قلب..

إذا كان الحديث عن منقوشة الزعتر (ثمنها 50 قرشاً) وعن الكورنيش .. والأولاد الذين يبيعون عقود الياسمين ، وأوراق اليانصيب ، والعلكة .. هو فى تصوركم بورجوازية .. فما أعدل بورجوازيتنا .."

ويقول فى قصيدته(بيروت محظيتكم .. بيروت حبيبتى) :

ورجعنا.

كطيورِ البحر، مذبوحينَ شوقاً وحنينا

وبنا شوقٌ إلى (منقوشةِ الزّعتر) .. واللّيلْ.

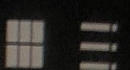
ومَن كانوا يبيعونَ عقودَ الياسمينْ

فمنَ الجائز ، يا بيروتُ ، أن لا تعرفينا.

قد تغيّرتِ كثيرا.

وتغيّرنا كثيرا.

وكبرنا نحنُ - فى عامين - آلافَ السنينْ



أما عن حديثه عن المبانى والديار فيقول فى كتابه (ما هو الشعر ؟) :

" لم أكن عاشق حجر وكونكريت .. ولم أكن أبحث عن البنايات ولكن عن البشر الذين سقطت البنايات على رؤوسهم

إن (الخيمة) فى الشعر العربى لا تعنى نسيجاً من الوبر والصوف ، وإنما كانت تعنى الإنسان الذى يجلس تحت الخيمة ، كانت تعنيِ نسيجاً من اللحم والدم والذكريات المشتركة بين الشاعر والأشياء ..."

ويدلل على كلامه بقول الشاعر القديم مجنون ليلى قيس بن الملوح :

وما حب الديار شغفن قلبى

ولكن حب من سكن الديارا .....

فالمعمار البديع رمز لصانعه الإنسان اللبنانى ، وجمال الطبيعة رمز لموقعه من الكوكب أى لبنان كلها فهى جنة الله على الأرض .. وعندما يحب المرء بلدا يحب كل ما فيه ومن فيه ليعزز فى قلبه الحب ويزيده قوة وعمقا ويبرر له ليس فقط بجمال محبوبه بل بجمال كل ما يتعلق بمحبوبه أيضا .. ولقد تعامل نزار مع بيروت كأنثى ومعشوقة ، وأماكن لهو ومرح ، وبحر ، وشمس ، وجبال ، وأنهار ، وأشجار ، وتغلل فى المأساة ، وقام بالرصد الخارجى الذى يدلل على عشق الشاعر للجمال الذى ضاع ، وهو يرسل فى ذلك صيحة سياحية ومعمارية وشعرية .

يقول نزار فى قصيدته (بيروت محظيتكم .. بيروت حبيبتى) :

طمئنينى عنكِ..

يا صاحبة الوجهِ الحزينْ

كيفَ حالُ البحر ؟

هل هم قتلوهُ برصاص القنص مثلَ الآخرينْ ؟

كيفَ حالُ الحبِّ ؟

هل أصبحَ أيضاً لاجئاً.

بين ألوفِ اللاجئينْ ؟

كيفَ حالُ الشعر ؟

هل بعدكِ - يا بيروتُ - من شعرٍ يُغنّى ؟

ذبَحَتنا هذهِ الحربُ التى من غير معنى.

أفرغتْنا من معانينا تماماً.

بعثرتْنا فى أقاصى الأرضْ.

منبوذينَ.

مسحوقينَ.

مَرضى.

مُتعبينْ.

جعلتْ منّا - خلافاً للنبوءاتِ.

يهوداً تائهينْ ...

يقول نزار فى كتابه (ما هو الشعر ؟) :

"يلاحظ فى مجموعتك الشعرية (إلى بيروت الأنثى مع حبى) نظرة سياحية تفتعل الحياد .. وتضع القاتل والمقتول .. الجانى والمجنى عليه .. فى سلة واحدة.

- هناك مقتولٌ واحد .. ومجنى عليه واحد .. هو بيروت.

وأنا لستُ مدعياً عاماً ، ولا وكيل نيابة ، لأنظم ملفاً بالجريمة . إننى شاعرٌ رأى مدينة تسبى .. وتحرق .. وتذبح بشكل عبثى ومجانى وغوغائى .. فصرخ بطريقته الخاصة.

الصراخ لا جنسية له..

لا يمكن أن يكون الصراخ يمينياً ، ولا يسارياً ، ولا ليبرالياً ، ولا ماركسياً ، ولا أميركياً ، ولا روسياً ...



وكذلك الدموع ، فهى لا تدخل فى لعبة الأمم

فالإنسان صرخ قبل أن تكون الأحزاب والتنظيمات والميلشيات .. وسيظل يصرخ دائماً أمام البربرية والوحشية والبشاعة.

الرؤوس المقطوعة ليست تفاحاً نصنفه إلى (غولدن) و(ستاركن) . والدم الذى سال ، ليس قابلاً للتصنيف إلى نخب أول .. ونخبٍ ثانٍ .. ونخبٍ عاشر..

فلا تطلبي مني يا سيدتى تصنيف دموعى .. لأننى لا أؤمن بدموع تهطل فى المصيطبة وبرج أبى حيدر .. ولا تهطل فى الجميزة والأشرفية.

قد أكون سائحاً كما تقولين .. ولكن تجربة الحرب أثبتت أن (السياح) أمثالنا ، كانوا أشد وفاءً للبنان . وأكثر تعلقاً به من بعض من يحملون هويته . إننى أرفض أن تحددوا لى جغرافية حزنى ، فالحزن العظيم هو أن أكون مع العالم كله ، لا مع أولاد حارتى فقط .".

ويقول نزار فى كتابه (الكتابة عمل انقلابى) :

" خبر صغير .. ربما لم تنتبهوا إليه فى زحمة الأخبار .. الخبر يقول إن إسرائيل خلال إحدى غاراتها الانتقامية الأخيرة على لبنان ، دمرت أكثر من مائة شجرة صنوبر أنثى فى ضاحية من ضواحى مصيف سوق الغرب الجميل .. أبكانى الخبر .. فموت شجرة صنوبر يعادل عندى موت طفل .. أو موت قصيدة " .. فقد أضاف نزار برقيه وحسه المرهف الذى يتألم لموت الإنسان والحيوان والنبات والمعمار الجميل ويعتبرها كائنات حية ثمينة ، (وإن إسرائيل بالفعل لا تفرق بين بشر وشجر وحيوان وحجر فى التدمير وكم رأينا أشجار زيتون فلسطين تقتلعها الجرافات الصهيونية وهى تهدم بيوت الفلسطينيين) .. وحزنه عليها متساو .. أضاف لونا من البكاء الرفيع المنفرد .

حلم الشاعر ومستقبل لبنان :

نزار قبانى شاعر متناقض مع نفسه وشعره وحلمه ويعترف هو بذلك . يقول فى كتابه (ما هو الشعر ؟) :

"قد يبدو لكم صوتى متناقضاً.

من قال لكم إننى شريط مسجل.

أنا مجموعة من الأصوات المتداخلة .. قد تشبه صوت تنفس الحدائق .. وقد تشبه رنين الأجراس .. وقد تشبه انكسار لوح زجاجى .. أو صرخات قبيلة بدائية..

كل هذه الأصوات هى صوتى . بخفوته وارتفاعه ، وبفرحه وكآبته ، بحضارته وبدائيته ، بقبوله ورفضه ، بعافيته ونزفه..

صوت الشاعر ليس خطوطاً محفورةً على أسطوانة ، كلما عُزفت أعادت نفسها . صوت الشاعر يحمل كل تموجات الحياة ، والمجتمع ، والتاريخ ، إنه آلة موسيقية لها عشرات المفاتيح.

لماذا أنا متناقض ؟

لأنني حتى الآن لم أشتغل جابياً فى مؤسسة الكهرباء.. ولا محاسباً قانونياً فى مديرية الإحصاء.

لذلك تأخذ قصائدى مرة شكل الوردة .. ومرة شكل الجرح المفتوح .. فأرجو أن تحتملوا مناخاتى وتحولاتى .. لأنني أقدم لكم مجموعة من الانفجارات

على شكل قصيدة .. ولا أقدم لكم بنود الموازنة العامة .."

والتناقض فى العواطف شئ يمكن أن نسلم به ، لكن فى القضايا القومية لا يمكن التسليم به بسهولة ، فنزار اعتراه إحساسان الأول ثورة لبنان وقيامها قوية رغم ما حدث بها والثانى كفره بالعرب والعروبة على حد سواء ، وكذلك لبنان .

الإحساس الأول (عودة السلام) :

تمنى نزار أن يسود السلام ربوع لبنان ، وأحس بوجوب النهضة من شلالات الأحزان وهو يستخدم للتعبير عن هذا الإحساس "عشتار" وهى ملمح من ملامح الحزن النبيل فى الأسطورة البابلية القديمة "تموز وعشتار" والتى تشبه إلى حد كبير الأسطورة الفرعونية "إيزيس وأوزيريس" والأسطورة الرومانية "فينوس وأدونيس" ، وبرغم استخدام نزار لهذه الأسطورة أتفق مع د. أنس داود فى كتابه (استخدام الأساطير فى الشعر العربى المعاصر) الذى أكد أن نزارا

لم تشع ظاهرة استخدام الأساطير لديه لكننا فى الوقت ذاته لا ننفى وجودها بقلة فى شعره ، وقد نجح نزار إلى حد كبير فى استخدام "عشتار" كمعادل لبيروت فإذا كان حزن عشتار من أجل عودة تموز وبعودته يعود الخصب والنماء ، فإن حزن بيروت من أجل عودة السلام كى يعود الخصب والنماء أيضا ، فى قصيدته (يا ست الدنيا يا بيروت) :

قومى من تحتِ الموج الأزرق، يا عِشتارْ

قومى كقصيدةِ وردٍ.

أو قومى كقصيدةِ نارْ

لا يوجدُ قبلكِ شئٌ .. بعدكِ شئٌ .. مثلكِ شئٌ.

أنتِ خلاصاتُ الأعمارْ.

يا حقلَ اللؤلؤ.

يا ميناءَ العشق.

ويا طاووسَ الماءْ.

قومي من أجل الحبِّ ، ومن أجل الشّعراءْ

قومي من أجل الخبز ، ومن أجل الفقراءْ

الحبُّ يريدكِ .. يا أحلى الملكاتْ.

والربُّ يريدكِ .. يا أحلى الملكاتْ.

ها أنتِ دفعتِ ضريبةَ حسنكِ مثْل جميع الحسناواتْ

ودفعتِ الجزيةَ عن كلِّ الكلماتْ.

وإذا كان الشاعر قد أورد عشتار فى المقطع السابق فإنه يلبس كل سمات بيروت لهذا الرمز الأسطورى فى قوله (لا يوجد قبلك شئ .... وحتى يا طاووس الماء) .. ويضيف إليه أيضا : (قومى من أجل الحب ومن أجل الشعراء ...... ودفعت الجزية عن كل الكلمات) .

والشاعر فى نهاية القصيدة يترك الرمز الأسطورى "عشتار" ويتحدث عن بيروت مباشرة ، وهذا يدل على مدى تفاعل الشاعر مع لفظة"بيروت" :

قومى من نومكِ

يا سُلطانةُ، يا نوّارةُ، يا قنديلاً مشتعلاً فى القلبْ

قومى كى يبقى العالمُ يا بيروتْ

ونبقى نحنُ

ويبقى الحبّ..

قومى.

يا أحلى لؤلؤةٍ أهداها البحرْ

الآن عرفنا ما معنى.

أن نقتلَ عصفوراً فى الفجرْ

الآنَ عرفنا ما معنى.

أن ندلقَ فوقَ سماءِ الصّيفِ زجاجةَ حبرْ

الآن عرفنا.

أنا كُنّا ضدَّ اللهِ .. وضدَّ الشّعرْ ..

وتبلغ رغبة الشاعر فى انتفاضة بيروت من غفوتها عندما يقول :

يا ستَّ الدنيا يا بيروتْ.

قومى من تحتِ الرّدم، كزهرةِ لوز فى نيسانْ

قومى من حُزنكِ.

إنَّ الثورة تولدُ من رحم الأحزانْ

بنارها زمنا طويلا ، فى قصيدته (بيروت محظيتكم .. بيروت حبيبتى) :

آهِ يا سيّدتى بيروتْ..

لو جاءَ السّلامْ

ورجعنا، كالعصافيرِ التى ماتتْ من الغُربةِ والبردِ.

لكي نبحثَ عن أعشاشنا بينَ الحُطامْ.

ولكي نبحثَ عن خمسينَ ألفاً..

قُتلوا من غيرِ معنى.

ولكي نبحثَ عن أهلٍ وأحبابٍ لنا

ذهبوا من غيرِ معنى.

وبيوتٍ .. وحقولٍ .. وأراجيحَ .. وأطفالٍ.

وألعابٍ .. وأقلامٍ .. وكُرّاساتِ رسمِ.

قومى إكراماً للغاباتِ.

وللأنهارِ.

وللوديانِ.

قومى إكراماً للإنسانْ.

إنّا أخطأنا يا بيروتُ.

وجئنا نلتمسُ الغفرانْ ..

ولقد كان تشبيه الشاعر لقيام بيروت وثورتها المنشودة بقيامة الزهرة فى الربيع ، تشبيها جيدا .

والشاعر يصدح بأمنيته فى السلام ، مباشرة لكنه يمزجه بأسى المعارك الطاحنة التى اصطلى لبنان

من بحار النزيفِ .. جاءَ إليكم

حاملاً قلبهُ على كفَّيهِ

ساحباً خنجرَ الفضيحةِ والشعرِ،

ونارُ التغيير فى عينيهِ

نازعاً معطفَ العروبةِ عنهُ

قاتلاً، فى ضميرهِ، أبويهِ

كافراً بالنصوص، لا تسألوهُ

كيفَ ماتَ التاريخُ فى مقلتيهِ

كسَّرتهُ بيروتُ مثلَ إناءٍ

فأتى ماشياً على جفنيهِ

أينَ يمضى ؟ كلُّ الخرائطِ ضاعت

أين يأوى؟ لا سقفَ يأوى إليهِ

أحرقتْ من غير معنى ...

ولقد كان هذا الأساس (عودة السلام) يعتبر ملمحا إيجابيا فى شعر نزار ، وندخل إلى الإحساس الثانى وهو الكفر بالعرب كل العرب بفضائحهم وعيوبهم الهائلة ..

الإحساس الثانى :

يعترى نزار إحساس الصدمة والكفر بالعرب كل العرب .. فهو كما قلنا كان مع بيروت وهى تحت الردم متمنيا لها النهضة كزهرة لوز ، ولكن طول الحرب وكبر الدمار وكثرته وما رآه من عجائب العرب فى مصر الساداتية والمباركية وفى السعودية الوهابية النفطية قد جعله يمتلئ بالإحساس الثانى . فى قصيدته (هجم النفط مثل ذنب علينا) :

ليسَ فى الحىِّ كلّهِ قرشىٌّ

غسلَ الله من قريشٍ يديهِ

هجمَ النفطُ مثل ذئبٍ علينا

فارتمينا قتلى على نعليهِ

من شظايا بيروتَ .. جاءَ إليكم

والسكاكينُ مزّقت رئتيهِ

رافعاً رايةَ العدالةِ والحبِّ.

وسيفُ الجلادِ يومى إليهِ

ونتفق مع الشاعر فى عزمه على فضح العرب ومخازيهم بالشعر ، وفى عدم وجود قرشى ، أو بطل يمتلئ بالرجولة والمروءة والشهامة والنخوة وأخلاق العرب ، بين العرب ، وحتى الله قد تبرأ منهم وغسل منهم يديه ونفض يديه منهم ، وكأنهم قذر يغسل يديه منهم ، ونتفق معه فيما آل إليه أمر العرب وكذلك نتفق

معه فى ضرورة التغيير ، تغيير العقلية العربية والأنظمة النفطية والوهابية والمبادئ الساداتية والمباركية وأنظمتها والمباذل البترولية . ها هو قد جاء يدعو إلى العدالة والحب ، ولكن سيوف جلادى الأنظمة العربية النفطية والساداتية تهدده وتتوعده وتسعى إلى تصفيته وإسكاته . وتشبيهه النفط بالذئب تشبيه جميل ومعبر . فالذئب لا يُرجى منه خير بل هو متوحش ومفترس ، ويدل التشبيه على الهجوم المفاجئ للنفط ، الذى قضى على كل الأخلاق والمبادئ الوطنية ، وغرقت الحضارة والتقدم والثورة فى بحاره العميقة .

329 / 588

الفصل السادس : القومية العربية فى شعر نزار

مقدمة

نشأة القومية العربية فى العالم العربى الحديث :

نشأة القومية العربية فى القرن التاسع عشر :

لا شك أن تبلور القومية العربية أفاد من ظهور القوميات الأوروبية التى عاصرتها أو سبقتها ، لأن الباحثين أجمعوا على تسمية القرن التاسع عشر باسم "عصر القوميات" فالأحداث السياسية الهامة التى غيرت معالم خارطة أوروبا السياسية خلال القرن المذكور ، إنما حدثت من جراء تغلغل الفكرة القومية



فى نفوس الأمم الأوروبية وانتصار مبدأ "حقوق القوميات" فى الميادين الدولية ، وكانت أخصب البيئات لنشوء الفكرة القومية البلاد الألمانية لانقسامها إلى دول ودويلات كثيرة مما أدى إلى هزيمتها أمام جيوش نابليون فكان طبيعيا أن تنشأ الفكرة القومية وتترعرع بسرعة كبيرة وينتشر الإيمان بوحدة الأمة الألمانية وكان طبيعيا أيضا أن يدفع هذا الإيمان مفكرى ألمانيا وساستها إلى مكافحة النزعات الإقليمية ، المتولدة من تعدد الدول الألمانية ، بكل قوة وحماس

وقد انعكس الشعور القومى على البلاد الأفريقية والآسيوية التى كانت تئن تحت وطأة الاستعمار الغربى (الإنجليزى والفرنسى) ولا سيما البلاد العربية التى كانت فى حوزة السلطنة العثمانية منذ قرون عدة ، ولقد رضى العرب بصفة عامة بالحكم التركى وذلك لأن الفكرة الإسلامية كانت هى الغالبة فقد عارض علماء الدين "الفكرة القومية" من أساسها معارضة شديدة فزعموا أن القومية تخالف أحكام الشريعة الإسلامية وقالوا إن إطاعة أوامر الخليفة واجب على المسلمين ، ثم صاروا يدعون إلى الوحدة الإسلامية معتبرين الدولة العثمانية الأساس المتين لبناء صرح تلك الوحدة ، لكن الأمر لم يستمر على هذه الوتيرة ففى القرنين التاسع عشر والعشرين حدث فى البلاد العربية حادثان خطيران زعزعا الأوضاع القائمة فى السلطنة العثمانية زعزعة

شديدة وهما : ثورة محمد على فى مصر ومحاولته الاستئثار بحكم مصر والاستقلال بها عن الدولة العثمانية وضم السودان والشام والحجاز وبلاد المورة (اليونان) إلى دولته المستقلة ، ولاحقا الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين شريف مكة

أما ثورة محمد على فى مصر فهى تعتبر من أقدم مظاهر الشعور القومى الذى ظهر خلال القرن التاسع عشر فقد كان إبراهيم باشا بن محمد على يرمى إلى فصل بعض الأقطار العربية التى كانت خاضعة إلى السلطنة العثمانية وتأسيس مملكة عربية ، وبذلك تكون ثورة محمد على قد خدمت القومية العربية خدمة كبيرة ، لأنها أوجدت دولة عصرية فى بلاد عربية وأفسحت المجال لقيام نهضة فكرية وأدبية عربية ، لكن هذه الخدمة التى أدتها ثورة محمد على للقومية العربية إنما كانت بصورة غير مباشرة لأنها لم تستمد قوتها من نزعة قومية .

ثانيا : تطور الشعور القومى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر :

(1) بلاد الشام :

ظهور "عبد الرحمن الكواكبى" (1848 - 1902) على الساحة الفكرية والسياسية فى سوريا فقد ألف كتاب "طبائع الاستبداد" وكان دعوة صادقة إلى التخلص من المستبدين وهو ينتهى بدعوة المسلمين والنصارى إلى الاتحاد ، وتناسى الأحقاد والاتفاق على كلمة سواء وهى : فلتحيا الأمة ، وليحيا الوطن ، ولنحيا طلقاء أعزة ، ثم ألف كتاب "أم القرى" يدعو لخلافة عربية وتكون مكة عاصمتها.

(2) فى مصر :

لم تظهر الفكرة القومية فى مصر فى هذه الفترة ، حيث إن حركة الزعيم أحمد عرابى كانت على فساد الحكم فى مصر ، ضد استعباد الخديوى وغير المصريين للمصريين ، وضد استئثار غير المصريين بالمناصب فى الجيش ، ولم يخطر بباله خلع طاعة الخليفة أو الخروج عليه مما جعل الروح العثمانية شديدة البروز فى مصر حتى سقوط الخلافة وانقلاب السلطنة إلى دولة تركية علمانية أتاتوركية صرفة بعد هزيمة العثمانيين فى الحرب العالمية الأولى . وكان عرابى يرى أن الخروج على الخليفة وتأليف دولة عربية ضياع للإسلام وخروج عن طاعة الله ورسوله ، وهذا

كانت بلاد الشام أسبق البلاد العربية فى تفهم القومية العربية بهذا المعنى وبتلك المقومات لما عانته من بطش الأتراك واستبدادهم وتجلت مظاهر الحركة القومية فيما يلى :

ظهرت الجمعية الخيرية التى أسسها طاهر الجزائرى وغرضها المطالبة بفتح مدارس لتدريس العلوم العربية وآدابها .

تأسست الجمعية العلمية السورية على يد الشيخ ناصف اليازجى وبطرس البستانى وكانت غايتها إحياء التراث العربى وفيها مسلمون من سنة وشيعة ودروز .

جمعية حفظ حقوق الملة العربية التى تأسست سنة 1881 م للمحافظة على حقوق العرب جميعا ومساواتهم بالأتراك .

وكل هذه الجمعيات كانت تهدف إلى بعث الوعى العربى من رقاده بتلقين شباب العرب الوسائل المؤدية إلى هذا البعث .



يعنى أن طاعة الله ورسوله تستوجب بقاء العرب تحت حكم آل عثمان ، وأما تأليف دولة عربية مستقلة عنهم ، فيخالف أوامر الله ورسوله . والزعماء السياسيون فى مصر الذين أتوا بعد عرابى كانوا أشد مغالاة فى تعظيم الخليفة وتقديسه ، فكان محمد فريد يرى أن مخالفة أوامر الخليفة تعد كفرا فلم يكتف بالقول بأنها حرام بل اعتبرها كفرا بنص الكتاب الشريف . فى حين أن الكتاب الشريف لا يتضمن أى نص يدل على ذلك من قريب أو من بعيد . وأتفق مع الأستاذ ساطع الحصرى فى قوله تعقيبا على ما قاله محمد فريد : "من المعلوم والمسلم به لدى الجميع أنه حتى مخالفة الأوامر الإلهية نفسها لا تعد كفرا ، ما لم تقترن بإنكار الله أو بإنكار كتاب الله " ، أو ترد على الله حكما . ومن الجدير بالذكر أنه لليوم وعاظ السلاطين فى مصر والسعودية يحرمون الثورة والمظاهرات وخلع الحاكم الظالم مثل آل سعود ومبارك ..

ومن ذلك نستنتج أن :

الشام ومصر كانت كل منهما إطارا سياسيا تختلف أوضاعه بعضها عن بعض .

الصراع فى مصر كان ضد الإنجليز وكان الدين عامل تعبئة الشعور القومى لمقاومة المستعمرين لهذا كانت القومية فى مصر تعنى رابطة الدين (أى التمسك بالدولة العثمانية) .

الصراع فى الشام كان ضد الدولة العثمانية نفسها ، وكانت النقمة موجهة إليها لما ترتكبه من مظالم فى حق الشعب وقد اقتضى ذلك طرح العامل الدينى جانبا ، والاعتماد على العنصر القومى فالدين لم يستطع أن يقف حائلا بين الشام وبين مطالبها فى الاستقلال عن السلطنة العثمانية ثم فى الثورة عليها لإنقاذ قوميتها .

القومية العربية وتطورها فى القرن العشرين :

فى الوقت الذى كانت تعانى فيه مصر من الاحتلال الإنجليزى ، وكيفية التخلص منه ، هبت ثورات عديدة فى أرجاء العالم العربى مطالبة بالاستقلال عن الدولة التركية ، لا سيما فى سوريا والحجاز ، إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى 1914م .

وكانت المحصلة النهائية للحرب العالمية الأولى أن أصبحت كل من إنجلترا وفرنسا هى صاحبة القرار



الأول والأخير فى رسم الخريطة العربية الجديدة (معاهدة سايكس بيكو) وعلى هذا الأساس قسم العالم العربى إلى مناطق نفوذ كالتالى :

أولا : النفوذ الإنجليزى :

وشمل مصر ، والسودان ، وفلسطين ، والعراق ، والأردن ، وعدن ، ودبى ، وأبو ظبى ، وأم القوين ، وعجمان ، والبحرين ، والكويت .. وأوكلت بريطانيا لآل سعود مهمة إنشاء الدولة السعودية مع التعهد بتوريد النفط لبريطانيا ثم لاحقا للولايات المتحدة .

ثانيا : النفوذ الفرنسى :

وشمل دول المغرب العربى (تونس ، الجزائر ، المغرب ، موريتانيا ، وسوريا ولبنان) . وبقيت ليبيا تحت الاحتلال الإيطالى .

وقد أقام الحاكم الأجنبى سدودا وحواجز بين كل هذه المشيخات والبلدان ، وفى ظل هذا الوضع نمت وترعرعت النزعة الإقليمية ، حتى بعد رحيل المستعمر

ظلت هذه الحواجز والفواصل ، وأصبح العالم العربى بالتالى يدرس من قبل دارسى النظم الإقليمية على أساس أنه يمثل عشرين نظاما إقليميا أو أكثر وليس نظاما إقليميا واحدا ، ولكن القول أن الدول العربية القائمة الآن ، لم تتكون ولم تتعدد بمشيئة أهلها ، ولا بمقتضيات طبيعتها وأن سبب الشقاق بينها اليوم 2010 هو الاحتلال السابق فهو كلام مبالغ فيه ، وغير صحيح ، فالحقيقة أن الحكام العرب استساغوا هذا التقسيم والانفصال كملوك الطوائف ولم يجبرهم أحد عليه .. فلقد استقلت البلاد العربية منذ خمسين عاما أو أقل قليلا .. ومع ذلك لم تتوحد ولا تزال فى تناحر حدودى وفشلت كل محاولات الوحدة .. ولا تزال بعض الدول العربية تحاول السيطرة على الدول الأخرى مثل طموحات آل سعود فى مصر وفى الخلافة .. وكذلك طموحات ملك المغرب .. ومؤامرات مصر مبارك والسعودية على المقاومة وعلى الدول المقاومة مثل سوريا .. وانقسام العالم العربى لجبهة صمود وتصدى ورفض وممانعة ، وجبهة تطبيع واستسلام وتبعية وصهينة وأمركة .. ولا يزال هناك تفاوت رهيب فى الثروة والثقافة والتحضر بين الدول العربية فبينما لا تزال السعودية وهابية تكفيرية ظلامية معادية للحضارة وللتسامح وللناصرية وللمقاومة ، وثراؤها فاحش .. أصبحت سوريا ولبنان والعراق منارات للثقافة والعلم والفكر والحضارة.. وبينما لا يزال الخليجيون يرفضون ارتداء البذلة أو الملابس الغربية العالمية

كالقميص والبنطلون إلخ ، ويصرون على العقال والشماغ والجلباب والصندل ، تقبلت دول الشام والمغرب العربى مصر الملابس الغربية وأصبحت ترتديها . وبينما تقبلت دول الشام ومصر والمغرب العربى النظام الجمهورى المتطور ، لا تزال دول الخليج النفطية سلطنات وممالك وإمارات .. فى نظام ملكى بغيض .. وتتآمر على الجمهوريات وتسخر وعاظها وعاظ السلاطين فى الإفتاء بتحريم النظام الجمهورى .

****

القومية العربية أو العروبة هى الأيديولوجيا القومية العربية، تعتبر هذه الأيديولوجيا الأكثر شيوعاً فى الوطن العربى خصوصا فى فترة الستينات والسبعينات من القرن العشرين والتى تميزت بالمد الناصرى وقيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا

يؤمن القوميون العرب بالعروبة كعقيدة ناتجة عن تراث مشترك من اللغة والثقافة والتاريخ والدين الإسلامى إضافة إلى مبدأ حرية الأديان. الوحدة العربية هدف معظم القوميين العرب

تعريف الوحدة العربية والذى ساد فى حقبة الستينات وحتى الثمانينيات يطرح الآن مفهوماً جديداً للوحدة العربية يعتبر قريبا من المشروع الأوروبى، أى الدعوة للإنصهار فى كتلة ذات سياسة خارجية موحدة، وذات ثقل اقتصادى كبير يقوم على التكامل الاقتصادى والعملة الموحدة وحرية انتقال الأفراد والبضائع بين الأقطار المختلفة، بالإضافة لتفعيل اتفاقية الدفاع العربى المشترك للوصول إلى اتحاد عربى مع المحافظة على خصوصيات اجتماعية أو ثقافية قد توجد فى بعض المناطق العربية

في هذا السياق، يعرف المفكر العربى عزمى بشارة القومية العربية كالتالى :

«القومية العربية ليست رابطة دم ولا عرق، بل هى جماعة متخيلة بأدوات اللغة ووسائل الاتصال الحديثة تسعى إلى أن تصبح أمة ذات سيادة

تشكلت القومية العربية مع نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين أو عصر القوميات كما يسميه البعض. كان من رواد حركة القومية العربية مفكرون من أمثال قسطنطين زريق وساطع الحصرى وزكي الأرسوزى وعبد الرحمن عزام ومحمد عزة دروزة.

تجلت القومية العربية فى أوجها بالثورة العربية الكبرى التى قادها الشريف حسين من مكة، لكن الآمال المعقودة على الحصول على دولة الوحدة تقوضت بأسرها بعد عقد فرنسا وبريطانيا اتفاقية سايكس بيكو والتى قسمت إرث الإمبراطورية العثمانية وبخاصة المشرق العربى ، فنالت فرنسا سوريا ولبنان واحتفظت بالجزائر ونالت إنجلترا فلسطين والعراق والأردن والخليج واحتفظت بمصر والسودان .

أول إرهاصات القومية العربية كانت فى بلاد الشام بعد حملة محمد علي والتدخل الأوروبى الذى تبع ذلك. فى البداية كانت مطالب القوميين العرب محدودة بالإصلاح داخل الدولة العثمانية، واستخدام أوسع للغة العربية فى التعليم والإدارات المحلية، وإبقاء المجندين العرب فى وقت السلم فى خدمات محلية. طرأ تشدد على المطالب إثر ثورة عام 1908 فى الآستانة وبرنامج التتريك الذى فرضته حكومة جمعية الاتحاد والترقى (والمعروفة بتركيا الفتاة). إلا أنه حتى ذلك الوقت لم يمثل القوميون العرب تياراً شعبياً يعتد به حتى فى سوريا معقلها الأقوى آنذاك، فمعظم العرب كان ولاؤهم لدينهم أو طائفتهم أو قبيلتهم أو حكوماتهم المحلية. عقائد الجامعة العثمانية والرابطة الإسلامية كانا منافسين قويين للقومية العربية. كانت أبرز الحركات القومية آنذاك متجسمة في جمعيات ونواد مثل جمعية العربية

الفتاة والجمعية العلمية السورية والمنتدى الأدبى والجمعية القحطانية وجمعية العهد وغيرها

في عام 1913 اجتمع بعض المفكرين والسياسيين العرب فى باريس في المؤتمر العربى الأل. وتوصلوا إلى قائمة من المطالب للحكم الذاتى داخل الدولة العثمانية. وطالبوا كذلك ألا يُطلب من المجندين العرب فى الجيش العثمانى أن يخدموا خارج أقاليمهم إلا في وقت الحرب.

تزايدت المشاعر القومية خلال انهيار السلطة العثمانية. ساعد القمع العنيف للجمعيات السرية فى دمشق وبيروت من قبل جمال باشا وإعدامه الكثير من الوطنيين فى عامى 1915 و1916 على تقوية المشاعر المضادة للأتراك. وفي نفس الوقت قام البريطانيون من جانبهم بتحريض حاكم مكة، الشريف حسين على الثورة العربية خلال الحرب العالمية الأولى (مراسلات الحسين مكماهون) . هُزم العثمانيون ودخلت القبائل العربية الموالية لفيصل، ابن الشريف حسين، دمشق عام 1918. حينها شهدت القومية العربية أولى محاولاتها لإقامة المملكة العربية بقيادة الملك فيصل الأول.

لا يمكن تحديد موعد لبداية التفكير بالوحدة العربية، فالوحدة العربية كانت دوماً كما يقول محمد عزة دروزة هدف العرب، مع أنها لم تتجسد فعلياً حتى ظهور الإسلام الذى ألف بين قلوبهم، وربما يمكن اعتبار الدولة الأموية أول تجسيد لدولة العرب الكبرى. جاء الفكر القومى منذ لحظته التأسيسية ردة فعل على انهيار الرابطة الإسلامية نتيجة الأزمة الحضارية الشاملة للإمبراطورية العثمانية وصعود الأفكار والمشاريع القومية، خصوصاً فى الجزء الأوروبى من تلك الإمبراطورية، قبل أن يفكر العرب فى إيجاد الطروحات والمسوغات الفكرية لمشروعهم القومى

لم يفكر العرب بداية فى الانفصال عن الدولة العثمانية، حيث سبقت الحركة القومية حركة إصلاح اتجهت إلى إنقاذ الإسلام السياسى من التخلف الذى ظهر فى المواجهة مع الغرب (حركة التنظيمات). حاولوا أن يبلوروا هويتهم القومية من أجل تحسين سبل المشاركة مع العثمانيين بوصف العرب أصحاب مساهمة أساسية فى الحضارة، لأنهم قدموا للشعوب الأخرى رسالة الإسلام. سعى العرب حتى مرحلة متقدمة لأن يشكلوا دولة اتحادية، وطالبوا باللامركزية السياسية والاتحاد الفيدرالى مع الأتراك. هذا على الأقل ما كانت عليه الأمور حتى المؤتمر العربى الأول فى باريس عام 1913. ولعل خير تجسيد لذلك حركة المفكرين العرب الإصلاحيين وكذلك المسلمين من جنسيات مختلفة،

كجمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وشكيب أرسلان.

اطلع المثقفون العرب على الفكر القومى الغربى (الأوروبى) بصيغته النظرية قبل أن يتجسد فى الدولة القومية فى النصف الأول من القرن العشرين. لكن هذا الفكر القومى ارتبط بأفكار النهضة بداية وعنى بشكل خاص موضوع الإصلاح. لقد بدأت فكرة الدولة القومية كمشروع لبناء دولة حديثة مرتبطة بتطور الاقتصاد وحق الأسواق البرجوازية بالحدود والحماية. قاوم هذا الفكر الهيمنة السياسية للكنيسة والإقطاع. الكنيسة بما هى مشروع فوق قومى والإقطاع بصفته عنصر تجزئة وتخلف فى وجه السوق القومى واحتياجاته للتوسع والنمو

شكل منتصف القرن التاسع عشر بداية واضحة للضعف العثمانى، فقد خسرت تركيا الحرب مع روسيا واقتحمت فرنسا عدداً من ولاياتها

بدأت الحركات القومية الانفصالية فى بلاد اليونان ووقع المغرب العربى تحت الاحتلال الفرنسى وانفصلت مصر عن الدولة ثم وقعت تحت الاحتلال الإنجليزى ، وشهدت بلاد الشام العديد من الانتفاضات الشعبية الفلاحية والحرفية. بدأت حركة من الإصلاحات داخل

تنظيمات الدولة بهدف مواجهة هذه التحديات

يؤمن مفكرو القومية العربية أن الأصل فى الوحدة، لأن الوحدة المنسجمة هى خير محض، وأن التجزئة القطرية عارضة ومصطنعة بدأها الاستعمار واستكملتها أنظمة الحكم القمعية لتقوية الشعور القُطرى وواقع التجزئة والحفاظ على عروش اغتصبوها وكراسٍ لم يستحقوها. ومن الأدلة الواضحة على هذا الإبعاد المتعمد للشعب عن فكرة القومية إحياء النزعات العرقية (من فرعونية وفينيقية وإفريقية، الخ) ورفع شعارات القطرية بكل وضوح ووقاحة أحياناً، مثل شعار "الأردن أولاً" و "لبنان أولاً" الخ، واستبدال العربية بالإنكليزية أو الفرنسية وتصوير العربية كلغة الطبقات الدنيا فى المجتمع. وما حدث من تجييش إعلامى وتضخيم سياسي لمباراة مصر والجزائر والتداعيات الخطيرة قبلها وخلالها وبعدها كان قمة السقوط للأنظمة الحاكمة. ولذلك فهى حالة شرّ وفساد.

في عام 1958 قامت بقيادة الزعيم الخالد جمال عبد الناصر وحدة اندماجية بين مصر وسورية، وسميت الدولة الوليدة بالجمهورية العربية المتحدة، إلا أن هذه الوحدة لم تعمر طويلاً، حيث حدث انقلاب فى الإقليم السورى فى شباط/فبراير من عام 1961 أدى إلى إعلان الانفصال ثم تم عقد معاهدة وحدة متأنية مع

العراق وسوريا عام 1964 إلا أن وفاة الرئيس العراقى المشير عبد السلام عارف عام 1966 ثم حرب 1967 حالت دون تحقيق الوحدة. علما أن مصر استمرت في تبنى اسم الجمهورية العربية المتحدة وذلك لغاية عام 1971 بعد تولى أنور السادات للحكم.

منذ اتفاقية كامب ديفيد، تبنت معظم الأنظمة العربية شعارات جديدة تمجد الانتماء القطرى وتضعه فى مقدمة الأولويات. ازداد هذا الشعار ظهوراً بعد الفشل الذريع الذى منيت به الأنظمة على صعد التنمية والاقتصاد وزيادة البطالة ومشاكل التعليم والصحة، فأصبحت (الأنظمة) تنمى مشاعر التفرقة وتقيم الجدران بين قطر وآخر. علاوة على ذلك، أصبحت شعارات تمجد الانفصال والنزعة القطرية مثل (الأردن أولاً ولبنان أولاً ومصر أولاً، والسعودية فوق الجميع ومصر فوق الجميع ، ومصر فرعونية لا عربية ، إلخ) شيئاً عادياً ومألوفاً، وأصبح كل نظام عربى يحاول العثور على انتماء غير عربى سواء كان فرعونياً أو فينيقياً أو إفريقياً، أو أى شئ آخر. ولكن هذا التوجه الانغلاقى الضيق لم يجلب سوى المصائب على المستوى القطرى والمستوى القومى، فلم تستطع الأنظمة حل مشاكلها الداخلية أو الحفاظ على أمنها أو تحقيق النمو والازدهار لشعبها . وعانت دول مثل مصر والجزائر والعراق ولبنان من حروب أهلية وانقسام

طائفى وعنف دموى ، ولم تستطع معظم الأقطار العربية تخفيض معدلات البطالة العالية أو الفقر أو الجهل أو الأمية.

تأتى معارضة الفكر القومى من فريقين رئيسيين:

* التيار الوطنى الليبرالى:

عارض المد القومى مجموعة من المفكرين الليبراليين المتعلقين بالغرب والذين يدعون إلى الحفاظ على السيادة الوطنية بحجة وجود هوية أو هويات قطرية نابعة من حضارات مرت على الوطن العربى واندثرت الآن من فينيقية وفرعونية وكنعانية وبابلية، الخ. يبرز هذا التيار بأقوى صوره فى مصر ولبنان. على سبيل المثال، رأى بعض الكتاب المصريين من أمثال أحمد لطفى السيد ونجيب محفوظ ولويس عوض وسلامة موسى ونجيب ساويرس أن هناك اختلافات ثقافية بين مصر وبقية الدول العربية وادعوا بأن هناك ثقافة مصرية ولغة مصرية، الخ. فى نفس السياق، برز بعض اللبنانيين المنادين بقومية لبنانية . تندرج معظم الأنظمة الحاكمة ومفكريها ضمن هذا التيار مع بعض الاستثناءات.

* بعض رجال الدين المتشددين:

لاقت القومية العربية معارضة من بعض رجال الدين المسلمين وبخاصة من التيار الوهابى السعودى ، الذين شككوا بنوايا مؤسسى الفكر القومى، واتهموا الفكر القومى بافتقاره الأيديولوجية اللازمة للتعامل مع الإنسانية والمجتمع سواء فى بلاد الإسلام أو خارجها. واتهموا القوميين بأنهم تلقوا أفكارهم من أحضان الغرب والماسونية. من جهة أخرى . ربما كان السبب فى معارضة بعض رجال الدين هو الميول الاشتراكية لبعض مفكرى القومية العربية وبعض الأحزاب القومية مثل البعث. وفي هذا المقام، لا بد من الإشارة إلى أن كثير من المفكرين القوميين هم إما علماء دين مثل عبد الرحمن الكواكبى أو ذوو اتجاه دينى مثل محمد عزة دروزة. إضافة إلى ذلك، شدد مفكرو القومية العربية على دور الإسلام فى صياغة الفرد العربى والأمة العربية، وفى هذا يقول مؤسس البعث ميشيل عفلق :

«فى وقت مضى تلخصت فى رجل واحد حياة أمته كلها، واليوم يجب أن تصبح كل حياة هذه الأمة فى نهضتها الجديدة تفصيلاً لحياة رجلها العظيم. كان محمد كل العرب، فليكن كل العرب اليوم محمداً».

أبرز القوميين العرب:

* إبراهيم علوش
* أمين الريحانى
* أنطوان سعادة
* جمال عبد الناصر
* جورج أنطونيوس
* حافظ الأسد
* حسين حمود (حيدر العاملي)
* حمد الفرحان
* خير الدين حسيب
* زكي الأرسوزى
* ساطع الحصرى
* سعدون حمادى
* شكيب أرسلان
* صالح بن يوسف
* صدام حسين
* عبد الرحمن الكواكبي
* عزت السيد أحمد
* عزمي بشارة
* عصمت سيف الدولة
* قسطنطين زريق
* محمد عزة دروزة
* معمر القذافى
* ياسر عرفات

* ميشيل عفلق
* هوارى بومدين
* ياسين الحافظ
* حسين مجلى

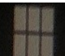
الاتجاهات الفكرية فى الحركة القومية العربية:

تبرز فى الفكر القومى العربى أربعة اتجاهات فكرية رئيسية هي:

* الاتجاه اليسارى (أو الاشتراكى) : ومن المنظمات التى تمثله حركة القوميين العرب وحزب البعث العربى الاشتراكى وحزب الاتحاد الاشتراكى العربى الديمقراطى.

* الاتجاه الديني الإسلامى : ويمثله مفكرون مثل عبد الرحمن الكواكبى ومحمد عزة دروزة وفهمى هويدى وعبد الوهاب المسيرى ومحمد عابد الجابرى ومحمد سليم العوا ومنير شفيق.

* الاتجاه الليبرالى : ويمثله مفكرون مثل ساطع الحصرى وخير الدين حسيب وعزمى بشارة.



* الاتجاه الوسطى : وتمثله الحركة الناصرية بأحزابها المختلفة.

مشاعر نزار تجاه الوحدة الاندماجية بين مصر وسوريا 1958م :

أخذت بعض الدول العربية بعد حصولها على الاستقلال ، تلبى الطموحات القومية للإنسان العربى ، خاصة بعد سقوط الملكية فى مصر وقيام ثورة يوليو 1952 م وقيام الجمهورية ، ونمو حدة القومية العربية ، وعلو زئيرها ، وإنعاش عبد الناصر ولأول مرة فى مصر للقومية العربية ، وتغيير العلم المصرى المشابه لعلم تركيا والدولة العثمانية ليصبح ثلاثى الألوان "علم التحرير" معبرا عن العهد البائد بالأسود والعهد الحالى بالأبيض ودماء الشعب المكافح فى سبيل التحرير والحرية بالأحمر .. وإعلان الوحدة الاندماجية بين مصر وسوريا تحت اسم "الجمهورية العربية المتحدة" فى 22 فبراير 1958 م وانتخاب "جمال عبد الناصر" رئيسا للجمهورية العربية المتحدة ووضع نجمتين على العلم المصرى السورى (اليوم عاد العلم ذو النجمتين إلى سوريا منذ الثمانينات ولليوم) ، فهذا الحدث الجلل أشعل النفوس العربية فخرا وجعلها تشعر بكيانها الذى غاب قرونا عديدة ونلمح ذلك بوضوح من قول نزار :



" ماذا حدث لى ؟ إننى أنظر إلى الأدوات التى كنت أشتغل بها فلا أتعرف إلى واحدة منها ، الفرشاة التى كنت أستعملها قبل عام صارت أصغر من مواضيعى .. الصلصال الساخن الذى كنت أنحت منه أشكالى لم يعد يتسع لظنونى ، الأزاميل جميع الأزاميل التى صنعت منها أرق تماثيلى لم تعد صالحة للتعبير عن الأشكال الماردة التى تتحرك فوق الأرض العربية على صورة نبى أسمر أطلعه تراب الصعيد اسمه جمال عبد الناصر .... إننى أخاطبكم اليوم بهوية جديدة .. لم أعد الشاعر السورى الذى اعتاد أن يفرط أحداق عينيه قصائد فى طريقكم .. لقد كبرت مليون سنة . كبرت بلادى وكبر تاريخى .. وكبر الكبرياء فى داخلى ..

أنا واحد من شعراء الجمهورية العربية المتحدة أقولها بفم مزقه التبجح ، لم يعد يرضينى أن أكتب للملايين الثلاثة ، إن قصائدى الآن تطرق أبواب الملايين الثمانية والعشرين وأريد لها أن تطرق فى الغد القريب أبواب الملايين السبعين التى هى أمتى ، أرأيتم كيف يرتبط الأدب بالتاريخ ؟ كيف يولد الأدب الكبير فى كنف التاريخ الكبير ؟ أرأيتم كيف تكاثرت حروفى وتوالدت كأنها سرب عصافير صيفية على شجرة تين ؟ كيف اتسعت أبجديتى العربية بحيث أصبحت كل حصاة .. كل صدفة من شاطئ الإسكندرية إلى رمال اللاذقية حرفا فيها " .

لكن هذه الوحدة لم تأت بالنتيجة المرجوة ، فقد تعمق الإحساس بالقطرية وحدث الانفصال - بتحريض مادى سعودى وغربى - فى 28 سبتمبر 1961 م ، وبالتالى فشلت كل مظاهر الوحدة بعد ذلك ، سواء بين مصر وسوريا وليبيا (اتحاد الجمهوريات العربية) ، أو ليبيا وتونس ، أو ليبيا والمغرب ، أو ليبيا والجزائر أو العراق وسوريا .

وإن أولى خطوات الوحدة الاندماجية التدريجية (التى لابد أن يسبقها توزيع عادل للثروة النفطية على الدول العربية ، وتطوير للعقلية السعودية أو بالأحرى الحجازية والنجدية والخليجية نحو ارتداء الملابس الغربية والتخلص من الوهابية والعادات البدوية والامتناع عن تكفير الصوفية والشيعة والدعوة لقتلهم وسبهم وسب الأدباء والمفكرين ووقف أشكال المصادرة لكتب جبران خليل جبران وغيره من مفكرى لبنان وغيرها ، وإزالة اسم السعودية وعودة اسم الحجاز ونجد) .. أولى خطواتها هو إلغاء تأشيرات الدخول والحواجز الجمركية بين البلاد العربية . ويبدو أن هذا أول ما شعر به نزار ، فإذا كان الاستعمار قد



رحل فينبغى أن ترحل معه حواجزه وحواجز ملوك الطوائف المصطنعة التى أرسوها بيننا لليوم . يقول نزار فى قصيدته (الحاكم والعصفور) :

أبقى مرمياً ساعاتٍ

منتظراً فرمانَ المأمورْ

أتأمّلُ فى أكياس الرمل

ودمعى فى عينىَّ بحورْ

وأمامى كانتْ لافتة

تتحدّثُ عن (وطنٍ واحدْ

تتحدّثُ عن (شعبٍ واحدْ

وأنا كالجُرذِ هنا قاعدْ

أتقيأ أحزانى.

وأدوسُ جميعَ شعاراتِ الطبشورْ

وأظلُّ على بابِ بلادى

مرمياً..

كالقدح المكسورْ

التمزق العربى :

نجح الاستعمار الأوروبى (الفرنسى والإنجليزى والآن الأمريكى) فى تقسيم العالم العربى ، وبذر الشقاق بين أبنائه ، مستعينا بالأقليات العرقية (مثل الأكراد ، والمذاهب الدينية ، والخصومات الشخصية بين الحكام ، وزرع فى الوقت نفسه مرضا خطيرا فى قلب الأمة العربية ألا وهو إسرائيل ، ويصور لنا الشاعر أحاسيسه إزاء هذا التمزق وإحساس الأحرار فى هذا الوطن إذ لم يعد الأمر يحتاج إلى التمهل ، كما فى قصيدته (التأشيرة) :



يمتد خطٌ أحمرٌ

ما بين برلينين، بيروتين، صنعائين،

مكتين، مصحفين، قبلتين،

مذهبين،

لهجتين،

حارتين،

شارتى مرور ..

أين أنا ؟

كل العلامات تقول:

كل الإهانات التى نسمعها

بضاعة قديمة تنتجها (أعرابيا) .

كل الدروب، كلها

تفضى لسيف الطاغية..

أين نأا؟

ما بين كل شارع وشارع.

قامت بلد..

ما بين كل حائطٍ وحائطٍ.

قامت بلد..

ما بين كل نخلةٍ وظلها..

قامت بلد..

ما بين كل امرأةٍ وطفلها..

قامت بلد..

يا خالقى : يا راسم الأفق ، ويا مهندس السماء



هل ذلك الثقب الذى ليس يرى

هو البلد ؟؟؟

وإذا كانت الأبيات السابقة تعلوها الدهشة فإن الشاعر ينجح فى تجسيد التمزق العربى نجاحا كبيرا (وإن كان تمزقهم فى رأيى واختلافهم رحمة وإلا يا ويلتا إن كانت سوريا ولبنان وهابية ظلامية كالسعودية .. فمن أين إذن نجد الثقافة والكتب والحرية ؟!) ، وإذا كان فيه شئ من المبالغة فهى مبالغة محمودة إذن ، فلابد للشعر أن يختلف عن الواقع الذى يصوره الشاعر ، هذا الاختلاف يقرب أو يبعد من الواقع حسب حساسية الشاعر تجاه هذا الواقع وقدرة موهبته الشعرية ، يقول فى قصيدته (لماذا يسقط متعب بن تعبان فى امتحان حقوق الإنسان ؟) :

مواطنون ... دونما وطن

مطاردون كالعصافير على خرائط الزمن

مسافرون دون أوراق

و موتى دونما كفن

نحن بغايا العصر .. كل حاكم

يبيعنا ، ويقبض الثمن! !

نحن جوارى القصر ، يرسلوننا

من حجرة لحجرة

من قبضة لقبضة

من هالك لهالك

من وثن إلى وثن

نركض كالكلاب كل لية

من عدن لطنجة

من طنجة إلى عدن

نبحث عن قبيلة تقبلنا

نبحث عن عائلة تعيلنا

نبحث عن ستارة تسترنا

وعن سكن.

و حولنا أولادنا

احدودبت ظهورهم ، وشاخوا

و هم يفتشون فى المعاجم القديمة

عن جنة نضيرة

عن كذبة كبيرة كبيرة.

تدعى الوطن

وبراعة التجسيد تقوم على دعامتين أساسيتين : الأولى المواطنون الآباء الذين فقدوا الوطن وأصبحوا أغرابا فيه ، وجمال الإيحاء يكمن فى هذه الغربة الداخلية التى

تفشت فى وجدان الآباء وسلوكهم ، فهم يركضون كالكلاب من مشرق الوطن إلى مغربه للبحث عن الهوية العربية التى ضاعت منذ زمن بعيد .

الدعامة الثانية هم المواطنون الأولاد رمز الحاضر والمستقبل لأنهم المادة الفعالة والنشطة فى كل أمة وفى أى عصر وجمال الإيحاء يكمن فى شيخوخة هؤلاء الشباب واحدوداب ظهورهم لكثرة بحثهم عن العروبة التى ولت والأوطان التى ضاعت وأصبحت فرية فى كتب التاريخ ، وكلمة قديمة ميتة لم تعد مستعملة ومكانها المعاجم القديمة أو لعلها غير موجودة حتى فى المعاجم القديمة .

وتتجلى براعة الشاعر فى رسم التمزق العربى حين يُسقِط كربلاء بكل ما يحمله الإسقاط من الخزى والعار والخيانة والجبن والتمزق ، فالقاتل فيها عربى والمقتول ابن بنت رسول الله ، سبط رسول الله ، وأولاده . السابى فيها عربى والمسبيات بنات رسول الله وذريته ، مانع الماء فيها عربى والممنوع عنهم الماء عرب . فى قصيدته السابقة :



مواطنون نحن فى مدائن البكاء

قهوتنا مصنوعة من دم كربلاء

حنطتنا معجونة بلحم كربلاء

طعامنا. شرابنا

عاداتنا. راياتنا

صيامنا. صلاتنا

زهورنا. قبورنا

جلودنا مختومة بختم كربلاء..

وأمام هذا التشتت والضياع والتمزق والتناحر يقف العرب فى الجهة المقابلة يخادعون أنفسهم ويصرون على أنهم أمة واحدة ثم يمارسون عروبتهم من خلال هذه التجزئة الجغرافية ، والاقتصادية ، والتربوية ، والثقافية والسياسية ، والعسكرية وأظن العروبة آنذاك وهما كبيرا ، فلم يعد من العروبة سوى الشكل بل عادوا إلى حرب البسوس ، وداحس والغبراء ، أيام الجاهلية

الأولى ففى القرن العشرين يمتد الخنجر العربى لصدر العربى والعدو على مترين من أبوابنا متربص بنا .

فى قصيدته (أنا يا صديقة متعب بعروبتى) :

أنا يا صديقة متعب بعــروبتى

فهل العـــــروبة لعنة وعقاب

أمشى على ورق الخريطة خائفا

فعلى الخــــريطة كلنا أغراب

أتكلم الفصحى أمام عشـــيرتى

وأعيد .. لكن ما هناك جواب

لولا العباءات التى التـــفوا بها

ما كنت أحســب أنهم أعراب

يتقاتلون على بقايا تـــــمرة

فخناجر مرفوعة وحـــراب

قبلاتهم عـربية .. من ذا رأى

فيما رأى قبلا لـــــها أنياب

يا تونس الخضـراء كاسي علقم

أعلى الهزيمة تشرب الأنخاب؟

وخريطة الوطن الكبير فضيحة

فحواجز ومـــخافر وكلاب

ومع التقاتل العربى لا ننتظر فرقة ولا انحطاطا عربيا أكثر من ذلك ، فالأمر لم يعد اختلافا فى الأنظمة السياسية الضعيفة بل أصبح تناحرا بين هذه الأقطار .

الربط بين التناحر فى الأندلس ، والتناحر المعاصر :

حين يتحدث الشاعر عن نتيجة التمزق العربى المعاصر فإن شبح الأندلس يطل برأسه فى شعر نزار . فلم تنته الأندلس وينته الوجود العربى بها إلا نتيجة التمزق والتفرقة ، وانقسام الدولة إلى عدة دويلات متناحرة (ملوك الطوائف) تستنجد إحداها بالعدو المشترك (الأسبان خصوصا قشتالة) على الأخرى ، حتى زالت ممالكهم لصالح عدوهم جميعا . والعالم العربى لم يتحرك نحو الوحدة لكن على العكس من ذلك نسمع كل يوم عن دويلة جديدة (مثل ما سيحصل فى السودان فى الجنوب ودارفور ، ومثل ما حصل ويحصل فى العراق من استقلال الأكراد بالشمال) سرعان ما تعترف بها هيئة الأمم المتحدة والجامعة العربية ومنظمة الوحدة الأفريقية .. ودول عربية تخطط لابتلاع وتبتلع دولا عربية أخرى لحسابها مثلما فعلت المملكة المغربية مع الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية (علمها كعلم فلسطين لكن يتوسطها فى الشريط الأبيض هلال ونجمة حمراوين) .. جمهورية الصحراء الغربية ... ومثلما فعل العراق مع الكويت .. فالوحدة أيضا ليست بالغزو ولا بالإكراه ولا لحساب دولة عربية على أخرى أو حاكم عربى على آخر .. ومثلما تخطط القوى الصهيونية فى لبنان وتفتيت إيران بدعوى عروبة الأحواز ومحاولة تقطيع إيران ومصر والسودان إلى دويلات على أسس عرقية وطائفية .. على غرار تمزيق الاتحاد السوفيتى وتمزيق يوغوسلافيا إلى دويلات كرواتيا وصربيا والجبل الأسود ومقدونيا وسلوفينيا

والبوسنة والهرسك وكوسوفو . يقول الشاعر فى قصيدته (مرسوم بإقالة خالد بن الوليد) :

وأعطونا لقاحا

يمنع الشام أن تصبح بغداداً

وأعطونا حبوبا تمنع الجرح الفلسطينى

أن يصبح بستان نخيل

وماريغوانا لقتل الخيل أو قتل الصهيل

وسقونا من شراب

يجعل الإنسان من غير مواقف

ثم أعطونا مفاتيح الولايات

و سمونا ملوكاً للطوائف

وإذا كانت النهاية لهذا الوطن معروفة فى ظل هذا التناحر فإن نزارا يحدد موقفه ضد هذا الانحطاط العربى فى كتابه (ما هو الشعر ؟) :

"أنت فى شعر الحب شاعر غاضب .. وفى شعر السياسة شاعر غاضب .. أين يبدأ الغضب عندك وأين ينتهى ؟

- صعب أن أحدد لك حدود غضبى .. فطالما أن مقص إسرائيل يقص كل يوم جزءاً من تاريخى .. وجزءاً من جغرافيتى .. وجزءا من كتب ، ودفاتر ، ومستقبل أولادى ، وطالما أن جثث الأطفال العرب الذين تحصدهم طائرات إف 16 تطفو كل صباح على وجه فنجان قهوتى .. فإن غضبى بحرٌ لا ساحل له..

تسألنى لماذا أرفض ؟

وأسألك بدورى لماذا أقبل .. وماذا أقبل ؟

هل أرفع قبعتى لهذه الدويلات العربيات المتناحرة كالديكة .. الغارقة حتى الرقبة فى أنانيتها .. وفرديتها ، ونرجسيتها ، وعبادة ذاتها ؟

هل تريدني أن أبتهج للبيارق .. والمخافر ، وأكياس الرمل التى تصطدم بها وأنت تعبر الحدود بين خيام الأوس والخزرج .. وداحس والغبراء..

لغيرى أن يستعمل المنظار الوردى ، ولغيرى أن يعمر

القصور فى إسبانيا..

أما أنا فسوف أبقى ساحباً سيفى فى وجه عصر الانحطاط العربى .. حتى أقتله .. أو يقتلنى .. ".

يقول نزار فى قصيدته (قراءة أخيرة على أضرحة المجاذيب) :

أنظر كالمشدوه .. فى خريطة العروبة

فى كل شبر أعلنتُ خلافةٌ ..

وحاكم بأمره ..

وخيمةٌ منصوبة ..

تضحكنى الأعلام ، والأختامُ ، والممالك التركيبية

وسلطات القش ، والكرتون ، والشرائع العجيبة

ومشيخات النفط ..

والزواج بالمتعة ..

والغرائز المشبوهة ..

وعندما يشعر نزار بالغربة فى داخل وطنه المتناحر مثلما أحس بها فى وطنه الغابر الأندلس سابقا وأسبانيا والبرتغال حاليا ، فإنه يستخدم ربطا فنيا بين كلا الموقفين فكما ذكرنا سلفا ، أن التناحر فى الوطن الحاضر هو صورة من التناحر فى الوطن الغابر ، والخيانة العربية الحالية هى صورة من الخيانة العربية الغابرة ليس فى الأندلس وحسب ، بل حتى فى الشام فى مواجهة الأبطال الزنكيين ومن بعدهم البطل الأيوبى صلاح الدين ودعما للصليبيين ، وفى العراق والشام دعما لهولاكو والغزو المغولى .. والعدو أمامنا يتربص بنا بل هو بيننا .. بقواعده الأمريكية على الأراضى السعودية والخليجية ، وبسفنه الحربية فى البحرين الأبيض والأحمر وقناة السويس ، وبولايته الحادية والخمسين إسرائيل ، وسفاراته الضخمة العملاقة ومخابراته وصحفييه وعملائه .. ويشعل نار الفتنة بين أقطارنا مثلما تم فى الوطن الغابر تماما ، وبجهلنا كشعوب وتآمر حكامنا نعينه على ذلك ، وعلى مجابهة المقاومة ، وليست الفتنة التى يبذرها بيننا فتنة مذهبية ولا طائفية فحسب بل أيضا فتنة عربية ضد إيران ، وفتنة كروية كما فعل الإعلام المصرى بغباء منقطع

النظير ضد الجزائر .. يقول نزار فى قصيدته السابقة (قراءة أخيرة على أضرحة المجاذيب) :

أمشى ..

غريبَ الوجه فى غرناطة ..

أحتضن الأطفال ، والأشجار ،

والمآذن المقلوبة ..

فها هنا المرابطون رابطوا ..

وها هنا الموحدون استوزروا وخيموا ..

وها هنا ..

مجالسُ الشراب ، والنساء ، والغيبوبة ..

وها هنا عباءةٌ دامية ..

وها هنا .. مشنقةٌ منصوبة..

تناثرى ..

كالورقَ اليابس ، يا قبائل العروبة

واقتتلى ..

واختصمى ..

يا طبعة ثانية من سيرة الأندلس المغلوبة ..

وإذا كانت الأندلس هى مجد العروبة بعامة ، والشام بخاصة وبنى أمية بتعبير أدق ، فهى فى الوقت ذاته بعد خروج العرب منها تعتبر مشنقة تدلى فيها مجد العروبة حتى لفظ أنفاسه ، لذلك كله عندما يذهب الشاعر إلى أسبانيا ـ ضمن السلك الدبلوماسى السورى - لا يرى غير مجد العرب المقتول ، فى قصيدته (أوراق أسبانية) :

اللؤلؤ الأسود

شوارعُ غرناطة فى الظهيرة

حقولٌ من اللؤلؤ الأسود.

فمِنْ مقعدى.

أرى وطنى فى العيون الكبيرة

أرى مئذناتِ دمشقَ

مُصوَّرةً..

فوقَ كلِّ ضفيرة

ويقول أيضا متألما على ذلك المجد :

بقايا العرب

فلامنكو..

فلامنكو..

وتستيقظ الحانةُ الغافية

على قهقهاتِ صنوج الخَشَبْ

وبحّةِ صوتٍ حزين.

يسيلُ كنافورةٍ من ذهبْ

وأجلسُ فى زاوية

ألُمُّ دموعى.

ألُمُّ بقايا العربْ...

ويتعجب الشاعر من تفاقم الفرقة بيننا بعد ضياع الأندلس فلم نأخذ العبرة والدرس من الماضى ، فى قصيدته (أحزان فى الأندلس) :

مضت قرونٌ خمسة

مذ رحلَ "الخليفةُ الصغيرُ" عن إسبانية

ولم تزل أحقادنا الصغيرة..

كما هيَه..

ولم تزل عقليةُ العشيرة

فى دمنا كما هيه

حوارُنا اليومىُّ بالخناجر..

أفكارُنا أشبهُ بالأظافر

مَضت قرونٌ خمسة

ولا تزال لفظةُ العروبة..

كزهرةٍ حزينةٍ فى آنية..

كطفلةٍ جائعةٍ وعارية

نصلبُها على جدار الحقدِ والكراهية..

مَضت قرونٌ خمسةٌ .. يا غالية

كأننا .. نخرجُ هذا اليومَ من إسبانية ..

والأندلس فى عالم نزار الشعرى تحوى معنيين : أولهما المجد العربى الآفل ، وثانيهما ، ضياع القومية العربية والزهو العربى الحاضر ، وذلك إذا انتهجنا مسلك ملوك الطوائف فى سالف الزمان ، وتعتبر الأندلس جرحا فى قلب الشاعر وقلب كل وطنى مخلص لعروبته ، فى قصيدته (غرناطة) :

قالت : هنا الحمراءُ .. زهوُ جدودِنا

فاقرأ على جدرانها أمجادى

أمجادُها !!! ومسحتُ جرحاً نازفاً

ومسحتُ جرحاً ثانياً بفؤادى

يا ليت وارثتى الجميلة أدركت

أنَّ الذين عنتهُمُ أجدادي ...



عانقتُ فيها عندما ودَّعتُها

رجلاً يسمَّى (طارقَ بنَ زيادِ) ..

وربما يعود ذلك إلى اقتناع الشاعر فى كتابه (الكتابة عمل انقلابى) بأن "دكاكين الإقليمية الطائفية والانعزالية وتركيبة ملوك الطوائف سوف تفلس هى الأخرى وتغلق أبوابها أسوة بألوف الدكاكين الصغيرة التى عجزت عن استيعاب روح الجماعة ومحاولات العصر". ونزار قبانى قومى ما فى ذلك شك ، ولا يشوب ذلك شائبة ، فهو شاعر العرب والعروبة معا لم يقف عند حدود الإقليمية ، بل تغنى بآمال وآلام العرب من الخليج إلى المحيط ، تغنى بالعراق وبمصر وبتونس ، ووجه أشعاره وقدم لها فى العواصم العربية كما فى كتابه (العصافير لا تطلب تأشيرة دخول) . يقول فى قصيدته (مواويل دمشقية إلى قمر بغداد) :

لمْ نُفرِّقْ ما بينَ شَعْبٍ وشَعْبِ

كيفَ يَرْضى لونُ السماءِ انقساما

وَطَنٌ واحِدٌ .. رَسَمْنَاهُ قَمْحاً

ونَخيلاً وأنْجُماً ويَماما

نينوى .. البوكْمالَ .. طرْطوسَ .. حمص

بابِلٌ ، كَربلاءُ ، رُدَّى السَّلاما

وَطَنٌ واحِدٌ .. ولا كانَ شِعْرى

لوْ يُغَنّى قبيلَةً .. أو نِظاما

ومن هذا المنطلق يعتبر نزار أن القضايا المصيرية تهم الكيان العربى كله ، ولا تمس نظاما واحدا منه ، فهو بعد تسعة أيام من بداية حرب أكتوبر 1973 م . يقول فى كتابه (الكتابة عمل انقلابى) : "القضية الفلسطينية ليست ميراث مصر وسورية فقط و (كمبيالة فلسطين) ليست دينا عليهما وحدهما .. وإنما هى دين مستحق على الدول العربية جميعا بصرف النظر عن قربها أو موقعها الجغرافى ، ذلك أن الجغرافيا - كما تفهمها إسرائيل - لا يكتبها مدرسو الجغرافيا فى مدارسها وإنما يكتبها قادتها العسكريون وجنرالاتها العنصريون ، وقد كان الجنرال دافيد أليعازار رئيس

الأركان الإسرائيلى واضحا جدا فى التعبير عن طموحه الجغرافى حين قال : (إن يد إسرائيل قادرة على الوصول إلى أى مكان تشاؤه فى البلاد العربية) ومثل هذا الكلام بالطبع يجعل دول المواجهة - الطوق - ودول عدم المواجهة سواسية أمام كرباج دافيد أليعازار الذى يرفعه فى وجوه العرب كل العرب بمناسبة ، وبغير مناسبة إن هذه الحرب مختلفة .. مختلفة .. مختلفة وهى لن تقرر مصير شبه الجزيرة العربية فحسب ، ولكنها ستقرر مصير (النوع العربى) كله فإما أن نربح الجولة ونبقى .. وإما أن نخسرها فنندثر " ، والشاعر إذا نادى بالوحدة والتمسك بالقومية العربية ، إنما يدعو إليها من منطلق التناقضات التى تظهر على الساحة العربية ، فمعظم البلاد العربية تدعى الوحدوية والقومية ، وهى تقتل الوحدة فى اليوم ألف مرة . فى قصيدته (إفادة فى محكمة الشعر) :

وحدويون .. والبلاد شظايا

كل جزء من لحمها أجزاء

وهناك مثال على تطبيق مبدأ أليعازار .. ما فعلوه من اغتيال المناضل الفلسطينى أبو جهاد خليل الوزير فى تونس 16 أبريل 1988 . ليلة الاغتيال تم إنزال20 عنصراً مدرباً من الموساد من أربع سفن وغواصتين وزوارق مطاطية وطائرتين عموديتين للمساندة على شاطئ الرواد قرب ميناء قرطاجة فى تونس، وبعد مجيئه إلى بيته كانت اتصالات عملاء الموساد على الأرض تنقل الأخبار، فتوجهت هذه القوة الكبيرة إلى منزله فقتلوا الحراس وتوجهوا إلى غرفته وأطلقوا عليه عددا من الرصاص واستقر به سبعون رصاصة فتوفى فى نفس اللحظة.

وللعروبة مفهوم خاص لدى الشاعر فهى فى كتابه (الكتابة عمل انقلابى) " ليست فيتامينا .. أو هرمونا .. أو بروتينا .. نرضعه مع الحليب من أثداء أمهاتنا وليست إحساسا غريزيا أو فطريا كما نرث ملامحنا النفسية والجسدية الأخرى .. لا يكفى أن تكون عيوننا سوداء .. وأن نرتدى كوفية وعقالا وعباءة مصنوعة من وبر الجمل .. وأن يكون على ذراعنا اليسرى وشم أزرق لسيف بن ذى يزن .. وهو راكب فرسه لإثبات انتمائنا إلى العرق العربى .. إن العروبة ليست زيا

فولكلوريا يرتديه راقصو وراقصات فرقة الفنون الشعبية ولا وصلة من الموشحات الأندلسية ، والقدود الحلبية ولا جواز سفر مكتوبا بالخط الديوانى من اليمين إلى اليسار. وعلى غلافه نسر ذهبى يغطى بجناحيه عشرة آلاف فدان .

خمسون سنة .. وربما خمسمائة سنة مرت من عمرنا ونحن نحاول أن نكون عربا .. فنفشل ، نحاول أن نتسلق على كلمة العروبة .. فنتزحلق .. نحاول أن نقدم شهادة حسن سلوك للعالم .. فيرميها فى وجهنا .. ويتهمنا بالتزوير .

نقف فى مطارات أوروبا كالأغنام الحزينة .. فيمر كل المسافرين من باب السادة .. ونمر نحن من باب الخدم .. تحت عيون الآلات الإلكترونية .. وأنوف الكلاب البوليسية .. خمسون سنة .. ونحن نقشر برتقال العروبة .. فلا يطلع منها عصير ولا ماء .. نتحمس للوحدة .. ثم نفرطها .. ونتزوج عن حب .. ثم نطلق ، ونضع فى دساتيرنا إننا جزء من الأمة العربية .. ثم ننسى .. ونعانق بعضنا فى المطارات كما يفعل مشاهير العشاق .. وعندما ترتفع الطائرة بنا عشرة أمتار عن الأرض .. ننسى حبنا .. وحبيباتنا .. ونطلب من المضيفة إفطار الصباح .. إن العروبة - كنظرية - يمكن

أن تـقرأ فى سلسلة الكتب القومية التى تصدرها دور النشر العربية ، والعروبة - كمصطلح شعرى - موجودة بكل زخمها وحرارتها ، وألوانها الوردية فى دواوين كل الشعراء العرب منذ عصر الجاهلية .. حتى عصر قصيدة النثر .. والعروبة - كشعارات ولافتات وملصقات - موجودة على جدران كل المدن العربية .. وهى لا تكلف أكثر من سطل دهان وفرشاة .. هذه هى العروبة السهلة ، أما العروبة الصعبة فهى عروبة الممارسة والتطبيق .. عروبة المواجهة مع النفس والعالم ".

لذلك أتى رفض الشاعر المطلق للواقع العربى .

يقول فى قصيدة(قرص الأسبرين) :

ليسَ هذا وطني الكبير

لا..

ليسَ هذا الوطنُ المربّعُ الخاناتِ كالشطرنج..

والقابعُ مثلَ نملةٍ فى أسفل الخريطة..

هوَ الذى قالَ لنا مدرّسُ التاريخ فى شبابنا

بأنهُ موطننا الكبير.

لا..

ليسَ هذا الوطنُ المصنوعُ من عشرينَ كانتوناً..

ومن عشرينَ دكاناً..

ومن عشرينَ صرّافاً..

وحلاقاً..

وشرطياً..

وطبّالاً.. وراقصةً..

يسمّى وطنى الكبير..

لا..

ليسَ هذا الوطنُ السّادىُّ.. والفاشىُّ

والشحّاذُ.. والنفطىُّ

والفنّانُ.. والأمىُّ

والثورىُّ.. والرجعىُّ

والصوفىُّ.. والجنسىُّ

والشيطانُ.. والنبىُّ

والفقيهُ، والحكيمُ، والإمام

هوَ الذى كانَ لنا فى سالفِ الأيّام

حديقةَ الأحلام..

والوحدة العربية ليست غاية لدى الشاعر ولكنها وسيلة من وسائل التقدم العلمى والرقى الحضارى .

التخلف العربى :

وبالرغم من انتشار المدارس والجامعات والكليات المتخصصة فى العالم العربى كله ، وزيادتها على مدار اثنين وأربعين عاما خلت (وهى مرحلة نزار الشعرية) زيادة ملحوظة ، إلا أن هذا الانتشار الواسع ليس مؤشرا بالضرورة على وجود تقدم علمى فى العالم

العربى . فالعالم العربى يمتلك الإمكانات العلمية ، ووفرة المال والبشر وقياسا به تعتبر "إسرائيل" فقيرة قليلة السكان . ولكنها حققت تقدما علميا أكثر بكثير من التقدم الذى حققه العرب جميعا خلال حقبة واحدة من الزمن ، وهناك تقرير يشير إلى أن العالم العربى مثلا لم ينشر خلال خمسة عشر عاما (1967م - 1983م) غير ثلاثة وعشرين ألف بحث علمى ، فى حين أن إسرائيل وحدها قد نشرت خلال الفترة نفسها حوالى تسعة وأربعين ألف بحث علمى ، كما ذكر خليل محشى فى مقاله (التربية المدرسية والعطاء العلمى فى البلاد العربية) فى مجلة المستقبل العربى ببيروت 1985 م عدد 77 - ص 60 . ونتيجة لذلك فإن الوجود العربى فى خطر إذ تؤكد التقارير أن إسرائيل قد دخلت النادى الذرى واحتلت مقعدها فيه وأصبحت تملك الرؤوس النووية من مختلف العيارات والأوزان حتى عيار أربعين كيلو طن أى ضعف عيار قنبلة هيروشيما أو بمعنى آخر أربعين ألف كيلو من المتفجرات المزلزلة والحارقة والإشعاعات المهلكة ، كما جاء التأكيد على أن ترسانتها الذرية تحتوى على أكثر من مائتين من الرؤوس النووية التى تكفى جميع المدن العربية وتحظى المدن المصرية بأوفر نصيب ، كما أنها طورت سلاحا صاروخيا بعيد المدى وقادرا على حمل الرؤوس النووية من عيار خمسين كيلو طن ويبلغ مداه المؤثر ألفا وأربعمائة وخمسين كيلو مترا من نقطة الانطلاق وتستطيع إسرائيل أن تحركه شمالا فيصل إلى بطن

الاتحاد السوفييتى ، وتحركه جنوبا فيصل إلى أسوان وسدها العالى ومدن الشمال السودانى كما أن مداه شرقا يشمل بغداد وحقول البترول فى الشمال العراقى ويمتد إلى الخليج الفارسى كله وكل المدن السعودية وكذلك كل سواحل البحر الأحمر شرقا ، وفى الغرب كل شواطئ تونس وعلينا أن نرسم دائرة نصف قطرها ألف وخمسمائة كيلومتر لنرى المدى المؤثر والمسيطر لهذا الصاروخ وهذا ما جعل الاتحاد السوفييتى يقدم مذكرة لمجلس الأمن لقيام الوكالات الدولية بالتفتيش على مفاعلاتها فى ديمونة و ناحال سوراك " كما ذكر عبد العزيز محمد فى مقاله (رسائل خطيرة لم يقرأها أحد) فى جريدة الوفد - القاهرة 1987 م ، بتاريخ 10/1/ 1987م . وفى مقابل هذا التقدم العلمى للأعداء تعيش الأمة العربية مرحلة تخلف رهيبة وتطرف ووهابية وظلامية وجهالة عاناها الشاعر وغيره من أبناء هذه الأمة ومثقفيها ، ويبدو أن الدين - أى دين- إذا فُـهِم على أساس انتهازى منحرف بغية غرض ما ، فإنه يؤدى إلى انحدار معتنقيه .. وعندما أخذ قساوسة أوروبا من الدين قناعا لأطماعهم ، وفسروه بما يتراءى لهم ، عاشت أوروبا العصور الوسطى فى ظلام دامس ، إذ كان الدين بمثابة الفصام النكد بين العلم والحياة .. تماما كحال العرب اليوم 1431 هـ كحال الأوروبيين 1431 م .. بل أسوأ لأنه على الأقل كان الأوروبيون وقتئذ فى بدايات عصر النهضة المعمارية والفكرية .. على الأعتاب أعتاب النهضة والتقدم.. أما

نحن فقد عدنا القهقرى إلى الإفتاء بتحريم التماثيل والنحت والرسم والتمثيل والموسيقى والغناء .. وعدنا القهقرى إلى ارتداء البرقع تحت اسم النقاب ، وارتداء الخمار والجلباب وإطالة اللحى التى أقلع عن إطالتها الأوروبيون والعالم أجمع منذ قرون .. وعدنا نعادى العلم ونحرم وسائل الترفيه كالشطرنج والنرد .. ونعادى الأسماء المضافة إلى الدين والحلف بالنبى والمدائح النبوية والأسماء التركية والمفتوحة التاء والفارسية والأوروبية والصينية إلخ ، وعبد النبى وغلام الحسين إلخ .. ونعادى الاشتراكية والناصرية والعلمانية .. ونعادى الصوفية والمسلمين الشيعة ونعتم تماما على ذكرى كربلاء والعشر الأول من محرم .. ولا نذكر منه سوى رأس السنة الهجرية وصوم عاشوراء لأنه يوم عبر فيه موسى باليهود بنى إسرائيل البحر فرارا من فرعون إلى سيناء !! .. ولا شئ يذكر فى الأزهر الشريف ولا التلفزيون المصرى السنى عن مأساة الحسين وتعتيم كامل على كتاب عبد الحميد جودة السحار عن حياة الحسين ومسرحية عبد الرحمن الشرقاوى الحسين ثائرا والحسين شهيدا ثأر الله .. وحرمنا زيارة القبور عموما وزيارتها فى الأعياد خصوصا .. وعادينا آل بيت النبى ومساجدهم وأضرحتهم .. وامتنعنا عن سماع قرائنا المصريين وتوجهنا للأصوات السعودية الصحراوية الوهابية الخنفاء والنشاز.. وإذا كان الدين الإسلامى دينا ودولة داعيا إلى العلم والتقدم ، فقد أسأنا فهم ذلك الدين

ووهبنه أى صبغناه بالصبغة الوهابية السلفية السعودية مما أدى إلى ما نحن فيه من تخلف وتأخر وتطرف ، ففى الوقت الذى استطاع فيه الصهاينة صنع الأسلحة الذرية واحتكروها لأنفسهم هم ودول حلف الأطلسى من أوربا وأمريكا ، ما زلنا نحن العرب نتقاعس عن ذلك بل ونتآمر على العراق حتى غزته أمريكا واحتلته 2003 وحتى اليوم 2010 ومن قبله أفغانستان 2001 ، ولم نتعظ بل ألصقنا تهمة احتلاله بإيران ، وتآمرنا ونتآمر على شقيقتنا المسلمة إيران التى تطمح لأن تكون نووية تناطح إسرائيل ، وتآمرنا على حماس وحزب الله ، وكرهنا شافيز العظيم وأردوغان وجالاوى .. وقدسنا حكامنا تقديسا ، الأحياء منهم والأموات ، فى مصر والسعودية والخليج إلخ ، وأصبحوا لدينا معصومين .. من مبارك إلى السادات إلى فيصل آل سعود وعبد الله الحالى وفهد السابق .. إلخ .. وتلحفنا بالجهل والغشاوة وتمسكنا بالماضى وما سميناه بالسلف الصالح .. ولم ندقق ولم نبحث .. وهاجمنا طه حسين لأنه شكك فى الأصنام التى صنعناها وعبدناها .. فلليوم نترضى على الحجاج ومعاوية وابنه يزيد وأبيه أبى سفيان .. وهم طغاة بغاة . لكن نزارا رفع سيفه الغاضب فى وجه مخازينا وعيوبنا . يقول نزار فى قصيدته (قراءة أخيرة على أضرحة المجاذيب) :

أرفضكم ..

أرفضكم ..

يا منْ صنعتم ربكم من عجوة

لكل مجذوب بنيتم قبةً

وكلّ دجال أقمتم حوله مزارْ

حاولتُ أن أنقذكم

من ساعة الرمل التى تبلعكم

فى الليل والنهارْ

من الحجابات على صدوركمْ ..

من القراءات التى تتلى على قبوركم

من حلقات الذكرْ ،

من قراءة الكف ،

ورقص الزارْ

حاولتُ أن أدق فى جلودكم مسمارْ

يئستُ من جلودكمْ

يئست من أظفارى

يئستُ من سماكة الجدارْ ..

تشبيهات بليغة .. فالمجذوب هو الحاكم الذى نقدسه وهو ظالم .. ونراه معصوما وهو مجرم .. وسماكة الجدار جلود شعوبنا الغليظة فى مصر والسعودية وغيرها فلا تثور ولا تخلع الظلمة والبغاة .. شئ من الثورة ، شئ من التمرد ، شئ من الغضب أيتها الشعوب الميتة المستكينة التى لا تثور ولا تغضب .. وكما يقول نزار فى قصيدته (اغضب) : "اغضب فأنت رائع حقا متى تثور .. اغضب فلولا الموج ما تكونت بحور" . وكما يقول الله عز و جل فى كتابه العزيز "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض" .

لقد نجح نزار فى هذه الأبيات على المستويين الفكرى والفنى فقد شخص المرض المزمن منذ قرون ، وتأتى البراعة الفنية ، فى تكرار "يئست" ثلاث مرات ، فى المرة الأولى مع جلود العرب لأنها فقدت خلايا الإحساس ولم تشعر بالنصيحة وبمحاولة الإفاقة والوخز والتنبيه والاستثارة والتثوير - المسمار - التى حاول الشاعر إقناعهم بها دون جدوى ، وتأتى فى المرة الثانية مع أظافر الشاعر التى كلت هى الأخرى من جلود العرب الصلبة كالجدران الصخرية لا تستجيب

للنصيحة ولا للتثوير والتحريض ، فييأس الشاعر من الجلود السميكة والجدران الصخرية الحجرية ، يتسرب إلى نفس الشاعر اليأس لأن الهوة بين الواقع وبين ما يريد واسعة .

والشاعر يفهم الدين على أنه تقدم وعمل وعبادة لا ظلامية ولا تطرف ولا جهل ولا طائفية ولا معاداة للعلم وللحضارة .. فالدين الإسلامى يجعل من العمل وطلب العلم عبادة ويحض على التقدم والأخذ بأسباب الحضارة والتنوير أيا كانت مصادرها .. قال رسول الله : " الحكمة ضالة المؤمن ، أنـّى وجدها فهو أحق الناس بها " ... ولنا فى ابن سينا والفارابى والكندى وغيرهم من علماء المسلمين فى أخذهم من علوم السابقين وغير المسلمين العبرة والمثل .. غير أننا سلكنا الطريق العكسى . يقول نزار فى قصيدته (هوامش على دفتر النكسة) :

نقعد فى الجوامع

تنابلاً ، كسالى

نشطر الأبيات أو نؤلف الأمثالا

ونشحذ النصر على عدونا

من عنده تعالى ...

هذا يذكرنا بأئمة المساجد فى مصر وغيرها من الدول العربية حاليا ، حيث يهلكون أنفسهم ومعهم المصلون فى الدعاء على اليهود وعلى الأمريكان الغزاة إلخ .. دعاء بلا عمل وبلا كفاح ولا نضال ولا مقاومة ولا قتال .. كلام فقط يرددونه .. وكيف ينصر الله من يدعو بلا عمل .. إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ولا سلاحا نوويا ولا جيوشا .. إننا مجرد ظاهرة صوتية تندد وتدين وتغضب بالمظاهرات والسجالات الكلامية ، وهذا أقصى ما تفعله .. دون ثورة ودون عمل ..

وربما تكون الاعتقادات الخاطئة هى منشأ التخلف فنحن نفسر الدين كما نراه على هوانا على طريقة (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) ، وحسبما يتفق مع غرائزنا وشهواتنا فبرغم ما نعانيه من فقر وتخلف نتمسك بالإنجاب المفرط ونرفض تنظيم الأسرة ونستعمل حديث (تناكحوا تناسلوا) .. مع أن سورة التكاثر توبخنا (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) ، والآية الكريمة تقول : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) ، (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ....) أى أنها دنيويات دنيئة وشهوات ، (اعلموا أنما الحياة

الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال
والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه
مصفرا ثم يكون حطاما (يا أيها الذين آمنوا إن من
أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) .... وقد اتخذنا
من الدين أفيونا ومخدرا ننسى به العمل الحق والسعى
الحق والكفاح الحق لخيرنا فى الدنيا .. واستعمل
حكامنا الفاسدون وشيوخنا المغرضون الدين لخدمة
أهدافهم وتخديرنا .. فحرموا الاشتراكية وأباحوا
الرأسمالية وحرموا العدالة الاجتماعية والمساواة
وتذويب الفوارق بين الطبقات .. وحرموا حكم الطبقة
العاملة والكادحة .. وحرموا النظام الجمهورى ..
وحرموا الديمقراطية .. ملايين من الشعوب العربية
الفقيرة والحافية لا تأخذ من الدين إلا قشوره وظواهره
: أربع زوجات ، تعدد الزوجات ، ويوم القيامة .. مع أن
الأثر يقول : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل
لآخرتك كأنك تموت غدا .. والآية الكريمة تقول (وابتغ
فيما آتاك الله الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) ..
فثقافة النقاب والحجاب والخمار وعذاب القبر والقيامة
، الثقافة المركزة على الآخرة ، والمواسية للفقراء
بجنة السماء ، والمركزة على العبادات دون المعاملات
حتى ترى المصلين يشتمون ويسبون ويغشون
ويسيئون معاملة جيرانهم والناس ولكنهم يتقنون
الصلاة والصيام والحج ، هى ثقافة باطلة وخاطئة
تواكلية وخادعة وليست من الإسلام فى شئ ، إن هذه
الملايين التى تخرج من أجل توافه الأمور لتتظاهر

وتقاطع الدانمرك وهولندا إلخ من أجل رسوم
كاريكاتيرية ، والتى يحرضها الشيوخ على التوافه
ويحركونها كما تشتهى أهواؤهم طائفيا ومذهبيا
وسياسيا واجتماعيا إلخ ، هذه الملايين لا تلتقى بالخبز
والطعام إلا فى أحلامها وخيالاتها وأوهامها فهى تقتات
على خزعبلات الشيوخ وأفيون الدين وكرة القدم
والأفلام المصرية المنحطة المسفة .. وفى الليل تسعل
من المرض الذى يعتريها ولا تملك ثمن الدواء ولا
تذهب للأطباء رغم لعدم الاعتقاد فى الطب البشرى ..
ولا تسعى لتحسين أحوالها المعيشية بالعمل والكفاح
والثورة .. وتحت الضياء وليس فى الظلام هى فى
موات وغيبوبة كأنها جثث موتى .. لا تثور على
المظالم التى تأتيها والاستغلال الذى يمارسه عليها
الشيوخ والحكام .. رجال الدين سواء الرسميين أو
الفضائيين ورجال السياسة ..

يقول نزار فى قصيدته (خبز وحشيش وقمر) وهو
يرمز بالقمر للإسلام أو الدين والغيبيات ، والخبز
الطعام ، والحشيش الأفيون سواء كان الدين أو كرة
القدم أو خداع النفس أو الشوفينية أو أى مخدر مادى
أو معنوى يلهى عن العلم والعمل والثورة والكفاح :

فى ليالى الشرق لما..

يبلغ البدر تمامه..

يتعرى الشرق من كل كرامة

و نضال.

فالملايين التى تركض من غير نعال.

و التى تؤمن فى أربع زوجاتٍ.

و فى يوم القيامة..

الملايين التى لا تلتقى بالخبز.

إلا فى الخيال.

و التى تسكن فى الليل بيوتاً من سعال.

أبداً.. ما عرفت شكل الدواء.

تتردى جثثاً تحت الضياء ..

وليست المشكلة فى الدين أو الغناء أو كرة القدم فى حد ذاتها .. ولكن المشكلة التى يندد بها الشاعر هى استغلال هذه الأمور فى تخدير الشعوب وفى التواكلية ..

وكل ذلك يحدث للاقتناع التام بأن المجد يكمن فى الغرائز الحسية للإنسان ، كما فى قصيدته (هجم النفط مثل ذنب علينا) :

هجمَ النفطُ مثل ذنبٍ علينا

فارتمينا قتلى على نعليهِ

وقطعنا صلاتنا .. واقتنعنا

أنَّ مجدَ الغنىِّ فى خصيتيهِ

وهكذا تركنا عباداتنا وأخلاقنا وعلومنا ، ودروسنا ، وقيمنا وإنسانيتنا ، وقمنا بخيانة ذلك كله واتخذنا من أثرياء النفط أسيادا علينا وزوجناهم بناتنا أو وهبناهم بناتنا من غير زواج .. فقد اقتنعنا أن المستقبل والنصر والمجد للنفط وأثرياء النفط .. وخضعنا للثقافة النفطية دينية كانت أو ملابسية ..

لقد تخلينا على الحضارة والتقدم والعدالة والاشتراكية وعن كرامتنا ونخوتنا وشهامتنا وغوث المضطر وعون الشقيق والدفاع المشترك وخضعنا لأمريكا وللصهاينة .. وعبدناهم .. وعبدنا كرة القدم .. لقد جعل الإسلام بعد قرن واحد العرب القوة الأولى فى العالم آنذاك لأنهم فهموا الدين فهما صحيحا ، فهو عمل وعبادة ، حضارة وسلوك ، تقدم ورقى ، عقيدة وفكر ، عِلمٌ وسيف . يقول نزار فى قصيدته (هوامش على دفتر النكسة) :

خمسة آلاف سنة

ونحن فى السرداب

ذقوننا طويلة

نقودنا مجهولة

عيوننا مرافئ الذباب

يا أصدقائى:

جربوا أن تكسروا الأبواب

أن تغسلوا أفكاركم، وتغسلوا الأثواب

يا أصدقائى:

جربوا أن تقرؤوا كتاب

أن تكتبوا كتاب

أن تزرعوا الحروف، والرمان، والأعناب

أن تبحروا إلى بلاد الثلج والضباب

فالناس يجهلونكم .. فى خارج السرداب

الناس يحسبونكم نوعاً من الذئاب...

منعزلون نحن العرب عن العالم ، نقاوم الحضارة والتطور ونعتبرها رجسا من عمل الشيطان .. نتعامل بعملة قديمة فاقدة الصلاحية لا يتداولها ولا يعرفها أحد .. ماضويون سلفيون رجعيون متأخرون .. كوحوش كاسرة خرجت من السرداب المظلم بعد آلاف السنين كأهل الكهف .. ندعى أن النظافة من الإيمان ولكن عيوننا لا تنظفها فهى مرافئ وموانئ يحط عليها الذباب .. وكأننا لا نستعملها وقد فقدنا البصر والبصيرة .. وظننا الناس نوعا من الذئاب .. لأننا فشلنا فى التعريف بأنفسنا وتاريخنا وحضارتنا .. وجندنا متطرفين ضد السوفيت وضد الاشتراكيين فى أفغانستان فحولوناها دولة فاشلة وانتشر الشر الوهابى بفضل ابن لادن عميل آل سعود وأمريكا إلى مصر والمغرب العربى والصومال واليمن .. وشوهوا الإسلام .. وشوهونا وشوهوا صورتنا كعرب ومسلمين أمام العالم .. لم نعد نقرأ سوى الكتب الدينية المجلدة السعودية التى تملأ معرض الكتاب القاهرى اليوم ، والذى أصبح معرض الوهابية لا معرض الكتاب .. ينصحهم شاعرنا ويقول : جربوا أن تهزموا الجهل الذى يسيطر على عقولكم .. الجهل والتطرف والظلامية .. اقرؤوا كتبا عن مايكل أنجلو ، عن فلسفة الثورة الفرنسية ، عن الحرية والديمقراطية ، عن مأساة الحسين .. اقرؤوا كتبا فى الفلسفة والتاريخ والنحت والرسم وتاريخ الفنون الجميلة وعظمائها ، واقرؤوا كتبا فى الكيمياء

والفيزياء والأحياء والعلوم البحتة ، وفى الشطرنج والكوتشينة .. واقرؤوا خطب جمال عبد الناصر وحسن نصر الله ، واقتدوا بجيفارا وشافيز ونجاد وأردوغان وكارلوس وتيتو ونهرو وناصر والقذافى وبشار الأسد وإسماعيل هنية ، وغسان كنفانى ، وجبران خليل جبران ، وميخائيل نعيمة ، وعلى بن أبى طالب ، وعمر بن الخطاب .. إنكم بالنسبة لبقية سكان العالم كائنات مشوهة مفترسة متوحشة وجاهلة كنوع من الذئاب .

وعندما تصبح مصر كما نراها اليوم 2010 .. مسطحة الفكر ، جريدة القدس العربى اللندنية العربية الفلسطينية ممنوعة من الدخول إليها .. حزب الله مجرم تخريبى يسعى لنشر الفكر الشيعى فيها .. حماس إمارة إسلامية متطرفة لكن لا غضاضة من التحالف مع الدولة اليهودية المتعصبة التى جعلت على علمها رمزا دينيا هو نجمة داود النبى ، وجعلت شعار دولتها الشمعدان اليهودى السباعى (المينوراه) .. وبنيت من الأساس على أساس دينى محض .. عندما يصبح السفيه الرداح عمرو أديب ، وعلاء مبارك رمزا الأمة المصرية وأملها .. وعندما يطالب الشعب بإقامة تمثال لحسن شحاتة مدرب المنتخب الكروى المصرى !! وتسمية ميدان باسمه .. وتسمية شارع الجزائر باسمه

أو باسم لاعب كرة قدم مصرى ما .. وعندما يطرب الناس لسفاهات وهلس السينما الشبابية فى مصر من أفلام محمد سعد (اللمبى وبوحة إلخ) ، وسفاهات وهلس شعبان عبد الرحيم وسعد الصغير .. وعندما يثور الشعب ضد الجزائر ولا يثور لخلع مبارك ولا لإزالة إسرائيل ولا لتحرير فلسطين .. وعندما يسعدون بقناة الناس الوهابية التكفيرية وأخواتها من الرحمة إلى الروضة إلى ابن العثيمين إلى الأثر إلى وصال وصفا ، ويسعدون بسب إيران وتكفير الشيعة والصوفية .. وعندما يلومون جوليان أسانج وويكيليكس على كشفه وفضحه لحاكمهم والحكام العرب ، ولا يخلعون حكامهم .. فإنها شعوب غبية مريضة فقدت الإحساس بكل شئ ، وفقدت حاسة الفهم ونعمة التمييز ، وينتج عن ذلك سلبية التفكير والأداء ، حتى يصبح الإنسان فى هذه الحالة ضالا يؤمن بالشئ ونقيضه وضده فى آن واحد أو على الأقل يتساوى عنده الشئ وضده ولا يميز بين الغث والسمين والحق والباطل والصدق والكذب والحقيقة والزيف .. ويؤمن بفوقيته على الشعوب العربية الأخرى والأفريقية والإسلامية فلا نتعلم شيئا ولا نتقدم خطوة ولا نتواضع قليلا .. فإن مبارك هذا بالثلاثين سنة التى فعل فيها كل المخازى والخيانات التى لم تطل الشعب المصرى- شعبه - فقط بل تعدته أيضا إلى تدمير العراق وأفغانستان ولبنان ، وربما قريبا إيران .. لو فعل فى بلد أجنبى أو أفريقى ربع ما فعل لخرج الشعب عليه

بمظاهرات مليونية وأسقطته ونظامه .. أو لمزقته إربا ومحت ذكره .. ولكنها شعوب مشتتة بائسة كسولة ومغفلة وبليدة .. عندما يصبح الشعب المصرى طبعة واحدة كأنهم توائم متماثلة الطباع والسلوكيات الفاسدة .. بشكل رتيب وممل .. كأنهم خرجوا من قالب واحد نفس القالب ومن مصنع واحد .. فلا تمرد ولا تغيير ولا ثورة .. ولا رغبة فى تحريك الراكد وتبديل الأوضاع .. بل فوضاوية وسهر طوال الليل صيفا وشتاء وتزويغ من المدارس والعمل .. ودروس خصوصية .. وديجيهات .. وإزعاج .. وعداوة للأشجار والحدائق .. ومعاداة للإصلاح .. ولا تجد فيهم جماعة أو أغلبية ترفض الأفلام أفلامهم الهابطة ولا دراماهم الهابطة .. ولا تعترف برقى الدراما التاريخية والدينية وغيرها السورية والإيرانية واللاتينية.

يقول نزار فى قصيدته (الممثلون) :

حين يصيرُ الفكرُ فى مدينةٍ

مُسَطَّحاً كحدوةِ الحصانْ.

مُدوَّراً كحدوةِ الحصانْ ..

ويقول أيضا :

حينَ يصيرُ الحرفُ فى مدينةٍ

حشيشةً يمنعُها القانونْ

ويصبحُ التفكيرُ كالبغاءِ ، واللّواطِ ، والأفيونْ

جريمةً يطالُها القانونْ

حينَ يصيرُ الناسُ فى مدينةٍ

ضفادعاً مفقوءةَ العيونْ

فلا يثورونَ ولا يشكونْ

402

ولا يغنّونَ ولا يبكونْ

ولا يموتونَ ولا يحيونْ

تحترقُ الغاباتُ ، والأطفالُ ، والأزهارْ

تحترقُ الثمارْ

ويصبحُ الإنسانُ فى موطنِه

أذلَّ من صرصارْ.

ويقول أيضا :

حينَ يصيرُ العدلُ فى مدينةٍ

سفينةً يركبُها قرصانْ

403

ويصبحُ الإنسانُ فى سريره

محاصَراً بالخوفِ والأحزانْ

حينَ يصيرُ الدمعُ فى مدينةٍ

أكبرَ من مساحةِ الأجفانْ

يسقطُ كلُّ شئْ

الشمسُ ، والنجومُ ، والجبالُ ، والوديانْ

والليلُ ، والنهارُ ، والبحارُ ، والشطآنْ

واللهُ .. والإنسانْ

فلا ثورة ولا يحزنون .. بل موات كامل كأن البلاد بلا شعوب ولا أصحاب ..

يقول :

كأنَّ شيئاً لم يكنْ.

لم تختلفْ أمامَنا الوجوهُ والعيونْ

محاكمُ التفتيش عادتْ .. والمفتّشونْ

والدونكشوتيّونَ. مـ ا زالوا يُشَخِّصونْ

والناسُ من صعوبةِ البُكاءِ يضحكونْ

ونحنُ قانِعونْ.

بالحربِ قانعونْ .. والسلمِ قانعونْ

بالحرِّ قانعونْ .. والبردِ قانعونْ

بالعقمِ قانعونْ .. والنسلِ قانعونْ

بكلِّ ما فى لوحِنا المحفوظِ فى السماءِ قانعونْ.

وكل ما نملكُ أن نقوُل:

" إنا إلى اللهِ لراجعونْ " ...

والممثلون هنا فى القصيدة هم الحكام والمذيعون وكل طاقم الحكم من إعلام وتلفزيون وتمثيل وساسة وصحافة وأعضاء برلمان وأعضاء حزب إلخ .. فيطالبهم الشاعر بالرحيل لأنهم أصبحوا كروتا محروقة وقد مللنا ومل المتفرجون من ظهورهم وانكشفت حيلهم وألاعيبهم :

متى سترحلونْ ؟

المسرحُ انهارَ على رؤوسِكمْ.

متى سترحلونْ ؟

والناسُ فى القاعةِ يشتمونَ .. يبصقونْ

كانتْ فلسطينُ لكمْ.

دجاجةً من بيضِها الثمين تأكلونْ

كانتْ فلسطينُ لكمْ.

قميصَ عثمانَ الذى بهِ تُتاجِرونْ

طوبى لكمْ.

على يديكمْ أصبحتْ حدودُنا من ورَقْ

فألفُ تُشكَرونْ.

على يديكمْ أصبحتْ بلادُنا

امرأةً مباحة .. فألفُ تُشكَرونْ

****

ثم يبين بلادة ووقاحة وتناحة الممثلين :

احترقَ المسرحُ مِن أركانِهِ

ولم يَمُتْ ـ بعدُ ـ الممثِّلونْ ..

فالبلاد تدمرت وأصبحت فى ذيل الأمم وأسفل سافلين وانحطت فى كل المجالات .. ومع ذلك يرفض الحكام التنحى .. ويرفض طاقمهم الإعلامى والفنى والكروى إلخ التنحى أيضا .. ويرفض عزرائيل ملك الموت تخليصنا منهم .

وقد شخص نزار كل هذه العادات والتقاليد المتخلفة وعيوب الشعوب العربية ـ خاصة الخليجية منها والمصرية ـ ، وشخص رجل الدين الوهابى الظلامى ورجل الدين الذى يخدم التطبيع والنصارى ويكفر إيران والشيعة ويكفر الناصريين والاشتراكيين ويدعم التوريث والملكية ويحرم الجمهورية والديمقراطية ويحرم جمعيات الرفق بالحيوان ، ويحرم التقويم الميلادى والقبطى والمواسم الإسلامية والأعياد الوطنية والاجتماعية وأعياد الميلاد والأعلام الوطنية ،

ويحرم قراءة العهد القديم والعهد الجديد وقراءة إنجيل برنابا ، ويحرم مسلسل يوسف الصديق والمسيح روح الله (مسلسلات الأنبياء الإيرانية) فى مصر والسعودية .. أى وعاظ السلاطين وشيوخ سفك الدماء والتطرف .. شخصهم فى صورة "الإمام" الذى طعنه نزار أو بالأحرى مساعده أو تابعه وتلميذه ـ الذى انخدع أولا ككل العامة بالدين أفيون الشعوب ثم اطلع على أسرار الإمام وفضائحه ومخازيه فقرر التخلص منه وإراحة الناس من شره ودجله ونصبه ـ ، فى رقبته ليقضى عليه وهو يدرك أن هذه الطعنة عقوبتها الإعدام ، الإعدام فى القصيدة ، والإعدام لصاحب القصيدة من شيوخ الظلام فى مصر والسعودية .. إذ سيرميه هؤلاء بالزندقة والفسوق والكفر والاستهزاء بالدين وأصحاب اللحوم المسمومة ، لكن الوطن وعشقه لديه ، وحبه للحرية والتنوير والحضارة أكبر بكثير من افتراءات الدجالين وأرباب العيش فى الظلام وأباطرة التطرف والدروشة والاستشياخ ونصابى الوهابية من محمد حسان إلى حسين يعقوب إلى محمود المصرى إلى ابن العثيمين وابن جبرين وسلمان العودة وآل الشيخ وابن باز ويوسف القرضاوى ، الذين نتمنى كمثقفين الخلاص منهم بالفعل لأنهم أحالوا حياتنا ضيقا وحرجا وجحيما ، من قصيدته (الاستجواب) أو مَن قتل الإمام ؟ ولا يخفى علينا أن الإمام أيضا بمعنى الحاكم حاكم الدولة :

المخبرون يملأون غرفتى

من قتل الإمام..

أحذية الجنود فوق رقبتى

من قتل الإمام..

من طعن الدرويش وصاحب الطريقة

ومزق الجبة والكشكول والمسبحة الأنيقة

يا سادتى

لا تقلعوا أظافرى بحثا عن الحقيقة

في جثة القتيل دوما تسكن الحقيقة

من قتل الإمام..

عساكر بكامل السلاح يدخلون

عساكر بكامل السلاح يخرجون

محاضر..

آلات تسجيل

مصورون

ما النفع من إفادتى

ما دمتم إن قلت أو ما قلت

سوف تكتبون

ما نفع استغاثتى

ما دمتم إن قلت أو ما قلت

سوف تضربون

ما دمتم منذ حكمتم وطنى

عنى تفكرون

لست شيوعيا كما قيل لكم

يا سادتى الكرام

ولا يمينيا كما قيل لكم

يا سادتى الكرام

مسقط رأسى فى دمشق الشام

هل واحد من بينكم

يعرف أين الشام ؟

هل واحد من بينكم

أدمن سكنى الشام ؟

رواه ماء الشام ؟

كواه عشق الشام ؟

تأكدوا يا سادتى

لن تجدوا

لن تجدوا فى أسواق الورود وردة كالشام

وفى دكاكين الحلى جميعا

لؤلؤة كالشام.

لن تجدوا مدينة .. مثل الشام

لست عميلا قذرا

كما يقول مخبروكم .. سادتى الكرام

ولا سرقت قمحة

ولا قتلت نملة

ولا دخلت مركز البوليس .. يوما

سادتى الكرام

يعرفنى فى منطقتى الصغير و الكبير

يعرفنى الأطفال و الأشجار والحمام

وأنبياء الله يعرفوننى

عليهم الصلاة والسلام

الصلوات الخمس لا أقطعها

يا سادتى الكرام

وخطبة الجمعة لا تفوتنى

يا سادتى الكرام

من ربع قرن وأنا أمارس الركوع والسجود

أمارس القيام والقعود

أمارس التشخيص خلف حضرة الإمام

يقول : (اللهم امحق دولة اليهود)

أقول : (اللهم امحق دولة اليهود)

يقول : (اللهم شتت شملهم)

أقول : (اللهم شتت شملهم)

يقول : (اللهم اقطع نسلهم)

أقول : (اللهم اقطع نسلهم)

يقول : (أغرق حرثهم وزرعهم)

أقول : (أغرق حرثهم وزرعهم)

وهكذا يا سادتى الكرام

قضيت عشرين سنة

أعيش فى حظيرة الأغنام

أعلف كالأغنام

أنام كالأغنام

أبول كالأغنام

أدور كالحبة فى مسبحة الإمام

أعيد كالببغاء

كل ما يقول حضرة الإمام

لا عقل لى

لا رأس

لا أقدام

أستنشق الزكام من لحيته

والسل من العظام مكوما

كرزمة القش على السجادة الحمراء

أجلد كل جمعة بخطبة غراء

أبتلع البيان و البديع والقصائد العصماء

أبتلع الهراء.

عشرين عاما.

وأنا يا سادتى

أسكن فى طاحونة ما طحنت قط سوى الهواء

يا سادتى!

بخنجرى هذا الذى ترونه طعنته..

فى صدره والرقبة طعنته..

فى عقله المنخور مثل الخشبة

طعنته

باسمى أنا و اسم الملايين من الأغنام

يا سادتى الكرام

أعرف أن تهمتى عقابها الإعدام

لكننى قتلت إذ قتلته

كل الصراصير التى تنشد فى الظلام

والمستريحين على أرصفة الأحلام

قتلت إذ قتلته

كل الطفيليات فى حديقة الإسلام

كل الذين يطلبون الرزق

من دكانة الإسلام

قتلت إذ قتلته

يا سادتى الكرام

كل الذين منذ ألف عام

يزنون بالكلام ..

وقد نجح الشاعر نجاحا كبيرا فى رسم الصورة الشعرية على أساس أنها جريمة قتل لا يتنصل الشاعر منها بل يعترف ثلاث مرات بما فعله ويبرر الدافع الحقيقى وراء القتل وهو يقدم أداة القتل نفسها (الخنجر) فهو لا يبغى سوى التقدم لأمته ووطنه وكفاه ما أراد .

ولقد حاول نزار أن يحرك إحساس أمته كى تنهض بين الأمم وتجد لها مكانا فى العالم الجديد ، ولكنه لم ينجح فشعره هباء ، وأحلامه ضاعت بين الأوضاع العربية المتردية ، فمصر تتخلى عن عروبتها ووطنيتها وتصالح العدو وتنعزل عن العرب ، والمغرب تبتلع الجمهورية الصحراوية ، والعراق يحاول ابتلاع إيران وتدميرها بتحريض سعودى مصرى وخليجى فى حرب دموية لا أخلاقية ولا إسلامية دامت ثمانى سنوات ، ثم يبتلع الكويت ، وينقلب عليه حلفاء الأمس من الخليج ومصر ويجلبون ويستدعون القوات الأمريكية لضربه وطرده من الكويت ، ثم حصاره وشعبه لثلاث عشرة سنة تالية حتى نضجت الثمرة وحان قطافها فغزت أمريكا العراق واستولت عليه .. ووضعت حلفاءها الخونة الأكراد على رأسه وأعدمت رئيسه صدام حسين فى عيد الأضحى فى30 ديسمبر 2006 .. والعرب والمصريون بتخلفهم وبلادتهم وغفلتهم قابعون وراضون ومتآمرون ومشاركون فى الخيانة ، واليوم يحرضون على حماس وحزب الله وسوريا وإيران ، ويمقتون جورج جالاوى وهوجو شافيز ورجب طيب أردوغان ومحمود أحمدى نجاد وخمينى وخامننى وإسماعيل هنية وخالد مشعل ويستعملون ضدهم خارجيتهم ومخابراتهم .. لذلك كانت صرخة نزار المدوية منذ 1998 ، نفس عام وفاته ، تحت عنوان (متى يعلنون وفاة العرب ؟) ، فيها يحاول تخيل بلاد

عربية غير الحقيقية ، ينعم فيها بالحرية حرية الحب والجنس والثورة ، وينعم بها بالتسامح والنهضة ، لا بلاد مخابراتية ولا دكتاتورية ولا قاسية ولا قمعية ولا بوليسية ولا متعصبة ولا معقدة :

أحاولُ منذ الطفولةِ رسْمَ بلادٍ

تُسمّى - مجازا - بلادَ العَرَبْ

تُسامحُنى إن كسرتُ زُجاجَ القمرْ...

وتشكرُنى إن كتبتُ قصيدةَ حبٍ

وتسمحُ لى أن أمارسَ فعْلَ الهوى

ككلّ العصافير فوق الشجرْ...

أحاول رسم بلادٍ

تُعلّمنى أن أكونَ على مستوى العشْق دوما

فأفرشَ تحتكِ ، صيفا ، عباءةَ حبي

وأعصرَ ثوبكِ عند هُطول المطرْ...

أحاولُ رسْمَ بلادٍ...

لها برلمانٌ من الياسَمينْ.

وشعبٌ رقيق من الياسَمينْ.

تنامُ حمائمُها فوق رأسى.

وتبكى مآذنُها فى عيونى.

أحاول رسم بلادٍ تكون صديقة شِعْرى.

ولا تتدخلُ بينى وبين ظنونى.

ولا يتجولُ فيها العساكرُ فوق جبينى.

أحاولُ رسْمَ بلادٍ...

تُكافئنى إن كتبتُ قصيدةَ شِعْرٍ

وتصفحُ عنى ، إذا فاض نهرُ جنونى

أحاول رسم مدينةِ حبٍ...

تكون مُحرّرةً من جميع العُقدْ...

فلا يذبحون الأنوثة فيها ... و لا يقمَعون الجَسَدْ...

****

يحاول الشاعر ذلك لكنهم يمنعونه من تصور مثل تلك البلاد المثالية الصالحة حتى والتى يستقر بها المبدع دون خوف من قتل أو تنكيل أو نفى أو طرد أو سجن ، فأى محاولة للإصلاح والتغيير للأفضل تواجه بكل عنف وكل قمع :

أحاول رسمَ بلادٍ

422

تُسمّى - مجازا - بلادَ العربْ

سريرى بها ثابتٌ

ورأسى بها ثابتٌ

لكى أعرفَ الفرقَ بين البلادِ وبين السُفُنْ ...

ولكنهم ... أخذوا عُلبةَ الرسْمِ منّى .

ولم يسمحوا لى بتصوير وجهِ الوطنْ ...

أحاول منذ الطفولةِ

فتْحَ فضاءٍ من الياسَمينْ

وأسّستُ أولَ فندق حبٍ...بتاريخ كل العربْ...

ليستقبلَ العاشقينْ...

وألغيتُ كل الحروب القديمةِ...

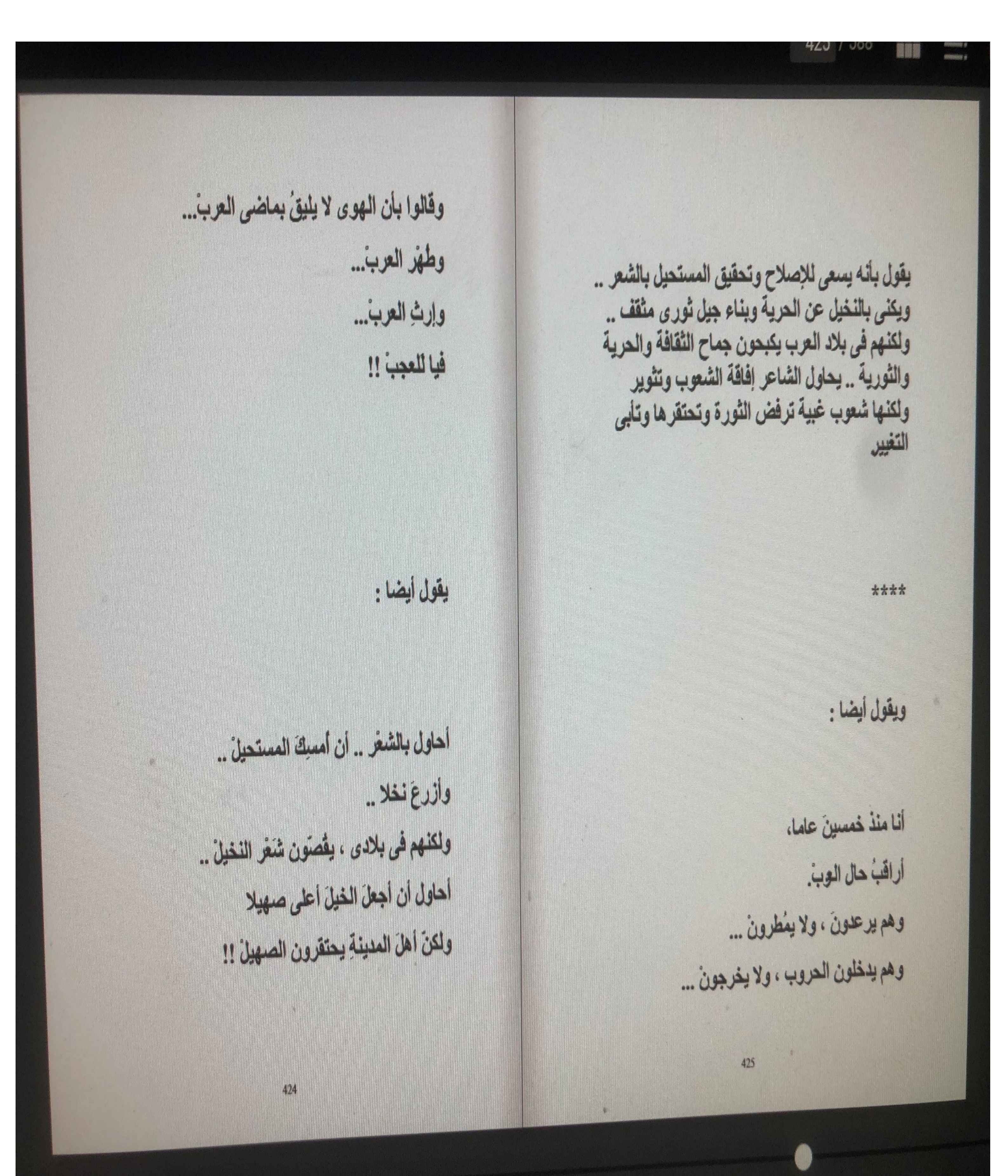
بين الرجال... وبين النساءْ...

وبين الحمام... ومَن يذبحون الحمامْ...

وبين الرخام ومن يجرحون بياضَ الرخامْ...

ولكنهم ... أغلقوا فندقى ...

423



وقالوا بأن الهوى لا يليقُ بماضى العربْ...

وطُهرِ العربْ...

وإرثِ العربْ...

فيا للعجبْ !!

يقول أيضا :

أحاول بالشعْرِ .. أن أمسكَ المستحيلْ ..

وأزرعَ نخلا ..

ولكنهم فى بلادى ، يقُصّون شَعْرَ النخيلْ ..

أحاول أن أجعلَ الخيلَ أعلى صهيلا

ولكنَّ أهلَ المدينةِ يحتقرون الصهيلْ !!

424

يقول بأنه يسعى للإصلاح وتحقيق المستحيل بالشعر .. ويكنى بالنخيل عن الحرية وبناء جيل ثورى مثقف .. ولكنهم فى بلاد العرب يكبحون جماح الثقافة والحرية والثورية .. يحاول الشاعر إفاقة الشعوب وتثوير ولكنها شعوب غبية ترفض الثورة وتحتقرها وتأبى التغيير

****

ويقول أيضا :

أنا منذ خمسينَ عاما،

أراقبُ حال العربْ.

وهم يرعدونَ ، ولا يمُطرونْ ...

وهم يدخلون الحروب ، ولا يخرجونْ ...

425

وهم يعلِكونَ جلود البلاغةِ علْكا

ولا يهضمونْ ...

إن العرب ظاهرة صوتية لا تحارب حقا ، ولا تنفذ تهديداتها حقا إن هددت .. بل حروبهم كلامية خطابية وهمية معنوية مجازية لا سيف حقيقى فيها ولا رمح ، ولا دبابة فيها ولا صاروخ.

يقول أيضا :

أنا منذ خمسينَ عاما

أحاولُ رسمَ بلادٍ

تُسمّى - مجازا - بلادَ العربْ

رسمتُ بلون الشّرايين حينا

وحينا رسمت بلون الغضبْ.

وحين انتهى الرسمُ ، ساءلتُ نفسى :

إذا أعلنوا ذاتَ يومٍ وفاةَ العربْ ...

ففى أى مقبرةٍ يُدْفَنونْ ؟

ومَن سوف يبكى عليهم ؟

وليس لديهم بناتٌ ...

وليس لديهم بَنونْ ...

وليس هنالك حُزْنٌ ،

وليس هنالك مَن يحزُنونْ!

أحاولُ منذُ بدأتُ كتابةَ شِعْرى

قياسَ المسافةِ بينى وبين جدودى العربْ.

رأيتُ جُيوشا ... ولا من جيوشْ ...

رأيتُ فتوحا ... ولا من فتوحْ ...

وتابعتُ كلَ الحروبِ على شاشةِ التلفزة ...

وهنا يعلن مبدأ التمرد والثورية ورفض الرجعية ورفض التقليد الأعمى ، وإعمال العقل ومخالفة السائد .. مخالفة الوهابية والنقاب والحجاب والمباركية والرأسمالية والأمركة ...

أحاول منذ البداياتِ ...

أن لا أكونَ شبيها بأى أحدْ...

رفضتُ الكلامَ المُعلَّبَ دوما.

رفضتُ عبادةَ أى وثنْ ...

ثم يفضح أوضاع بلاد العرب الحقيقية الواقعية ، ونفاق الصحف والشعراء للحكام :

فقتلى على شاشة التلفزة ...

وجرحى على شاشة التلفزة ...

ونصرٌ من الله يأتى إلينا ...على شاشة التلفزة ...

يريد الشاعر تثوير الشعوب ، واستعمال اللون الأحمر رمزا لها ، لون الثورة والاشتراكية ، ولون الغضب ، ويؤكد أن العرب لو ابتلعهم البحر كلهم فجأة أو انشقت الأرض والتهمتهم فلن يأسف لهم أحد ولن ينعيهم أحد ولن يهتم لهم أحد لأن مجرد صفر على الشمال أو مجرد نكرة .. وليس لديهم أنصار حول العالم ولا أصدقاء ولا لوبى .. وليس لهم أتباع ولا تلامذة تتلمذوا على أيديهم على مستوى العالم .. فهم لم يفيدوا العالم بشئ حتى يحزن لوفاتهم وفراقه إياهم.. يؤكد من جديد إن العرب ظاهرة صوتية لا تحارب حقا ، ولا تنفذ تهديداتها حقا إن هددت .. بل حروبهم كلامية خطابية وهمية معنوية مجازية لا سيف حقيقى فيها ولا رمح ، ولا دبابة فيها ولا صاروخ .. وإنهم مختلفون عن أجدادهم وماضيهم التليد .. ففى الماضى البعيد كانت حروبهم حقيقية ومؤثرة ومنتجة ومثمرة .. أما اليوم فحروبهم تلفزيونية خطابية افتراضية وهمية ، لا أثر لها ولا جدوى منها ولا نتائج لصالحهم منها ..

أحاول - مذ كنتُ طفلا ، قراءة أى كتابٍ

تحدّث عن أنبياء العربْ.

وعن حكماءِ العربْ... وعن شعراءِ العربْ...

فلم أر إلا قصائدَ تلحَسُ رجلَ الخليفةِ

من أجل جَفْنةِ رز ... وخمسين درهمْ...

فيا للعَجَبْ!!

ولم أر إلا قبائل ليست تُفرّق ما بين لحم النساء...

وبين الرُطبْ ...

فيا للعَجَبْ!!

ولم أر إلا جرائد تخلع أثوابها الداخلية ...

لأى رئيسٍ من الغيب يأتى ...

وأى عقيدٍ على جُثّة الشعب يمشى ...

وأى مُرابٍ يُكدّس فى راحتيه الذهبْ ...

فيا للعَجَبْ !!

ثم يكشف سلبية الشعوب العربية وجهلها والتى ترى أن المباحث والداخلية وأمن الدولة والأجهزة البوليسية للحاكم العربى الدكتاتور هى قدر لا مرد له ، وقضاء وأمر إلهى لا حيلة لهم فيه وفى تغييره ، مثل أمراض الجذام والجرب والزكام :

أنا ... بعْدَ خمسين عاما

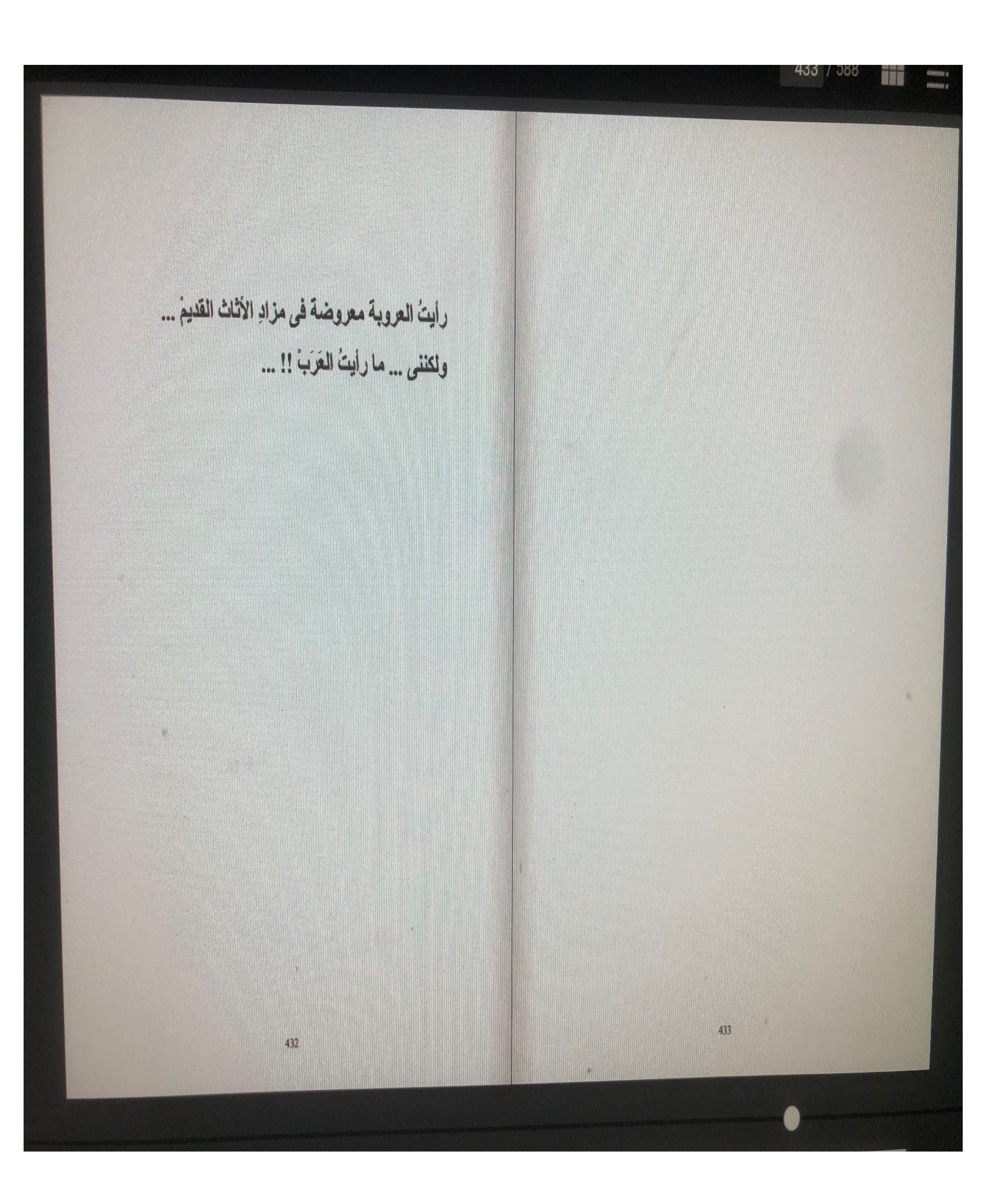
أحاول تسجيل ما قد رأيتْ ...

رأيتُ شعوبا تظنّ بأنّ رجالَ المباحثِ

أمْرٌ من الله ... مثلَ الصُداع ... ومثل الزُكامْ ...

ومثلَ الجُذام ... ومثل الجَرَبْ ...

ونتيجة لذلك التردى كله ، أصبحت العروبة مادة متحفية وتحفة تباع فى مزاد الأثاث والتحف القديمة .. وتلاشى العرب تماما.



رأيتُ العروبة معروضة فى مزادِ الأثاث القديمْ ...

ولكننى ... ما رأيتُ العَرَبْ !! ...

432

433

الفصل السابع : الحرية فى شعر نزار

يعتبر العالم العربى سياسيا جزءا من العالم الثالث ، وهذا الاعتبار يضع العالم العربى فى ذيل قائمة الشعوب التى تتمتع بقسط قليل من الحرية والديمقراطية .

إن مشكلتى الحرية والديمقراطية أصبحتا هما قوميا كبيرا فى المنطقة العربية ، كما أصبحتا تستنزفان جزءا هاما من الفكر العربى المعاصر .

ولقد كان من السهل فى السابق إرجاع العلاقات اللاديمقراطية فى كثير من الأقطار العربية إلى سيطرة فئات مستغلة محدودة على مصادر الإنتاج والثروة واستغلالها للطبقات الشعبية الواسعة ، وكذلك إلى وجود احتلال أجنبى أو قواعد أجنبية أو علاقات تبعية تربط هذه الأقطار المعسكر الاستعمارى إلا أن الوضع ازداد تعقيدا عندما نهضت حركات وأحزاب سياسية

434

تطرح بشكل أو بآخر شعارات التحرر الوطنى والعدل الاجتماعى ، واستطاعت تسلم السلطة فى كثير من أقطار الوطن العربى ، وبرغم كون هذه الحركات قد نشأت تعبيرا واستجابة لمطالب حقيقية للطبقات الشعبية العربية وأنها - فرضا - ممثلة هذه الجماهير ووسيلتها لتحقيق أمانيها نجد أن صورة الواقع الملموس تختلف عما يطرح وعما يفترض ، فالإنسان العربى فى هذه الأقطار يعانى أيضا من الكبت والقهر فتحريم الرأى المعارض ومطاردة القوى السياسية الأخرى ومحاولة تصفيتها تكاد تكون قاعدة عامة ، للأسف الشديد . (وليس معنى ذلك التحيز للملكية أو للفكر الوهابى السعودى أو للاستعمار والعهود الملكية البائدة أو النظم الملكية العربية الحالية ولا للإخوان فهى جميعا شر مطلق مرفوض جملة وتفصيلا .. بل هو أسف على الجمهوريات التى بدأت تتحول إلى ملكيات وراثية مقنعة كما الحال فى مصر واليمن .. والتى أصبحت مستبدة يؤبد فيها الرئيس ليس لفترة أو فترتين أو ولاية أو ولايتين بل لخمس أو ست ولايات أى لثلاثين وأربعين سنة دون تغييره بل ويخطط لتمرير السلطة لأولاده وأحفاده ..) .

وقد وصل الأمر بهذه النظم إلى تصفية الرأى المعارض حتى داخل التنظيم الواحد والحزب الواحد والفئة الحاكمة الواحدة (على طريقة : اللى تفتكره موسى

435

يطلع فرعون برضه) وقد ساهم ذلك فى بث شك عميق لدى الجماهير العربية بجدية القوى السياسية ، وعزف الإنسان العربى بوجه عام عن المساهمة الإيجابية فى كثير من الأحداث المصيرية وامتناعه عن اتخاذ المواقف التى تتطلبها ، فهو لم يعد يطيق الهموم الجديدة الثقيلة فى القهر السياسى وحجر الرأى ومصادرة الحقوق الأساسية وامتهان الكرامة ، والديمقراطية وفى العالم الثالث على وجه الخصوص لا يمكن أن تسير إلا بجناحيها ، الجناح السياسى والجناح الاقتصادى وذلك بتوزيع الدخل القومى توزيعا عادلا لأنه فى مجتمع لا تتكافأ فيه الفرص ، تصبح الديمقراطية والعمليات الانتخابية بيعا وشراء وكذلك لا يكفى أن يصدر دستور ديمقراطى بل يجب أن يربى الناس تربية ديمقراطية وأن يتعودوا ممارستها وأن تصبح قيمة مستقرة فى أعماقهم يقيسون بها ضمن ما يقيسون كل ما يعرض عليهم أو يطرح لأخذ رأيهم ، لكن نزارا ركز فى شعره السياسى على الجناح السياسى للديمقراطية ، مسقطا مشكلة العدالة الاجتماعية ، وهى لا تقل أهمية عن الأولى حيث يعانى المجتمع العربى من أوضاع اقتصادية يحكمها تفاوت عنيف بين من يملكون الكثير ومن لا يملكون شيئا وهم الأغلبية ، وبينما يعيش بعض العرب - ومنهم نزار- فى العواصم الأوروبية حياة راحة ورخاء ، فإن هناك عربا آخرين يموتون جوعا ، ويعود اختيار "نزار" لقضية الحرية كمدخل أساسى لثورته الشعرية لأسباب

عديدة منها أنه فنان وصاحب قلم ، وأن مشكلة التعبير الحر عنده هى أول ما يعانيه ويصطدم به . إن الكلمة غير الحرة لا قيمة لها عند نزار ولا عند أى فنان حقيقى صادق ، ومعنى أن تكون الكلمة مقيدة هو أن تموت الكلمة ويموت الفن ، ففى ظل القهر والطغيان لا مكان للفن أو للفنان ، وخاصة ذلك الفن الذى يعتمد على الكلمة فى التعبير . هذا سبب رئيسى فى أن ثورة نزار الشعرية تجعل الحرية محورا قبل أى قضية أخرى من قضايا الإنسان العربى ، وهناك أسباب أخرى منها عمله لفترة طويلة من حياته الدبلوماسية فى بلاد أوروبية مختلفة وكان يشعر فى هذه البلاد بنعمة الحرية الإنسانية التى يتمتع بها الناس والتى تمتع هو بها خلال تنقله بين بلاد أوروبا المختلفة ، ولا شك أن الفترات التى أقامها نزار فى الدول الأوروبية خلال عمله الدبلوماسى قد عمقت فيه إحساسه بقضية الحرية وقيمتها وأهميتها ومن ناحية أخرى فإن نزارا عاش طفولته وشبابه الأول فى أسرة دمشقية ميسورة ولم تكن هذه الأسرة من أصحاب الثروات الضخمة ولكنها فى الوقت نفسه لم تكن تعانى من أزمات اقتصادية حادة ، وعندما تقدم نزار فى السن والحياة الاجتماعية والفنية كان نجاحه سريعا وكبيرا فى الوطن العربى كله ، ولذلك فإن المشكلة الاقتصادية لم تكن فى يوم من الأيام عنصرا ضاغطا على نزار ، ومن هنا كانت مشكلة العدالة الاجتماعية تأتى فى الدرجة الثانية من اهتمامه بعد مشكلة الحرية .

ويمكننا أن نضيف إلى ذلك كله ما أشار إليه بعض النقاد من أن نزارا يمثل فى جانب من شخصيته الإنسانية والفنية ذلك النوع النرجسى من الشخصيات ، والنرجسية فى جانب منها تعنى الإعجاب بالنفس وعشق الذات ، وليس من السئ عشق المرء لنفسه فلولاه ما تمسك بالحياة ولما سعى لفعل الخيرات لينجو بنفسه من غضب الله مثلا ولولاه ما سعى لطلب العلم والتفوق على الناس بالعلم والجهد والطموح ، وبالمال والثياب والنظافة ، ولولاه ما تأدب مع الناس لتصبح صورته حلوة أمامهم .. فالنرجسية ليست سبة ولا غرور ولا نقيصة كما يظن الكثيرون .. ما دامت لا تدمر الآخرين لصالح الذات ولا تتكبر ، وطالما كانت مترفقة مع الغيرية وحب مساعدة الآخرين وحب الآخرين .. وفى جانب آخر من النرجسية وهو جانب إيجابى أيضا لا سلبى ، فهو الاعتزاز بالنفس والرفض الحاد لأى شئ يمكن أن يتحول إلى قيد على حرية الإنسان وشخصيته ، من هذا كله كانت قضية الحرية عند نزار قبانى هى أصل الأصول جميعا فى ثورته الشعرية وإذا كانت هذه العوامل كلها عوامل ذاتية ، فهناك إلى جانب ذلك ، بل وقبل ذلك السبب العام ، وهو نضال الإنسان العربى من أجل حريته وخلاصه من القهر والطغيان والاستبداد والحكام الظلمة من آل سعود ومبارك وعلى عبد الله صالح ومحمد السادس وعبد الله الثانى

ومحمود عباس ، وذلك لا شك عنصر أساسى من عناصر التأثير فى نزار إذ لا يرى حلا للمجتمع العربى أو للإنسان العربى إلا فى توفير الحرية وقد كانت الهزيمة هى الشرارة التى فجرت الشاعر ضد الحكام العرب - ليس فى وقتها فحسب بل ولليوم - وكشفت أسباب الهزيمة الأساسية ، فى قصيدته (هوامش على دفتر النكسة) :

يا سيّدى.

يا سيّدى السلطانْ

لقد خسرتَ الحربَ مرتينْ

لأنَّ نصفَ شعبنا .. ليسَ لهُ لسانْ

ما قيمةُ الشعبِ الذى ليسَ لهُ لسانْ ؟

لأنَّ نصفَ شعبنا.

محاصرٌ كالنملِ والجرذانْ.

فى داخلِ الجدرانْ.

لو أحدٌ يمنحنى الأمانْ

لو كنتُ أستطيعُ أن أقابلَ السلطانْ

قلتُ لهُ : يا سيّدى السلطانْ

كلابكَ المفترساتُ مزّقت ردائى

ومخبروكَ دائماً ورائى.

عيونهم ورائى.

أنوفهم ورائى.

أقدامهم ورائى.

كالقدر المحتوم ، كالقضاءِ

يستجوبونَ زوجتى

ويكتبونَ عندهم.

أسماءَ أصدقائى.

يا حضرةَ السلطانْ

لو أحدٌ يمنحُنى الأمانْ

من عسكر السلطانْ.

قلتُ لهُ: لقد خسرتَ الحربَ مرتينْ.

لأنكَ انفصلتَ عن قضيةِ الإنسانْ ..

فالشاعر لا يملك أمان الكلمة ، وتأتى روعة استخدام الأداة "لو" فى هذا المكان ، والتى تفيد امتناع قول الشاعر ما يريد لامتناع الأمان ، ثم الاستفهام فى البيت الرابع الذى يوضح بلا شك أن الفرد المهان لا يمكن أن يجلب نصرا للأمة ، ولذلك يصور الشاعر حال الدولة البوليسية ، وما يعتريها من القمع والاستبداد والتى يقع معظم العرب تحت قبضتها خصوصا فى بلاد محور الاعتلال (الذى تسميه أمريكا محور الاعتدال) :

443 / 588

والشاعر يلجأ فى دعوته للحرية إلى التجسيد أى إعطاء الظاهرة صورتها النهائية ، حتى ولو كان فى ذلك شئ من المبالغة وهذا الأسلوب هو أحد الأساليب الفنية المؤثرة ، عندما يريد الشاعر أن يثير اهتمام الآخرين بما يدعو إليه ، كما فى قصيدته (مورفين) :

اللفظةُ طابةُ مطاطٍ.

يقذفُها الحاكمُ من شُرفتهِ للشارعْ.

ووراءَ الطابةِ يجرى الشعبُ

ويلهثُ .. كالكلبِ الجائعْ ..

****

اللفظةُ، فى الشرق العربىِّ

لأننى اقتربتُ من أسوارِكَ الصمَّاءِ

لأننى.

حاولتُ أن أكشفَ عن حزنى .. وعن بلائى

ضُربتُ بالحذاءِ.

أرغمنى جندُكَ أن آكُلَ من حذائى

أتذكرون حادثة المواطن البورسعيدى الطيب (السيد حسين سليمان) وشهرته "العربى" فى سبتمبر 1999 ، حين تقدم نحو سيارة مبارك لتقديم ورقة شكوى إليه ، فقتله الجنود وظنوه يحاول اغتيال الرئيس وادعوا كذبا أنه كان يحمل مدية "مطواة" أو زجاجة ماء نار ... وما حصل بعدها من تنكيل لأهالى مدينة بورسعيد .. ألا تنطبق عليها كلمات نزار الآنفة الذكر .

أراجوزٌ بارعْ

يتكلَّمُ سبعة ألسنةٍ..

ويطلُّ بقبّعةٍ حمراءْ

ويبيعُ الجنّةَ للبسطاءْ

وأساورَ من خرزٍ لامعْ

ويبيعُ لهمْ.

فئراناً بيضاً .. وضفادعْ

****

اللفظةُ جسدٌ مهترئٌ

ضاجعهُ الكاتبُ ، والصحفىُّ

وضاجعهُ شيخُ الجامعْ ..

****

اللفظةُ إبرةُ مورفينٍ

يحقنُها الحاكمُ للجمهورِ..

منَ القرنِ السابعْ

****

اللفظةُ فى بلدى امرأةٌ

تحترفُ الفحشَ.

منَ القرنِ السابعْ ..

وكذلك قوله فى قصيدته (أنا يا صديقة متعب بعروبتى) :

والعالم العربى إما نعجة

مذبوحة أو حاكم قصاب

لكن ما مفهوم الحرية لدى الشاعر ؟ يقول الشاعر فى كتابه (الكتابة عمل انقلابى) : "أتصور ، أنه لابد وأن نتفق على تعريف مبدئى لمعنى الحرية حتى لا تتداخل حدود الأشياء ، وتضطرب الرؤية ويختلط اللون الأبيض باللون الأسود".

"وأول ما أتصوره هو أن الحرية حركة فردية داخل دائرة الجماعة وهذه الجماعة يمكن أن تكون أسرة ، أو قبيلة أو جمعية ، أو مدرسة ، أو وطنا ، ومعنى هذا أن الحرية خط هندسى ضمن دائرة ، وليست أبدا حركة فى الفراغ أو فى المطلق ، وكما أن البحر محدود

بالشواطئ ، والريح محدودة بالجبال ، والأنهار محدودة بضفافها ، والطائرات محدودة بمدارج الصعود والهبوط ، فإن الإنسان هو الآخر محدود بمسؤوليته ، واستعمال الحرية ، كاستعمال المستحضرات والعقاقير الطبية ، لا يمكن أن يكون بغير مقاييس ومعايير وضوابط وإلا كانت الحرية قاتلة ، وللحرية دائما جانبان متعادلان جانب يختص بنا وجانب يختص بالآخرين ، وكل محاولة منا لنسيان الجانب الآخر يفقد الحرية معناها الأساسى . لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارا بغير شك .. ولكنهن لم يلدننا فى الغابة ، وإنما ولدننا فى إطار البيت والأسرة ونظام اجتماعى نشترك فى تأسيسه مع الآخرين ، وقد عرفت الأنظمة الاشتراكية كيف تصقل حرية الفرد ، وكيف تمنع تجاوزاته ، وكيف تسيطر على غريزة الطمع المركبة فيه .. بحيث تأتى حرية المجموع أولا وحرية الفرد ثانيا ، أما فى الأنظمة الليبرالية ، فإن الفرد يتصرف كوحش لا يتورع عن أكل كل ما يصادفه من أرض ومصانع وبشر .. وهو يعتقد أن الحرية التى يتيحها له النظام الليبرالى تمنحه الحق فى أن يمد ساقيه على رقبة البشرية ويسحق برأس ماله الخرافى واحتكاراته عظام المعذبين فى الأرض .. إن الحرية بحر لا ساحل له .. يركبه الرواد والمكتشفون ، ويركبه القراصنة ، وسمك القرش .. ونحن بالطبع نرفض الحرية التى ينادى بها سمك القرش لأنها تقوم أساسا على الجريمة والنشل والمتاجرة بلحوم الآخرين ، إن الحرية هى محصول حضارى لا يعرفه إلا

المتحضرون ، فالثعبان لا يُعطَى الحرية ، لأنه لا يحسن التصرف بها ، والذئب لا يمكن أن يدعى الحرية لأن تكوينه الأساسى تكوين عدوانى ، والقرصان لا يمكن أن يتكلم عن الحرية لأن غايته الأساسية أن يغتال البحر والمسافرين " .

والثعبان والذئب والقرصان رموز لبعض حكام العرب الذين أذاقوا شعوبهم ألوانا شتى من العذاب ، وأيضا رمز للإمبرياليين الأمريكيين أمثال بوش الابن وبوش الأب . يقول نزار فى قصيدته (لماذا يسقط متعب بن تعبان فى امتحان حقوق الإنسان) :

مسافرون نحن فى سفينة الأحزان

قائدنا مرتزق

وشيخنا قرصان

مكومون داخل الأقفاص كالجرذان

لا مرفأ يقبلنا

لا حانة تقبلنا

كل الجوازات التى نحملها

أصدرها الشيطان

كل الكتابات التى نكتبها

لا تعجب السلطان

ويقول أيضا :

حكامنا آلهة يجرى الدم الأزرق فى عروقهم

ونحن نسل الجارية

إذا مضى طاغية

سلمنا لطاغية

والحرية ليست حرية واحدة بل حريات .. حرية سياسية وحرية كلام وحرية تعبير وحرية صحافة وحرية فكر وحرية تفكير وحرية سياسية وحرية اجتماعية وحرية العقيدة والدين والمذهب وحرية أكاديمية وحرية علمية وحرية الاجتماعات والحركة. وحرية الخصوصية

وحرية تمتع الفرد بحياة كريمة آمنة دون تهديد باعتقال أو مصادرة أو رفع دعاوى إلخ .. حرية تداول الكتب بكافة أنواعها حتى التى لا تعجب الوهابيين .. والتى لا تعجب المباركيين .. والتى لا تعجب الساداتيين

حرية خلع الطغاة وتغيير الملوك والرؤساء .. وحرية المقاومة المسلحة والكفاح المسلح ضد الصهيونية والإمبريالية العالمية .. وحرية اعتناق الاشتراكية والشيوعية .. وحرية المرأة فى ارتداء ما يناسبها من ملابس وعدم فرض الملابس الوهابية عليها ولا التعرض لها من قبل الوهابيين ولو بشطر كلمة.

أفضل من كتب عن الحرية من شعرائنا عبد الرحمن الشرقاوى ونزار قبانى وأحمد فؤاد نجم (مثل محمد رسول الحرية للشرقاوى ومثل قصائده عن الحرية ، ومثل لأحمد فؤاد نجم قصائد حمامتك يا ريس ، وسوزان قالت جوزى ، ورسالة مباركك إلى شعب مصر .. يا شعبى حبيبى ، ومبروك يا عريسنا ، وبحبك يا ريس ، وإحنا معاك ريسنا يا أنور ، وأوأه المجنون أبو برقوقة. والأخيرتان فى هجاء السادات) .

الحرية باختصار هى الكلمة التى تخيف مصادرى الكتب وحاظرى المواقع ومانعى الصحف ومكممى الأفواه .. هى الكلمة التى تخيف مبارك وآل سعود وعبد الله

الأردن ومحمد السادس وعلى عبد الله صالح وتخيف الوهابيين السلفيين والمباركيين والساداتيين. وهى كل قصيدة تهاجم الطغاة من مبارك لآل سعود لمحمد السادس وعلى عبد الله صالح .. وكل رسمة كاريكاتيرية تسخر منهم وتفضحهم .. وكل قصيدة تهجو إسرائيل وتقاوم وتحض على مقاومة الاحتلال الأمريكى والصهيونى للعراق وفلسطين الكاملة .. وكل قصيدة تعرفنا بأسماء مدن فلسطين بالداخل كحيفا ويافا إلخ .
كل قصيدة هاجمت العدوان الثلاثى على مصر ودعمت ثورة اليمن وثورة الجزائر وثورة سوريا وثورة فلسطين الكبرى وثورة العراق وهاجمت الاحتلال الفرنسى والبريطانى والأمريكى والإسبانى والصهيونى. وكل سلاح للمقاومة الفلسطينية واللبنانية والعراقية يوجه للصهيونية والإمبريالية الأمريكية والأوربية. وكل ساعد يمتد لخلع الطغاة من القاهرة إلى الرياض ومن عمان إلى صنعاء ومن بغداد إلى الرباط. وهى كل شعب عربى ينفض عن نفسه الطغاة بنفسه ويطرد الصهاينة ويمزق معاهدات الاعتراف والاستسلام . وهى كل من يتصدى للوهابيين والسلفيين وقنواتهم ومشايخهم ومؤسساتهم وكتبهم . وكل من يتصدى للديجيهات والسلوكيات المشينة لمجتمعنا المصرى . وأن أجد فى مصر كتب تضم خطب السيد حسن نصر الله كاملة .. وتدرس فى المدارس هى وخطب لينين وكل اشتراكى وكل مناضل ومقاوم فلسطينى ولبنانى ولاتينى وروسى. وأن تصبح الكتب

الممنوعة والمخفاة والتى لم تعاد طباعتها متوفرة كمباريات الكرة ورخيصة كأرغفة الخبز المدعم. وقناة العالم التى منعها وأوقفها العربسات السعودى والنايلسات المصرى .. وقناة المنار التى يهددها النظام المصرى بوقفها على النايلسات.

ومن أجمل ما كتب في الحرية : قصيدة الحرية لبول إيلوار ، وطعم الحرية لأحمد الصافى النجفى ، وقصيدة دمعة على جثمان الحرية لأحمد مطر.

وإذا كان بعض المفكرين العرب يرى أن الشعب العربى والسلطات العربية لم تدرك حتى الآن المعنى الحقيقى للحرية والتى تعنى فيما تعنى الديمقراطية المفتقدة فى العالم العربى (ما عدا استثناء مثل لبنان) ، فبالرغم من ترديد كلمة "الحرية" ليل نهار فى العالم العربى ، فإن هذا العالم لم يستطع أن يصل إلى صيغة عربية نهائية فى موضوع الديمقراطية كذلك ، وما زال الفكر العربى قاصرا دون وضع نظرية عربية للحرية نابعة من ظروفه السياسية والاقتصادية والدينية والفكرية ، ففى كثير من الأحيان ينتهى نظام الحكم بانقلاب عسكرى أو اغتيال أو بحكم الرجل الواحد ، كما كان الحاكم الذى قبل الانقلاب .. يكون الذى بعد الانقلاب .. ويموت زعيم

الثورة ينقلب رجال الثورة على مبادئها ويخونها ويخونوا الزعيم ، كما فعل السادات ومبارك مثلا مع مبادئ ناصر ..

ويمتلئ الدكتاتور (الحاكم الطاغية المستبد) بجنون العظمة ويدعى الألوهية ، يتحول إلى إله لشعبه .. كالفرعون الإله صاحب مقولة (أنا ربكم الأعلى وما علمت لكم من إله غيرى) ، فإذا شكك أحد الصحفيين فى صحة مبارك سُجن وحوكم ، رئيس لا يراه الناس ، قابع فى منتجع شرم الشيخ المنعزل المؤمن جيدا أو فى مصر الجديدة ... كأنه إله لا يمرض ولا يموت ، ويؤلهه حزبه الوثنى الدكتاتورى ، كما يؤلهه صحفيوه وإعلاميوه وحملة مباخره وجواسيسه وصبيانه على الانترنت واليوتيوب والفيس بوك والمنتديات .. يقول نزار فى قصيدته (السيرة الذاتية لسياف عربى) على لسان ذلك الحاكم الطاغية :

أيّها الناسُ:

لقد أصبحتُ سُلْطاناً عليكمْ

فاكسروا أصنامكم بعدَ ضلالٍ ،

واعبدوني.

إنني لا أتجلّى دائماً

فاجلسوا فوقَ رصيفِ الصبر ،

حتّى تبصروني .

ويقول أيضا :

احمدوا اللهَ على نعمتِهِ

فلقد أرسلني كي أكتبَ التاريخ ،

والتّاريخُ لا يُكتَبُ دوني

إنّني يوسفُ في الحُسن ،

ولم يخلق الخالقُ شعراً ذهبيّاً مثلَ شعري

وجبيناً نبويّاً كجبيني.

وعيوني.

غابةٌ من شجر الزيتون واللّوز،

فصلّوا دائماً .. كي يحفظ اللهُ عيوني

أيّها الناسُ:

أنا مجنونُ ليلى

فابعثوا زوجاتكم يحملنَ منّي

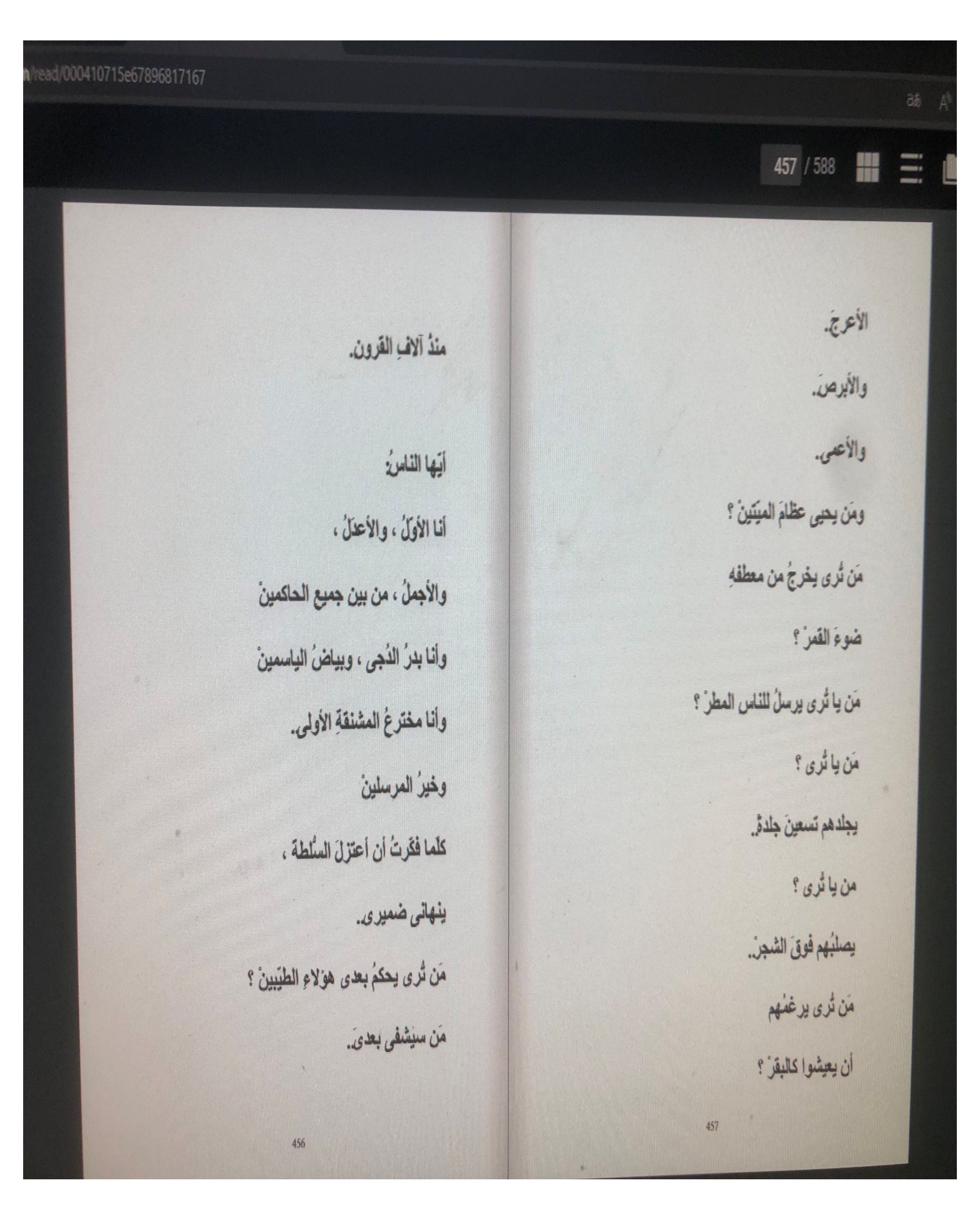
وابعثوا أزواجَكم كي يشكروني.

شرفٌ أن تأكلوا حنطة جسمي

شرفٌ أن تقطفوا لوزي .. وتيني

شرفٌ أن تشبهوني.

فأنا حادثةٌ ما حدثتْ



الأعرجَ.

والأبرصَ.

والأعمى.

ومَن يحيى عظامَ الميّتينْ ؟

مَن تُرى يخرجُ من معطفهِ

ضوءَ القمرْ ؟

مَن يا تُرى يرسلُ للناس المطرْ ؟

مَن يا تُرى ؟

يجلدهم تسعينَ جلدةْ.

من يا تُرى ؟

يصلبُهم فوقَ الشجرْ.

مَن تُرى يرغمُهم

أن يعيشوا كالبقرْ ؟

منذُ آلافِ القرون.

أيّها الناسُ:

أنا الأوّلُ ، والأعدلُ ،

والأجملُ ، من بين جميع الحاكمينْ

وأنا بدرُ الدُجى ، وبياضُ الياسمينْ

وأنا مخترعُ المشنقةِ الأولى.

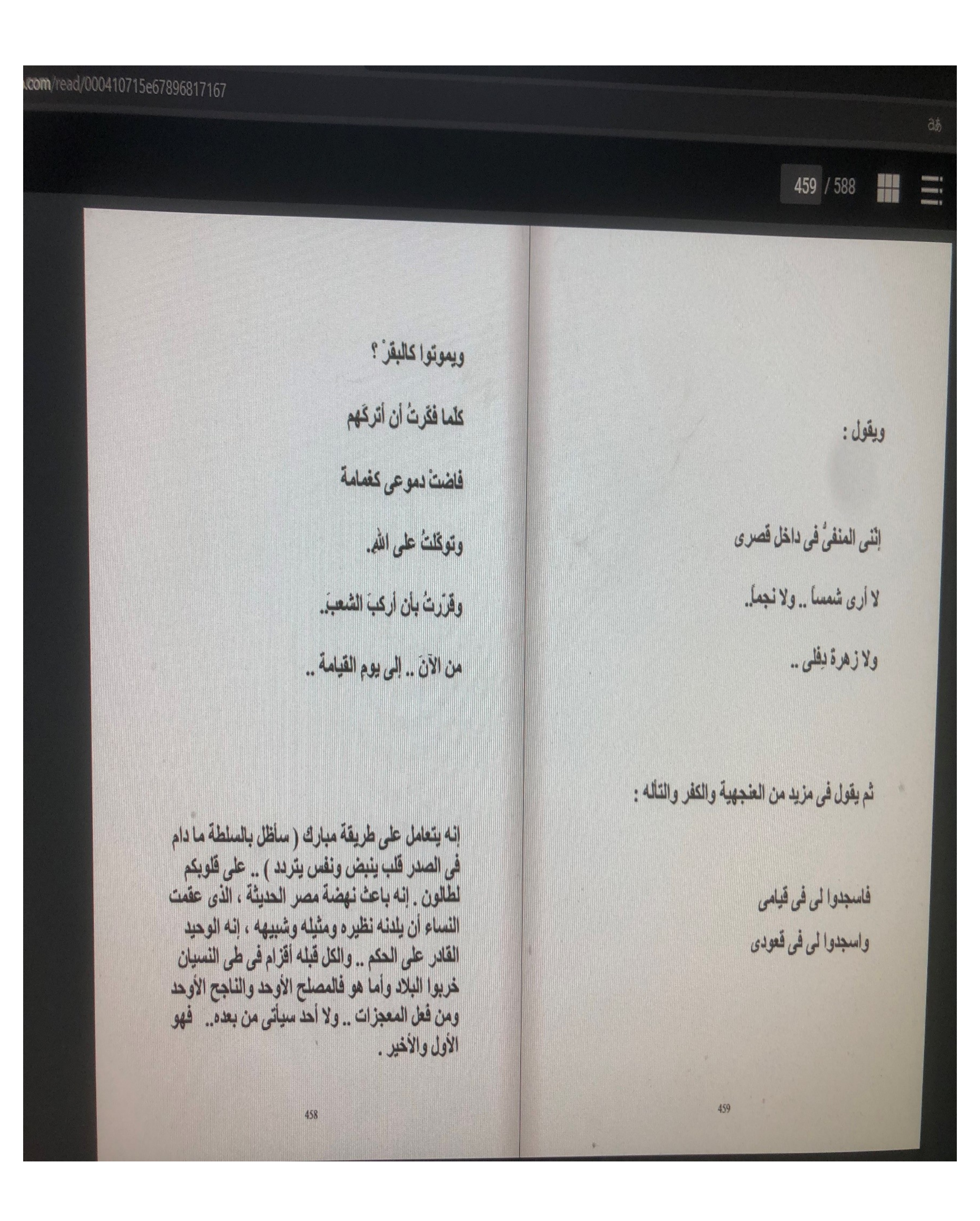
وخيرُ المرسلينْ

كلّما فكّرتُ أن أعتزلَ السُلطة ،

ينهانى ضميرى.

مَن تُرى يحكمُ بعدى هؤلاءِ الطيّبينْ ؟

مَن سيشفى بعدىَ.



ويموتوا كالبقرْ ؟

كلّما فكّرتُ أن أتركَهم

فاضتْ دموعى كغمامة

وتوكّلتُ على اللهِ.

وقرّرتُ بأن أركبَ الشعبَ..

من الآنَ .. إلى يومِ القيامة ..

إنه يتعامل على طريقة مبارك (سأظل بالسلطة ما دام فى الصدر قلب ينبض ونفس يتردد) .. على قلوبكم لطالون . إنه باعث نهضة مصر الحديثة ، الذى عقمت النساء أن يلدنه نظيره ومثيله وشبيهه ، إنه الوحيد القادر على الحكم .. والكل قبله أقزام فى طى النسيان خربوا البلاد وأما هو فالمصلح الأوحد والناجح الأوحد ومن فعل المعجزات .. ولا أحد سيأتى من بعده.. فهو الأول والأخير .

ويقول :

إننى المنفىُّ فى داخل قصرى

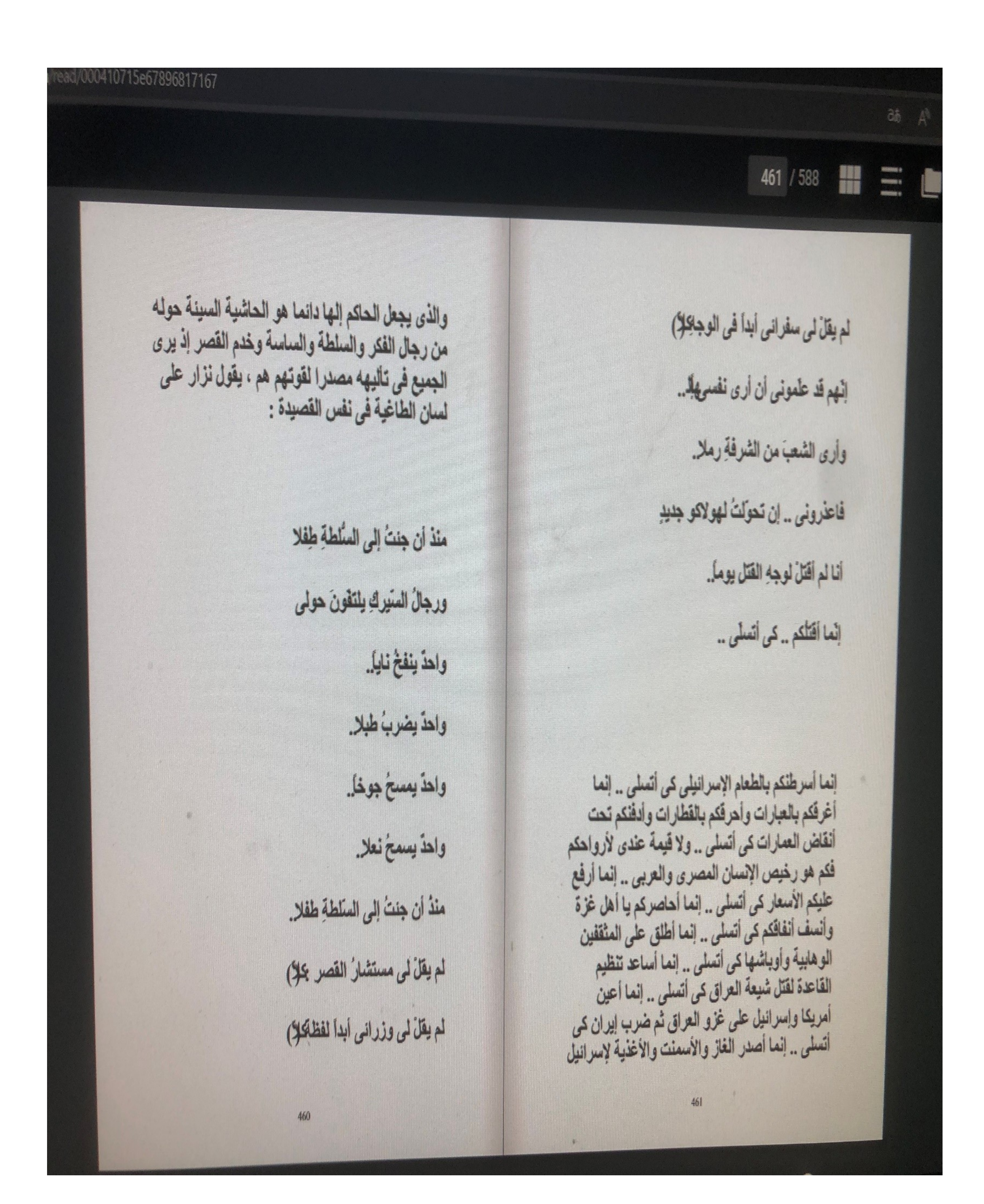
لا أرى شمساً .. ولا نجماً..

ولا زهرةَ بِفُلى ..

ثم يقول فى مزيد من العنجهية والكفر والتأله :

فاسجدوا لى فى قيامى

واسجدوا لى فى قعودى



/read/000410715e67896817167

461 / 588

والذى يجعل الحاكم إلها دائما هو الحاشية السيئة حوله من رجال الفكر والسلطة والساسة وخدم القصر إذ يرى الجميع فى تأليهه مصدرا لقوتهم هم ، يقول نزار على لسان الطاغية فى نفس القصيدة :

منذ أن جئتُ إلى السُّلطةِ طِفلا

ورجالُ السّيركِ يلتفونَ حولى

واحدٌ ينفخُ نايا..

واحدٌ يضربُ طبلا.

واحدٌ يمسحُ جوخاً.

واحدٌ يسمحُ نعلا.

منذُ أن جئتُ إلى السّلطةِ طفلا.

لم يقلْ لى مستشارُ القصر (كلا)

لم يقلْ لى وزرائى أبداً لفظ (كلا)

460

لم يقلْ لى سفرائى أبداً فى الوجه (كلا)

إنهم قد علّمونى أن أرى نفسى إلها..

وأرى الشعبَ من الشرفةِ رملا.

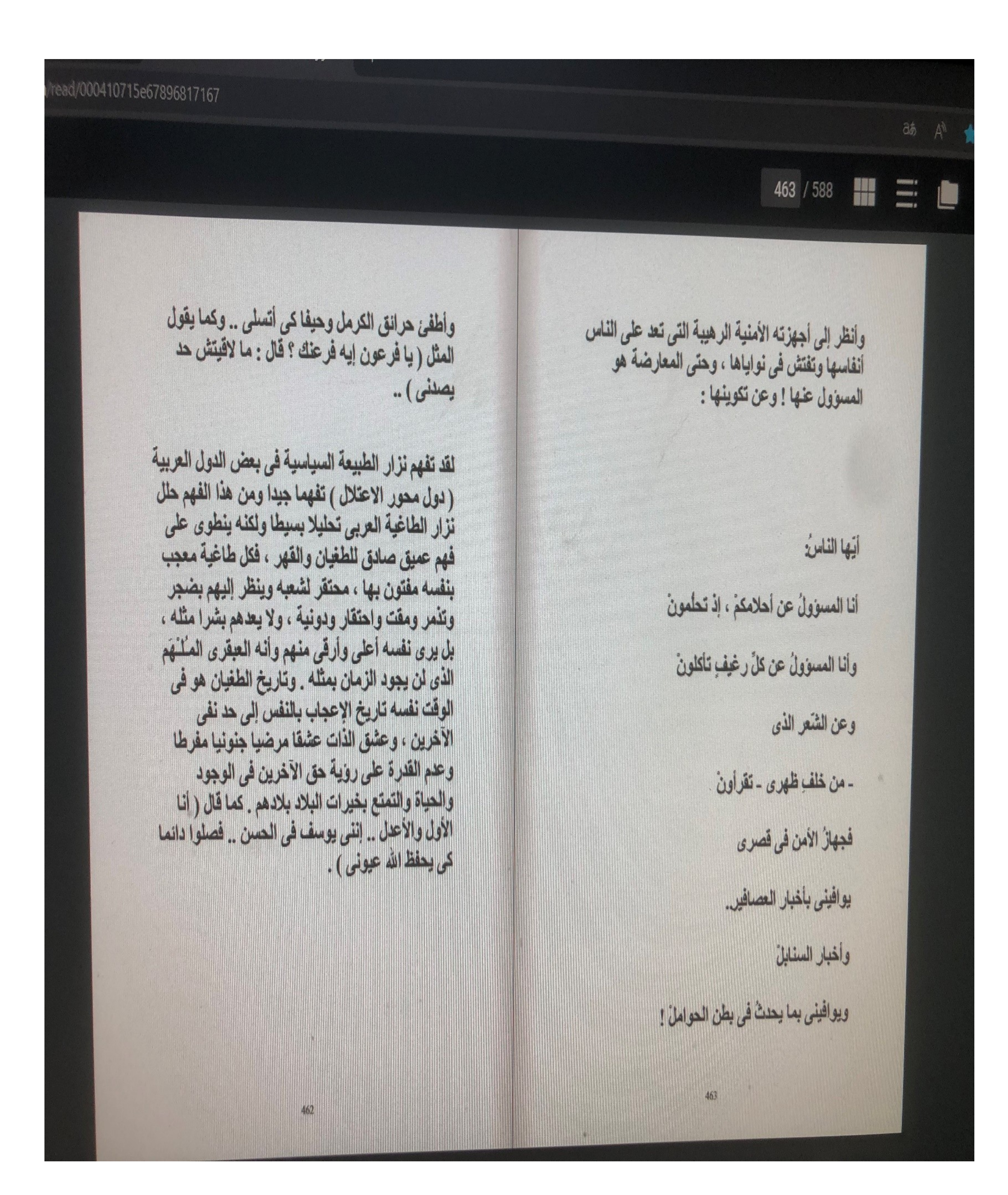
فاعذرونى .. إن تحوّلتُ لهولاكو جديدٍ

أنا لم أقتلْ لوجهِ القتل يوماً..

إنما أقتلُكم .. كى أتسلى ..

إنما أسرطنكم بالطعام الإسرائيلى كى أتسلى .. إنما أغرقكم بالعبارات وأحرقكم بالقطارات وأدفنكم تحت أنقاض العمارات كى أتسلى .. ولا قيمة عندى لأرواحكم فكم هو رخيص الإنسان المصرى والعربى .. إنما أرفع عليكم الأسعار كى أتسلى .. إنما أحاصركم يا أهل غزة وأنسف أنفاقكم كى أتسلى .. إنما أطلق على المثقفين الوهابية وأوباشها كى أتسلى .. إنما أساعد تنظيم القاعدة لقتل شيعة العراق كى أتسلى .. إنما أعين أمريكا وإسرائيل على غزو العراق ثم ضرب إيران كى أتسلى .. إنما أصدر الغاز والأسمنت والأغذية لإسرائيل

461



وأطفئ حرائق الكرمل وحيفا كى أتسلى .. وكما يقول المثل (يا فرعون إيه فرعنك ؟ قال : ما لاقيتش حد يصدنى) ..

لقد تفهم نزار الطبيعة السياسية فى بعض الدول العربية (دول محور الاعتلال) تفهما جيدا ومن هذا الفهم حلل نزار الطاغية العربى تحليلا بسيطا ولكنه ينطوى على فهم عميق صادق للطغيان والقهر ، فكل طاغية معجب بنفسه مفتون بها ، محتقر لشعبه وينظر إليهم بضجر وتذمر ومقت واحتقار ودونية ، ولا يعدهم بشرا مثله ، بل يرى نفسه أعلى وأرقى منهم وأنه العبقرى المُلْهَم الذى لن يجود الزمان بمثله . وتاريخ الطغيان هو فى الوقت نفسه تاريخ الإعجاب بالنفس إلى حد نفى الآخرين ، وعشق الذات عشقا مرضيا جنونيا مفرطا وعدم القدرة على رؤية حق الآخرين فى الوجود والحياة والتمتع بخيرات البلاد بلادهم . كما قال (أنا الأول والأعدل .. إننى يوسف فى الحسن .. فصلوا دائما كى يحفظ الله عيونى) .

462

وأنظر إلى أجهزته الأمنية الرهيبة التى تعد على الناس أنفاسها وتفتش فى نواياها ، وحتى المعارضة هو المسؤول عنها ! وعن تكوينها :

أيّها الناسُ:

أنا المسؤولُ عن أحلامكمْ ، إذ تحلُمونْ

وأنا المسؤولُ عن كلِّ رغيفٍ تأكلونْ

وعن الشّعر الذى

- من خلفِ ظهرى - تقرأونْ

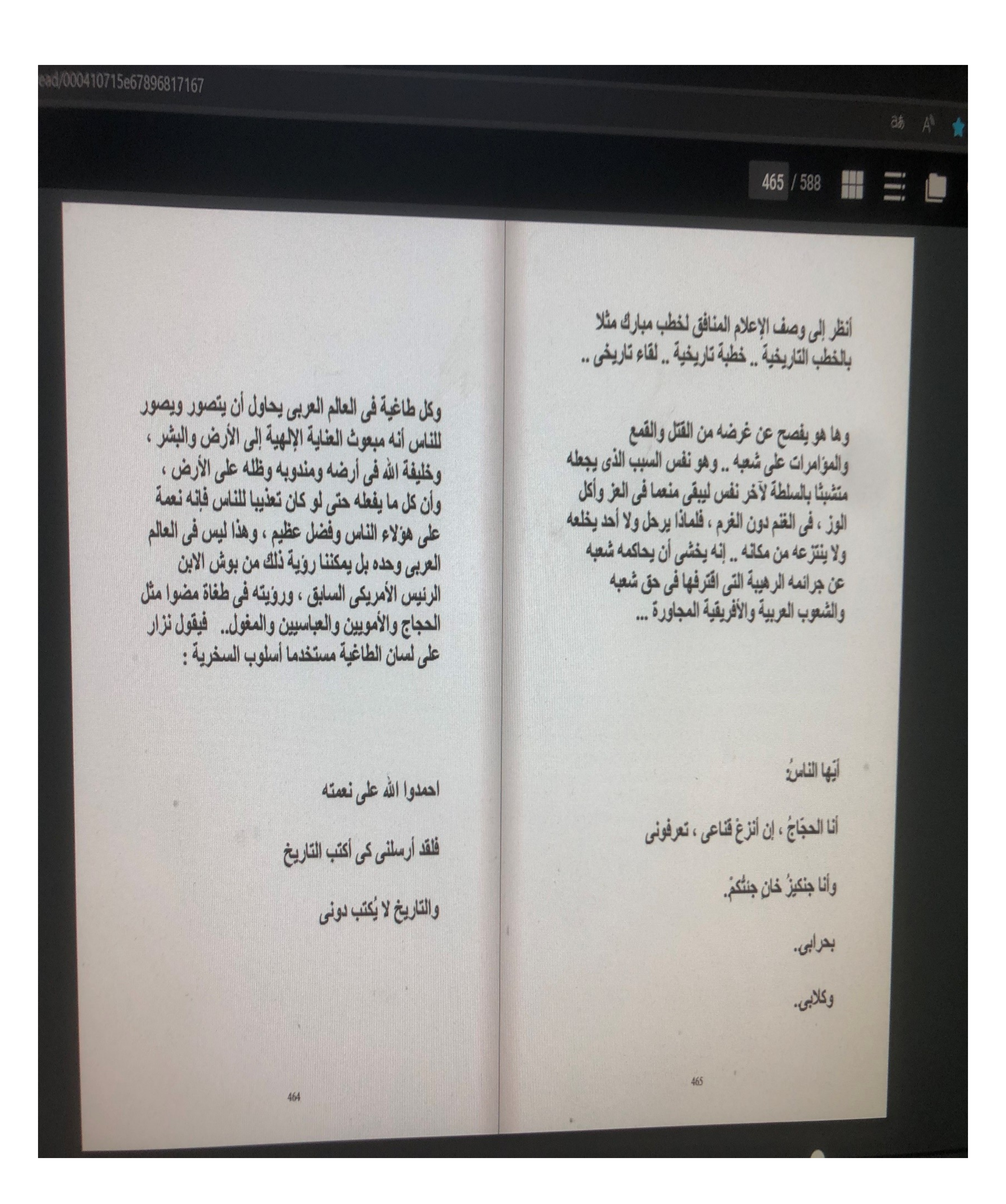
فجهازُ الأمن فى قصرى

يوافينى بأخبار العصافير.

وأخبار السنابلْ

ويوافينى بما يحدثُ فى بطن الحواملْ !

463



وكل طاغية فى العالم العربى يحاول أن يتصور ويصور للناس أنه مبعوث العناية الإلهية إلى الأرض والبشر ، وخليفة الله فى أرضه ومندوبه وظله على الأرض ، وأن كل ما يفعله حتى لو كان تعذيبا للناس فإنه نعمة على هؤلاء الناس وفضل عظيم ، وهذا ليس فى العالم العربى وحده بل يمكننا رؤية ذلك من بوش الابن الرئيس الأمريكى السابق ، ورؤيته فى طغاة مضوا مثل الحجاج والأمويين والعباسيين والمغول.. فيقول نزار على لسان الطاغية مستخدما أسلوب السخرية :

احمدوا الله على نعمته

فلقد أرسلنى كى أكتب التاريخ

والتاريخ لا يُكتب دونى

أنظر إلى وصف الإعلام المنافق لخطب مبارك مثلا بالخطب التاريخية .. خطبة تاريخية .. لقاء تاريخى ..

وها هو يفصح عن غرضه من القتل والقمع والمؤامرات على شعبه .. وهو نفس السبب الذى يجعله متشبثًا بالسلطة لآخر نفس ليبقى منعما فى العز وأكل الوز ، فى الغنم دون الغرم ، فلماذا يرحل ولا أحد يخلعه ولا ينتزعه من مكانه .. إنه يخشى أن يحاكمه شعبه عن جرائمه الرهيبة التى اقترفها فى حق شعبه والشعوب العربية والأفريقية المجاورة ...

أيها الناسُ

أنا الحجّاجُ ، إن أنزعْ قناعى ، تعرفونى

وأنا جنكيزُ خانِ جئتُكمْ.

بحرابى.

وكلابى.

467 / 588 

وسجونى.

لا تضيقوا - أيّها الناسُ - ببطشى

فأنا أقتلُ كى لا تقتلونى.

وأنا أشنقُ كى لا تشنقونى.

وأنا أدفنكم فى ذلك القبر الجماعىّ

لكيلا تدفنونى ..

إنه بأموال الشعب وأموال الدولة الطائلة يشترى الذمم .. يشترى الصحف والأقلام والشعر وكل شئ .. فهى فى نظره ليست أموال الشعب بل هى ميراث قديم من أبيه الحاكم السابق ..

466

أيّها الناسُ:

اشتروا لى صحفاً تكتبُ عنّى.

إنها معروضة مثلَ البغايا فى الشوارعْ

اشتروا لى.

ورقاً أخضرَ مصقولاً كأعشابِ الربيعْ

ومِداداً .. ومطابعْ.

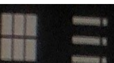
كلُّ شئ يُشترى فى عصرنا

حتّى الأصابعْ.

اشتروا فاكهةَ الفكر.

وخلّوها أمامى.

467



واطبخوا لى شاعراً

واجعلوهُ ، بينَ أطباق طعامى.

أنا أمّى.

وعندى عقدةٌ مما يقولهُ الشعراءْ

فاشتروا لى شعراءً يتغزّلونَ بحُسنى.

واجعلونى نجمَ كلِّ الأغلفة

فنجومُ الرقص والمسرح ،

ليسوا أبداً أجملَ منّى.

اشتروا لى كلَّ ما لا يُشترى

فى أرضنا أو فى السّماءْ

اشتروا لى.

غابة من عسل النحل.

ورطلاً من نساءْ.

فأنا بالعملةِ الصعبةِ أشْرى ما أريدْ

أشترى ديوانَ بشّار بنَ بُردٍ

وشفاهَ المتنبّى.

وأناشيدَ لبيدْ.

فالملايينُ التى فى بيتِ مال المسلمينْ

هيَ ميراثٌ قديمٌ لأبى

فخذوا من ذهبى

واكتبوا فى أمّهاتِ الكتبِ

أن عصرى.

عصرُ هارون الرشيدْ ...

لا شك أن السبب الأساسى وراء منع قصائد نزار أو تجاهلها وإخفاءها فى معظم الدول العربية لا سيما مصر والسعودية ، أن كل حاكم عربى لما يسمع تلك الكلمات يعلم أنها تقصده وتعنيه دون سواه .. فإياك أعنى واسمعى يا جارة. وكل يتحسس بطحته ..

إنه يرى ومعه منافقوه وربما جانب ضال من شعبه أنه لا يشيب ولا يشيخ .. صوره كلها وهو فى عمر أصغر من عمره الحالى .. صور قديمة .. وحتى لو عرضوا صوره الحالية فشعره (وسكسوكته) مصبوغ بالأسود الفاحم ولو بلغ الثانية والثمانين أو الخامسة والثمانين كعبد الله بن عبد العزيز آل سعود ، وكمبارك ..

فأنا لستُ أشيخْ.

جسدى ليسَ يشيخْ.

وسجونى لا تشيخْ.

وجهازُ القمع فى مملكتى ليسَ يشيخْ ..

ويبغ بالطاغية الدكتاتور الفجور مداه فيقول :

حاذروا أن تقرأوا أىَّ كتابٍ

فأنا أقرأ عنكمْ.

حاذروا أن تكتبوا أىَّ خطابٍ

فأنا أكتبُ عنكمْ.

حاذروا أن تسمعوا فيروزَ بالسرِّ

كما قال الحجاج فى خطبته لأهل العراق : اقرأ كتاب أمير المؤمنين يا غلام: فقال القارئ: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالعراق من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله، فسكتوا فقال الحجاج من فوق المنبر: "أسكت يا غلام"، فسكت، فقال:" يا أهل الشقاق، ويا أهل النفاق ومساوئ الأخلاق. يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون السلام؟ هذا أدب ابن أبيه؟ والله لئن بقيت لكم لأؤدبنكم أدباً سوى أدب ابن أبيه، ولتستقيمن لى أو لأجعلن لكل امرئ منكم فى جسده وفى نفسه شغلاً، اقرأ كتاب أمير المؤمنين يا غلام"، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم فلما بلغ إلى موضع السلام صاحوا وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته، فأنهاه ودخل قصر الإمارة .

وفى معنى عدم المشيب للحاكم يقول سمير عبد الباقى فى قصيدته (فوانيس الأراجوز التعيس فى ليل المد والتوريث) :

بتصبغ مشيك بنيلة وهباب

عشان تقنع الدنيا إنك شباب

فإنّى بنواياكمْ عليمْ

حاذروا أن تُنشدوا الشعرَ أمامى

فهو شيطانٌ رجيمْ

حاذروا أن تدخلوا القبرَ بلا أذنى ،

فهذا عندنا إثم عظيمْ

والزَموا الصمتَ إذا كلّمتُكمْ

فكلامى هوَ قرآنٌ كريمْ ..

فالثقافة ممنوعة ومضطهَدة ومصادَرة ومحظورة .. القراءة قراءة الكتب والمعرفة ممنوعة .. والكتابة كتابة أى شئ ممنوعة .. حتى الغناء وسماع فيروز والشعر ممنوع والموت لا يكون إلا بإذن رسمى من الحاكم .. وعندما تستمعون إلى خطابه التاريخى المقدس فالتزموا الصمت أيها الرعاع فهو قرآن كريم استمعوا إليه وأنصتوا ..

فصدّقنا ما دمّسه الكذب فينا

وطفحت علينا طباع الكلاب

من الجوع نشمشم نفايتك كباب !!

وفى معنى الاختفاء بالقصر وعدم رؤية الناس والبلاد ، يقول عبد الرحمن يوسف فى قصيدته الهاتك بأمر الله :

خلف الحراسة دوما مستعرضا قوتك .

وإذا كان العمل الأدبى فى الواقع تركيب فنى معادل للمشكلة الاجتماعية أو المشكلة السياسية أو هو- بعبارة أخرى - إعادة تشكيل لمادته الأولى التى يعالجها وهذا التشكيل المعاد يوازى - ولا يعكس - المادة الأولى التى يعالجها ، والموازاة تقتضى المغايرة بطبيعة الحال ، ويترتب على هذا أن الأدب كيان جديد مستقل عن

474

موضوعه ، وهذا الكيان هو رؤية الأديب الخاصة للموضوع الذى يعالجه . كما يقول د. محمود الربيعى فى كتابه (مقالات نقدية) .

لقد اقترب نزار من المشكلة التى يعالجها ، لكن هذا الاقتراب من المشكلة السياسية لم يضر فنيا العمل الشعرى لنزار ، بل على العكس ، فهذا الاقتراب ساهم فى التعبير عن هموم الإنسان العربى وجعله أكثر قدرة على فهم المجتمع الذى يعيش فيه وأعمق إحساسا به وأدق استجابة لما يحدث فيه ، يقول نزار على لسان الطاغية :

كلما فكّرتُ أن أعتزلَ السُّلطة ،

ينهانى ضميرى.

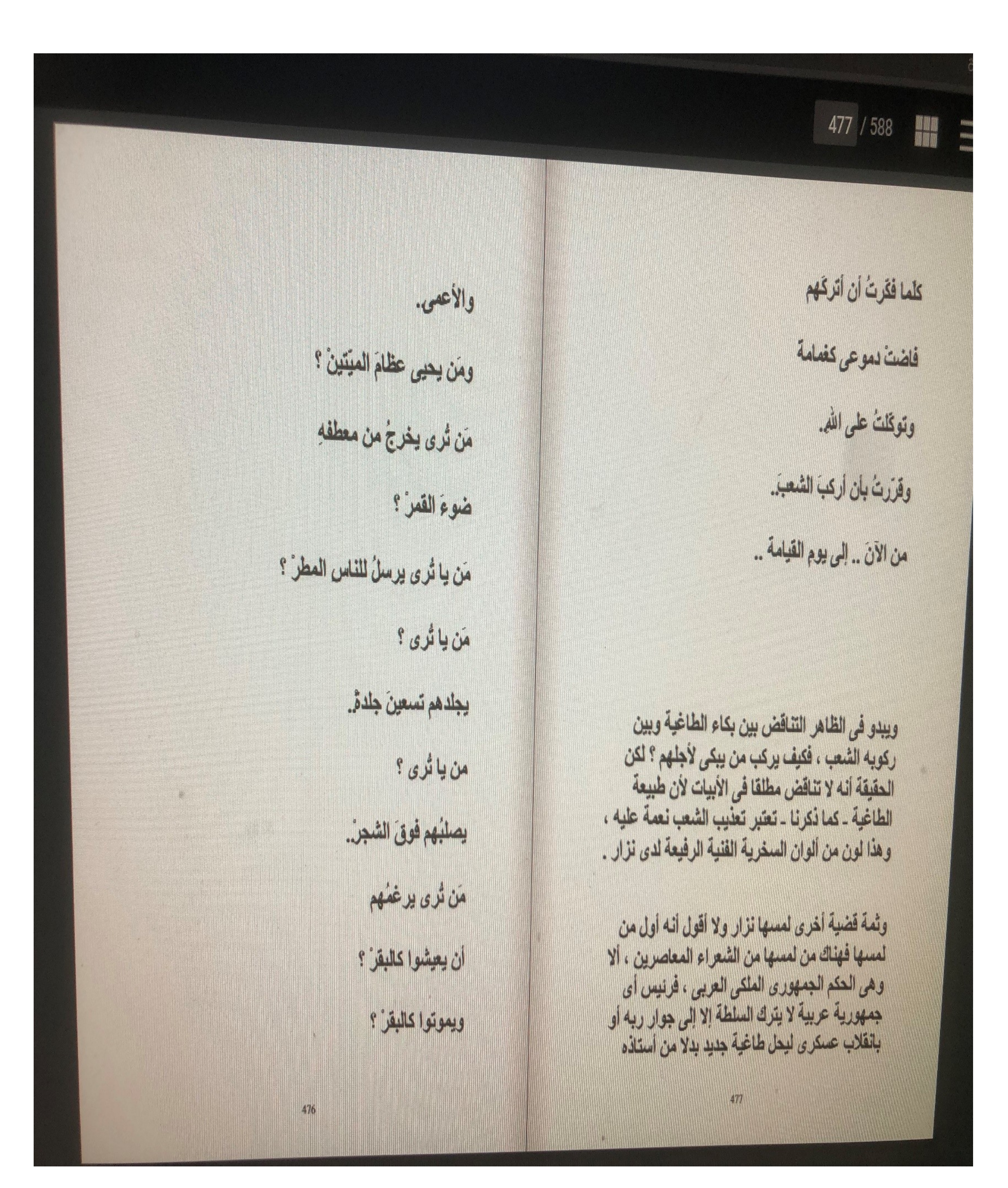
مَن تُرى يحكمُ بعدى هؤلاءِ الطيّبينْ ؟

مَن سيشفى بعدىَ.

الأعرجَ.

والأبرصَ.

475


477 / 588

كلما فكّرتُ أن أتركَهم

فاضتْ دموعى كغمامة

وتوكّلتُ على اللهِ.

وقرّرتُ بأن أركبَ الشعبَ.

من الآنَ .. إلى يوم القيامة ..

ويبدو فى الظاهر التناقض بين بكاء الطاغية وبين ركوبه الشعب ، فكيف يركب من يبكى لأجلهم ؟ لكن الحقيقة أنه لا تناقض مطلقا فى الأبيات لأن طبيعة الطاغية - كما ذكرنا - تعتبر تعذيب الشعب نعمة عليه ، وهذا لون من ألوان السخرية الفنية الرفيعة لدى نزار .

وثمة قضية أخرى لمسها نزار ولا أقول أنه أول من لمسها فهناك من لمسها من الشعراء المعاصرين ، ألا وهى الحكم الجمهورى الملكى العربى ، فرئيس أى جمهورية عربية لا يترك السلطة إلا إلى جوار ربه أو بانقلاب عسكرى ليحل طاغية جديد بدلا من أستاذه

477

والأعمى.

ومَن يحيى عظامَ الميّتينْ ؟

مَن تُرى يخرجُ من معطفهِ

ضوءَ القمرْ ؟

مَن يا تُرى يرسلُ للناس المطرْ ؟

مَن يا تُرى ؟

يجلدهم تسعينَ جلدةْ.

من يا تُرى ؟

يصلبُهم فوقَ الشجرْ.

مَن تُرى يرغمُهم

أن يعيشوا كالبقرْ ؟

ويموتوا كالبقرْ ؟

476

الذى يتفوق عليه دائما . وتعينه الدول الغربية على ذلك وتغض الطرف عنه خدمة لمصالحها لا مصالح الشعوب العربية .. ويدافع الحكام العرب عن بعضهم ويجاملون بعضهم بغلق موقع معارض على الانترنت موجه لحاكم عربى دكتاتورى صديق .. أو فضائية .. مجاملات فى الدكتاتورية .. كما فعلت السعودية بموقع لحركة كفاية المصرية .. أو تأييد مصر للسعودية والنظام اليمنى وأمريكا فى ضرب المعارضة اليمنية واليمنيين الزيديين الحوثيين (شعار الحوثيين : الله أكبر ، الموت لأمريكا ، الموت لإسرائيل ، اللعنة على اليهود) .. وأنظر للديمقراطية الحقيقية فى إيران وأنظر لتواضع الرئيس الإيرانى أحمدى نجاد الذى أزال السجاد الفارسى الفاخر من مكتبه وأرسله لمتحف السجاد ليصبح مكتبه ذا مظهر متواضع ، والذى يرفض استخدام قصور الشاه الفخمة .. والرئيس الفنزويلى هوجو شافيز الذى أخلى قصره للمشردين وسكن فى خيمة أهداها له القذافى .. تماما كما كان جمال عبد الناصر عفيف النفس طاهر اليد .

وكل طاغية ، وخاصة فى العصر الحديث محب للإعلام وللأغانى والقصائد التى يتردد فيها اسمه إلى حد الجنون وهو مستعد لتبديد ثروة البلاد والشعب فى سبيل شراء وسائل الإعلام التى تمجده وتدعو إليه ، كما سبق أن ذكرنا .. (اشتروا لى صحفا تكتب عنى .... إن عصرى عصر هارون الرشيد) .

والذى يلفت النظر اعتراف الطاغية بأنه لا يجيد ولا يعرف القراءة ولا الكتابة (أمى) .. وبأنه جاهل أجهل من دابة ، وهى لا تعنى فقط الأمية بمعنى عدم معرفة القراءة والكتابة وهو المعنى السائد المعروف (كما فى حال آل سعود مثلا الذين لا يجيدون قراءة خطبهم فعلا) ، بل ربما عنت أيضا عدم قدرة الطاغية على سماع اى شئ أو قراءة اى شئ إلا إذا كان مدحا فيه وتمجيدا لسيفه الصارم ، فهو يصم أذنيه ويغمض عينيه عن رؤية وسماع احتجاجات الشعب والمعارضة ، وعن آلام الشعب وأناته ، ونلاحظ أيضا استخدام الشاعر لصيغة "أيها الناس" التى لم ترد فى القرآن الكريم إلا مقرونة بالله تعالى (غالبا وقد ذكرت على لسان سليمان : وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير) وهذا توظيف جيد من الشاعر ، لكن عندما يأمر الطاغية الشعب بشراء الصحف والأقلام التى تكتب عنه هل يستجيب هذا الشعب أم يثور ؟ يقول الشاعر فى قصيدته (عزف منفرد على الطبلة) :

الحاكم يضرب بالطبلة

وجميع وزارات الإعلام تدق على ذات الطبلة

وجميع وكالات الأنباء تضخم إيقاع الطبلة

والصحف الكبرى .. والصغرى

تعمل أيضاً راقصة

فى ملهى تملكه الدولة ! .

والطبلة هنا رمز لكذب الطاغية الذى تردده كل وكالات الأنباء والصحف ، وتوظيف الرمز أتى بشكل رائع ورقيق فى ذات الوقت لأن الرمز له إيقاع نغمى يتلذذ به الطاغية وحاشيته ، وكذلك المرموز وهو الكذب له إيقاع البهجة الخادعة فى نفوس الطاغية والحاشية على حد سواء (كما أن مصطلح المطبلين يستعمل عادة لوصف حملة المباخر للحاكم ومنافقيه) .. ولعل ما يوضح ذلك قول الشاعر :

الكذب الرسمى يبث على كل الموجات.

وكلام السلطة براقٌ جداً..

كثياب الراقصات ...

ونحن نلحظ أن الشاعر عندما يلجأ إلى التجسيد لا يلجأ إليه عفويا إنما يلجأ إليه للتحريض على ما يرفضه ويستنكره وبذلك يتحول التجسيد إلى صدمة هدفها إثارة القارئ وتحريك مشاعره الغاضبة بقوة وعنف .

ويأتى شعر نزار عن عربدة الطغاة العرب - دون رادع - مفعما بالمرارة والأوجاع والحسرة التى تملأ قلب الإنسان العربى والمجتمع العربى بأسره :

الدولة تحسن تأليف الكلمات

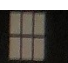
وتجيد النصب.. تجيد الكسر.. تجيد الجر..

تجيد استعراض العضلات

لا يوجد شعرٌ أردأ من شعر الدولة

لا يوجد كذبٌ أذكى من كذب الدولة

صحفٌ. أخبارٌ. تعليقات



خوذٌ لامعة تحت الشمس،

نجومٌ تبرق فى الأكتاف،

بنادق كاذبة الطلقات،

وطنٌ مشنوقٌ فوق حبال الأنتينات

وطنٌ لا يعرف من تقنية الحرب سوى الكلمات

وطنٌ ما زال يذيع نشيد النصر على الأموات ..

والأنتينات بالعامية السورية antennas هى الإريال بالعامية .. أى هوائى التلفزيون ..

ومن الأشياء المسلم بها أن العالم العربى بأسره يدعى الحرية والديمقراطية ولكل دولة واجهتها الإعلامية التى ترفع شعارات العدالة والمساواة والشورى ، وبعضها يفتى (كالسعودية) بأن الديمقراطية والحرية والشعبية والاشتراكية مصطلحات كافرة غربية ورجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ، والسعودية تسمى نفسها

مملكة الإنسانية للتغطية على جرائم الجلد آلاف الجلدات وقطع الرؤوس

الدولة منذ بداية هذا القرن تعيد تقاسيم الطبلة

"الشورى – بين الناس – أساس الملك"

"الشعب – كما نص الدستور – أساس الملك"

لا أحدٌ يرقص بالكلمات سوى الدولة،

لا أحدٌ يزني بالكلمات،

سوى الدولة !!

لكن الحقيقة تكمن خلف هذه الشعارات وهى قهر الإنسان وسجنه وتعذيبه وتأليه الحكام ، واستعمال كلمات لإضفاء العصمة وضمان عدم الجرأة على مس الحاكم مثل لقب خادم الحرمين مثلا أو بلاد الحرمين



485 / 588

ومنبع الرسالة كيلا تنتقد السعودية فى مسماها وسيفها وشعارها وحكامها :

لا أحدٌ يزنى بالكلمات،

سوى الدولة!!

"القمع أساس الملك"

"شنق الإنسان أساس الملك"

"حكم البوليس أساس الملك"

"تجديد البيعة للحكام أساس الملك"

"وضع الكلمات على الخازوق

أساس الملك..."

والسلطة تعرض فتنتها

وحلاها فى سوق الجملة..

لا يوجد عرىٌ أقبح من عرى الدولة ...

وهنا تبرز هوية دولة القمع وهوية المواطنين .

طبلة .. طبلة..

وطنٌ عربي تجمعه من يوم ولادته طبلة..

وتفرق بين قبائله طبلة..

وأهل الذكر، وقاضى البلدة..

تحترقُ الثمارْ

ويصبحُ الإنسانُ فى موطنِهِ

أذلَّ من صرصارْ ..

لذلك كله يعلن نزار الثورة على هذه الأنظمة وهو مؤمن بحتميتها " لأن أخطر ما يقع فيه الشاعر هو السقوط فى صمغ الطمأنينة ومهادنة الأشياء التى تحيط به والشاعر الذى لا يعرف قشعريرة الصدام مع العالم يتحول إلى حيوان أليف استؤصلت منه غدد الرفض والمعارضة " كما يذكر فى كتابه (قصتى مع الشعر) . يقول نزار فى قصيدته (تقرير سرى جدا من بلاد قمعستان) :

من أجل هذا أعلن العصيان

باسم الملايين التى تساق نحو الذبح كالقطعان

باسم الذين انتزعت أجفانهم

واقتلعت أسنانهم

وذوبوا فى حامض الكبريت كالديدان

باسم الذين ما لهم صوت..

ولا رأى ...

ولا لسان..

سأعلن العصيان..

من أجل هذا أعلن العصيان

باسم الجماهير التى تجلس كالأبقار

تحت الشاشة الصغيرة

باسم الجماهير التى يسقونها الولاء

بالملاعق الكبيرة

باسم الجماهير التى تركب كالبعير

من مشرق الشمس إلى مغربها

تركب كالبعير..

وما لها من الحقوق غير حق الماء والشعير

وما لها من الطموح غير أن تأخذ للحلاق زوجة الأمير

أو ابنة الأمير..

أو كلبة الأمير..

باسم الجماهير التي تضرع لله لكى يديم القائد العظيم

وحزمة البرسيم..

ومما ساعد على جمال هذه الدفعة الرافضة لهذا الواقع المتردى ، تثوير اللغة مع مراعاة هذا الواقع بحيث تصبح الكلمات الثورية ذات مغزى فكرى عميق وذلك

لأن نزارا يؤمن أن العمل على تقديم لغة ثورية أو تثوير اللغة بمعزل عن حركة الواقع ، وبمعزل عما تنقله هذه اللغة إلى الوعى ، يؤدى إلى الانفصال عن الثورة ، وإلى الوقوع فى شباك النقيض الأيديولوجى .كما يذكر محمد دكروب فى كتابه (الأدب الجديد والثورة) .

لذلك تأتى صرخة نزار الثورية وتلاحمه مع أمته وشعبه وعروبته ، فى قصيدته (هجم النفط مثل ذنب علينا) :

يا بلاداً بلا شعوبٍ .. أفيقى

واسحبى المستبد من رجليه

يا بلاداً تستعذب القمع .. حتى

صار عقل الإنسان فى قدميه

كيف يا سادتى، يغنى المغنى

بعدما خيطوا له شفتيه ؟

ونزار بهذا الإعلان الثورى يريد العزة لنفسه ووطنه وأمته وهو يعرف سلفا أن الجراح الناتجة عن القهر والبطش لا يمكن تضميدها إلا بنفس الأسلوب مع الطاغية لذلك أراد لنفسه أن يكون ضمن القوى الشعبية العربية التى تتطلع إلى غد مشرق ، وكما يقول فرانز فانون فى كتابه (معذبو الأرض) : "من أجل أن تؤثر تأثيرا صادقا يجب أن تكون أنت نفسك جزءا حيا من شعبك وفكره ، يجب أن تكون عنصر الطاقة الشعبية المجندة كلها لتحرير الوطن وتقدمه وسعادته".

هل إذا مات شاعرٌ عربىٌ

يجد اليوم من يصلى عليه ؟..

من شظايا بيروت .. جاء إليكم

والسكاكين مزقت رئتيه

رافعاً راية العدالة والحب

وسيف الجلاد يومى إليه

قد تساوت كل المشانق طولاً

وتساوى شكل السجون لديه

لا يبوس اليدين شعرى .. وأحرى

بالسلاطين، أن يبوسوا يديه

الخاتمة

لعلنا نستطيع القول - فى هذه الخاتمة - بأن نزار قبانى شاعر سياسى عملاق ، فقد واكب أحداث وطنه الجسام واستطاع أن يعبر عنها من خلال فنه الشعرى الرفيع . وهو من الشعراء العرب القلائل الذين تقلدوا مناصب دبلوماسية ، فقد عمل فى السلك الدبلوماسى ما يقرب من اثنين وعشرين عاما تعرف خلالها على مواضع العفن السياسى فى الوطن العربى مما جعله صاحب رؤية سياسية لمشكلات أمته ، ونستطيع أن نوجز نتائج دراسة شخصيته فيما يأتى :

(1) آمن نزار بأن للشعر وظيفة تطهيرية للمجتمع العربى فلابد للشعر أن يحدث الزلازل ويسقط الطغاة والطغيان . يقول فى قصيدته (تقرير سرى جدا من بلاد قمعستان) :

ما هو الشعر إذا لم يعلن العصيان ؟

وما هو الشعر إذا لم يسقط الطغاة والطغيان ؟

وما هو الشعر إذا لم يحدث الزلزال

فى الزمان والمكان ؟

كما ينبغى أن تكون رسالة الشعراء مقدسة لا يخافون بأس الحكام وبطشهم بل ينبغى أن يتحملوا العنت والاضطهاد مثل الأنبياء ، كما فى قصيدته (إفادة فى محكمة الشعر) :

يُصلبُ الأنبياءُ مـن أجل رأى

فلماذا لا يُصلبَ الشعراءُ ؟

وفى قصيدته (أنا يا صديقة متعب بعروبتى) :

فلربما تجد العروبة نفسها

ويضئ فى قلب الظلام شهاب

لذلك فهو ينفر من الحواجز المصطنعة بين أبناء الأمة العربية فهذه الحواجز قامت حسب مشيئة الاستعمار وتقسيماته ، وحسب مشيئة الحكام العرب ، وضد شعور الشعوب العربية جميعها ، ومن ثم دافع بحرارة عن الوحدة العربية لأنها الإطار الوحيد للانتصار على العدو .

ودافع عن الزعيم الخالد جمال عبد الناصر لأنه يرى فيه رمزا للقومية العربية وللوحدة العربية ، وقد حذر نزار من التفرقة ملوحا بمصير الأندلس عندما اختلف المسلمون وتفرقوا فيها من ذى قبل وتناحروا عربا وبربرا وقبائل شتى .

(2) استطاع نزار أن يجسد إلى حد ما مأساة لبنان محملا العرب أجمعين حكاما وشعوبا كل ما تتعرض له من تمزق ودمار واقتتال ، فهى مأساة شخصية له

بموت بلقيس تحت أنقاض السفارة العراقية فى بيروت ومأساة أمة بأسرها لاستمرار القتال وعدم وجود بادرة أمل لإخماد نيرانه ، وقد تغلغل نزار داخل المأساة اللبنانية ولم يكتف بالسرد السطحى للأحداث .

(3) تحدث نزار عن الحرية العربية المفقودة في كافة أرجاء الوطن العربى مبينا عواقب امتهان آدمية الإنسان العربى لأن الفرد المُهان لا يصنع تقدما أو نصرا لأمته ، وبذلك تصبح الأمة كلها مهانة وهذا ما وضح فى قصيدته "هوامش على دفتر النكسة" التى قيلت بعد نكسة 1967 مباشرة ، كما أفرد دواوينه السياسية لهذه القضية وهى "أشعار خارجة على القانون" "قصائد مغضوب عليها" "تزوجتك أيتها الحرية" "هوامش على الهوامش" "الكبريت فى يدى ودويلاتكم من ورق" "الحب لا يقف على الضوء الأحمر" "بلقيس" . وكان نزار سفير ونصير الحرية الفكرية والسياسية والاجتماعية والعاطفية والفكرية والثقافية بكل أنواعها ، لتبسط جناحيها على شعوب الأمة العربية .

(4) بعد أن تعدى نزار السبعين من عمره وجد أن شعره لم يحرك الجسد العربى الميت البليد المتخلف الجاهل الضال (خصوصا فى مصر والسعودية) الذى مات منذ زمن بعيد وفقد القدرة على مواكبة العصر ،

فما كان منه إلا أن أعلن أن العرب لا وجود لهم ، فأرسل صيحة مدوية عنوانها "متى يعلنون وفاة العرب ؟" . يقول فيها :

أنا منذ خمسينَ عاما،

أراقبُ حالَ العربْ.

وهم يرعدونَ ، ولا يمُطرونْ ...

وهم يدخلون الحروب ، ولايخرجونْ...

وهم يعلِكونَ جلود البلاغةِ عَلْكا

ولا يهضمونْ.

أنا منذ خمسينَ عاما

أحاولُ رسمَ بلادٍ

تُسمّى - مجازا - بلادَ العربْ

رسمتُ بلون الشرايين حينا

وحينا رسمت بلون الغضبْ.

وحين انتهى الرسمُ ، ساءلتُ نفسى:

إذا أعلنوا ذاتَ يومٍ وفاة العربْ ...

ففى أى مقبرةٍ يُدْفنونْ ؟

ومَن سوف يبكى عليهم ؟

وليس لديهم بناتٌ...

وليس لديهم بَنونْ...

وليس هنالك حُزْنٌ ،

وليس هنالك مَن يحْزُنونْ !!

أحاولُ منذ بدأتُ كتابة شِعْرى

قياسَ المسافةِ بينى وبين جدودى العربْ.

رأيتُ جُيوشا ... ولا من جيوشْ ...

رأيتُ فتوحا ... ولا من فتوحْ ...

وتابعتُ كلَ الحروبِ على شاشةِ التلفزة ...

فقتلى على شاشة التلفزة ...

وجرحى على شاشة التلفزة ...

ونصرٌ من الله يأتى إلينا ... على شاشة التلفزة..

أيا وطنى : جعلوك مسلْسلَ رُعْبٍ

نتابع أحداثهُ فى المساءْ.

فكيف نراك إذا قطعوا الكهْرُباءْ ؟؟

أنا ... بعْدَ خمسين عاما

أحاول تسجيل ما قد رأيتْ ...

رأيتُ شعوبا تظنَ بأنّ رجالَ المباحثِ

أمرٌ من الله ... مثلَ الصُداعِ ... ومثلِ الزُكامْ ...

ومثلَ الجُذام ... ومثل الجَرَبْ ...

رأيتُ العروبةَ معروضةً في مزادِ الأثاثِ القديمْ ...

ولكننى ... ما رأيتُ العَرَبْ !! ...

****

ونختم الكتاب بهذه القصيدة الرائعة لنزار والتى أهديها لمبارك وآل سعود وكل مصادرى الكتب والصحف وحاجبى مواقع الانترنت ، من يوميا كلب مثقف ، وورى فيها عن الإنسان المثقف بالكلب :

__من يوميات كلب مثقف__

مولاى ..... مولاى

لا أريد منك ياقوتاً ولا ذهب

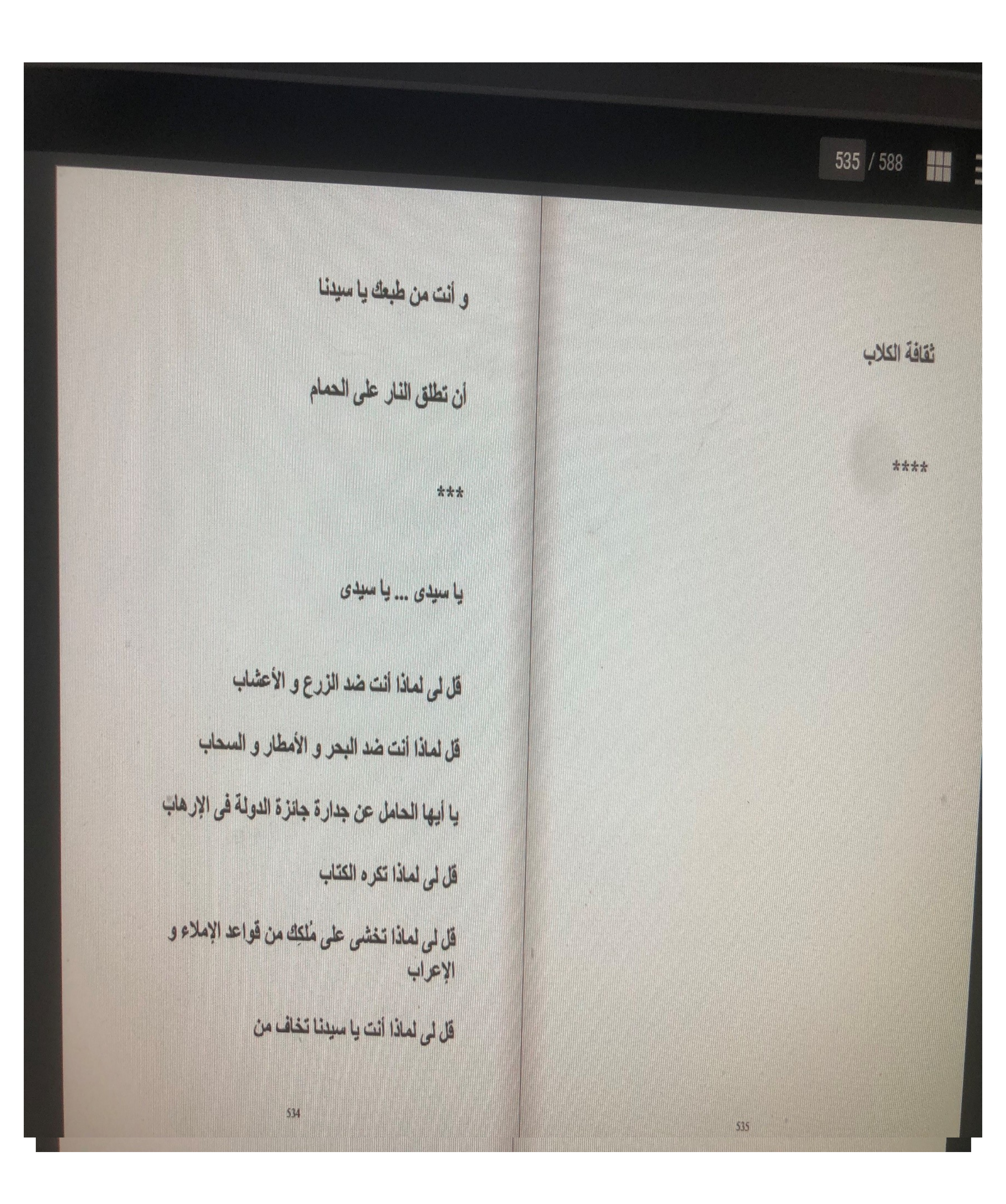
ولا أريد منك أن تلبسنى الديباج و القصب

كل الذى أرجوه أن تسمعنى

لأننى أنقل فى قصائدى إليك

جميع أصوات العرب

جميع لعنات العرب


535 / 588

و أنت من طبعك يا سيدنا

أن تطلق النار على الحمام

***

يا سيدى ... يا سيدى

قل لى لماذا أنت ضد الزرع و الأعشاب

قل لماذا أنت ضد البحر و الأمطار و السحاب

يا أيها الحامل عن جدارة جائزة الدولة فى الإرهاب

قل لى لماذا تكره الكتاب

قل لى لماذا تخشى على مُلكِك من قواعد الإملاء و الإعراب

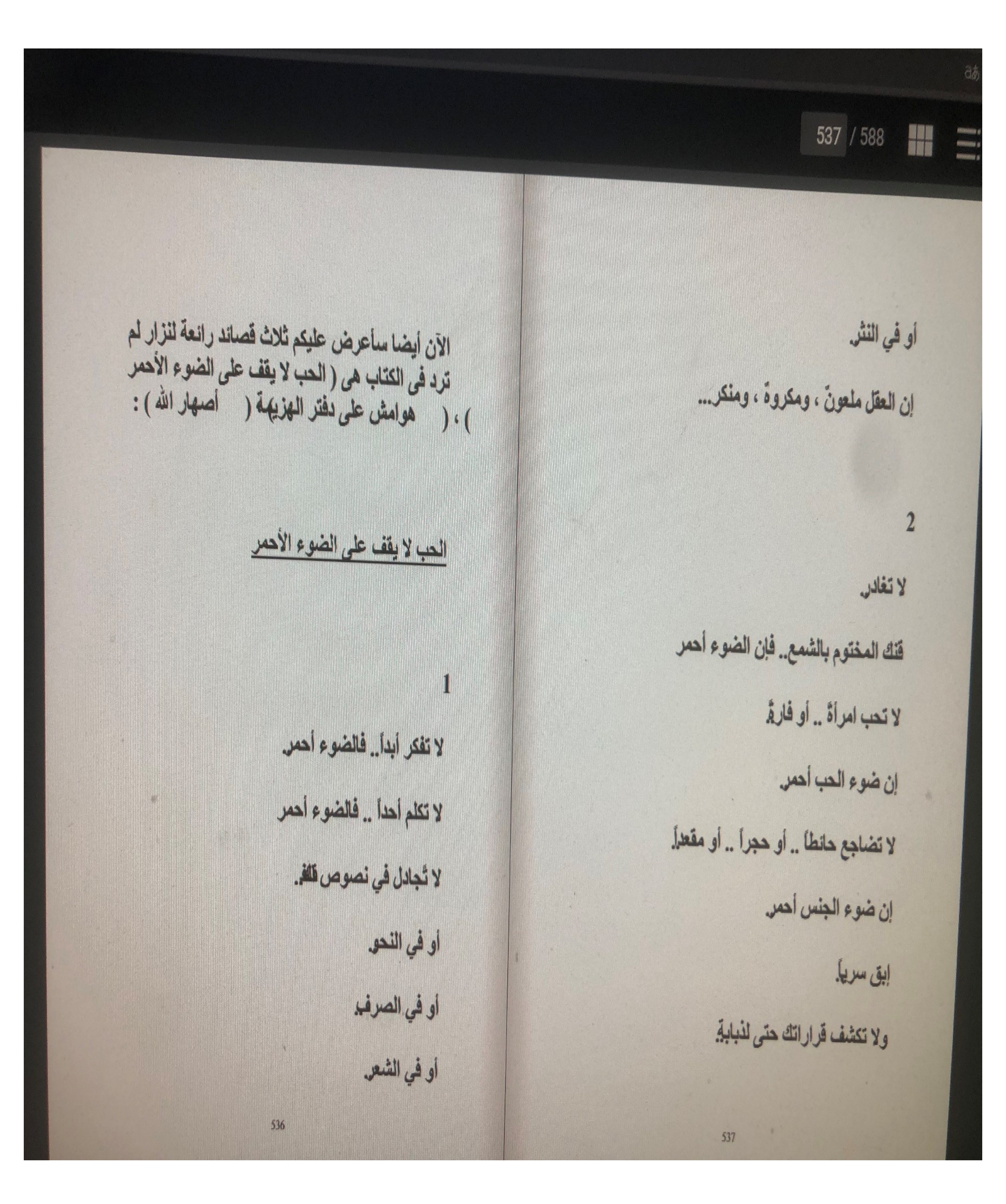
قل لى لماذا أنت يا سيدنا تخاف من

534

ثقافة الكلاب

****

535



537 / 588

الآن أيضا سأعرض عليكم ثلاث قصائد رائعة لنزار لم ترد فى الكتاب هى (الحب لا يقف على الضوء الأحمر) ، (هوامش على دفتر الهزيمة (أصهار الله) :

الحب لا يقف على الضوء الأحمر

1

لا تفكر أبداً.. فالضوء أحمر.

لا تكلم أحداً .. فالضوء أحمر

لا تُجادل في نصوص الفقه.

أو في النحو.

أو في الصرف.

أو في الشعر.

536

أو في النثر.

إن العقل ملعونٌ ، ومكروهٌ ، ومنكر...

2

لا تغادر.

قنك المختوم بالشمع.. فإن الضوء أحمر

لا تحب امرأةً .. أو فارةً

إن ضوء الحب أحمر.

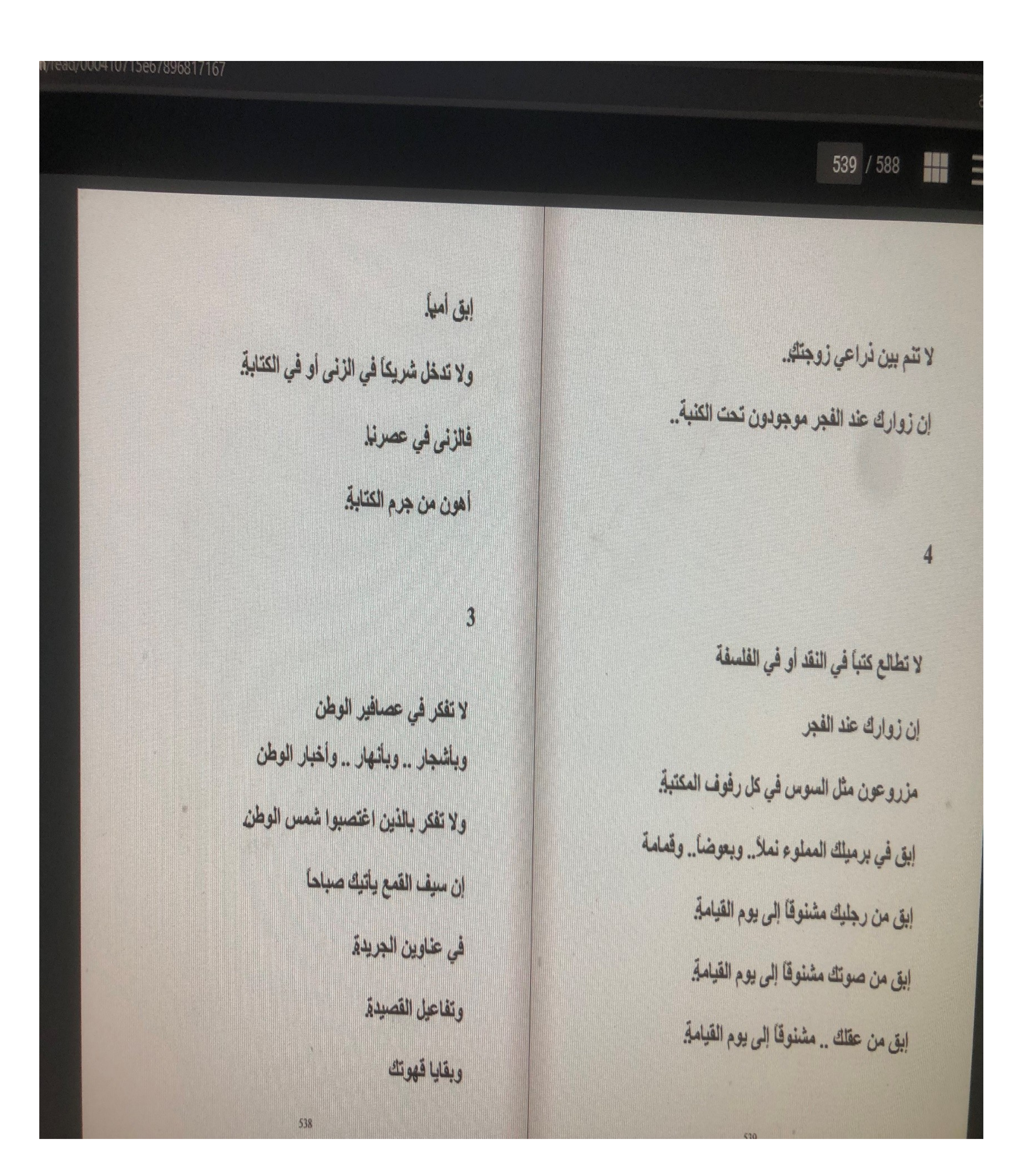
لا تضاجع حائطاً .. أو حجراً .. أو مقعداً.

إن ضوء الجنس أحمر.

إبق سرياً.

ولا تكشف قراراتك حتى لذبابة.

537



إبق أمياً.

ولا تدخل شريكاً في الزنى أو في الكتابة.

فالزنى في عصرنا.

أهون من جرم الكتابة.

3

لا تفكر في عصافير الوطن

وبأشجار .. وبأنهار .. وأخبار الوطن

ولا تفكر بالذين اغتصبوا شمس الوطن

إن سيف القمع يأتيك صباحاً

في عناوين الجريدة

وتفاعيل القصيدة

وبقايا قهوتك

لا تنم بين ذراعي زوجتك..

إن زوارك عند الفجر موجودون تحت الكنبة..

4

لا تطالع كتباً في النقد أو في الفلسفة

إن زوارك عند الفجر

مزروعون مثل السوس في كل رفوف المكتبة

إبق في برميلك المملوء نملاً.. وبعوضاً.. وقمامة

إبق من رجليك مشنوقاً إلى يوم القيامة

إبق من صوتك مشنوقاً إلى يوم القيامة

إبق من عقلك .. مشنوقاً إلى يوم القيامة

إبق في البرميل.. حتى لا ترى

وجه هذي الأمة المغتصبة.

5

أنت لو حاولت أن تذهب للسلطان

أو زوجته.

أو كلبه المسؤول عن أمن البلاد.

والذي يأكل أسماكاً.. وتفاحاً.. وأطفالاً.

كما يأكل من لحم العباد.

لوجدت الضوء أحمر.

6

أنت لو حاولت أن تقرأ يوماً

نشرة الطقس.. وأسماء الوفيات.. وأخبار الجرائم

لوجدت الضوء أحمر.

أنت لو حاولت أن تسأل عن سعر دواء الربو

أو أحذية الأطفال

أو سعر الطماطم

لوجدت الضوء أحمر.

أنت لو حاولت أن تقرأ يوماً

صفحة الأبراج

كي تعرف ما حظك قبل النفط

أو حظك بعد النفط

أو تعرف ما رقمك بين طوابير البهائم

لوجدت الضوء أحمر.

7

أنت لو حاولت.

مراجع الكتاب

- د. محمد مصطفى هدارة - دراسات ونصوص فى الأدب العربى - دار المعرفة الجامعية - مصر 1985م .

- د. خريستو نجم - النرجسية فى أدب نزار قبانى .

- شاكر النابلسى - رغيف النار والحنطة - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 1986م .

- أحمد زكى أبو شادى - شعراء العرب المعاصرون .

- سامى الكيالى - الأدب العربى المعاصر فى سوريا- دار المعارف المصرية .

- محمد حسنين هيكل - ما تحقق يوم 6 أكتوبر 1973 م كان ردا عظيما على ما حدث فى 5 يونيه67 - الأهرام - القاهرة - بتاريخ11/12/ 1987م .

- فاروق شوشة - شاعر اليقين القومى - مجلة إبداع- القاهرة - العدد (10) السنة الأولى أكتوبر 1983م .

- نزار قبانى - الأعمال السياسية الكاملة - مجلدان- منشورات نزار قبانى - لبنان .



577 / 588

- نزار قبانى - الأعمال الشعرية الكاملة 5 مجلدات- منشورات نزار قبانى - لبنان .
- نزار قبانى - الأعمال النثرية الكاملة - مجلدان- منشورات نزار قبانى - لبنان .
- س . موريه - الشعر العربى الحديث - ترجمة د شفيع السيد وسعد مصلوح ، دار الفكر العربى .
- نزار قبانى - ما هو الشعر ؟
- نزار قبانى - ديوان لا .
- د. عز الدين إسماعيل - فى التفسير النفسى للأدب- دار العودة بيروت 1981م .
- د. محمد أبو الأنوار - الشعر العباسى - مكتبة الشباب ، القاهرة .
- د. شكرى محمد عياد - البطل فى الأدب والأساطير- 1959م - دار المعرفة بالقاهرة .
- هربرت ريد - الفن والمجتمع - ترجمة : فتح الباب عبد الحليم - مطبعة شباب محمد - القاهرة .
- ن زار قبانى - قصتى مع الشعر .
- محيى الدين صبحى - نزار قبانى شاعرا وإنسانا .

- بسام منصور - زهرة النرجس انضمت إلى الماء- النهار العربى والدولى فى 9/1/ 1982م.
- جهاد فاضل - ماتت بلقيس فترمل الشعر - مجلة الحوادث العدد 1318 بتاريخ 5/2/ 1982م .
- نزار قبانى - أشهد أن لا امرأة إلا أنت .
- نزار قبانى - أشعار خارجة على القانون .
- نزار قبانى - قصيدة بلقيس .
- نزار قبانى - الكتابة عمل انقلابى .
- نزار قبانى - كل عام وأنت حبيبتى .
- نزار قبانى - قصائد مغضوب عليها .
- نزار قبانى - السيرة الذاتية لسياف عربى - دار رياض الريس للنشر ، لندن 1987م .
- عمر الدقاق - المسرحية الشعرية - مجلة المعرفة السورية 1970م ، عدد 96 .
- سلمى الخضراء الجيوشى - شعر نزار قبانى وثيقة اجتماعية - مجلة الآداب - بيروت 1957م ، عدد 11 .
- شاكر النابلسى - الضوء واللعبة استكناه نقدى لنزار قبانى .

- د. محمد مندور - فى الأدب والنقد - دار نهضة مصر ، القاهرة 1978 م .

- د. محمود الربيعى - مقالات نقدية ، مكتبة الشباب .

- روجيه جارودى - فلسطين أرض الرسالات السماوية .

- ألكسندر فايل - موسى والتلمود ، باريس 1864م .

- الصهيونية العالمية وإسرائيل. حسن ظاظا وآخرون .

- مظفر النواب - ديوان القدس عروس عروبتكم .

- د. رشاد عبد الله الشامى - الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية - سلسلة عالم المعرفة . العدد 102 . يونيو 1986 م .

- وجيه أبو ذكرى - الإرهابيون الأوائل جيراننا الجدد

- اعترافات كيسنجر - موسى صبرى - توزيع أخبار اليوم - القاهرة 1980م .

- الأهرام أعداد 20602 ، 20605 بتاريخ 9/23/ 1970 9/26/ 1970 م .

- محمود درويش - أقوال معاصرة - مجلة العربى العدد 290 يناير 1983م ، وزارة الإعلام الكويتية .

- إرنست فيشر - ضرورة الفن - ترجمة : أسعد حليم- المؤسسة المصرية - القاهرة 1971م .

- د. غالى شاكر - أدب المقاومة ، دار الآفاق الجديدة- بيروت 1979م .

- د. سعد الدين إبراهيم - النظام الاجتماعى العربى الجديد - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت 1972 م .

- رجاء النقاش - مأساة لبنان ومأساة الشاعر المنتحر - مجلة الدوحة - العدد 80 - أغسطس 1982م.

- د. محمد فتوح أحمد - الرمز والرمزية فى الشعر المعاصر .

- د. أنس داود - استخدام الأساطير فى الشعر العربى المعاصر - رسالة دكتوراه كلية دار العلوم .

- زهير ميرزا- أبو ماضى شاعر المهجر الأكبر - اليقظة ، دمشق 1954م .

- أبو خلدون ساطع الحصرى - ما هى القومية ؟

- أبو خلدون ساطع الحصرى - محاضرتان فى نشوء القومية .

- مجموعة من أساتذة جامعة القاهرة - دراسات فى المجتمع العربى - دار النهضة العربية .

- أنيس المقدسى - الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث .

- د. محمد حسين - الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر .

- عبد الرحمن الرافعى - تاريخ القومية العربية وتطورها فى نظام الحكم فى مصر .

- عبد الرحمن الرافعى - محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية .

- د. على الدين هلال ، جميل مطر - النظام الإقليمى- مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت 1979م .

- أبو خلدون ساطع الحصرى - العروبة أولا .

- خليل محشى - التربية المدرسية والعطاء العلمى فى البلاد العربية - مجلة المستقبل العربى - بيروت- 1985م - عدد 77 .

- عبد العزيز محمد - رسائل خطيرة لم يقرأها أحد- جريدة الوفد - القاهرة 1987م بتاريخ1/10/ 1987م .

- د. خالد الناصر - أزمة الديمقراطية فى العالم العربى ، ملف ندوة الديمقراطية وحقوق الإنسان فى الوطن العربى - مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت 1983م .

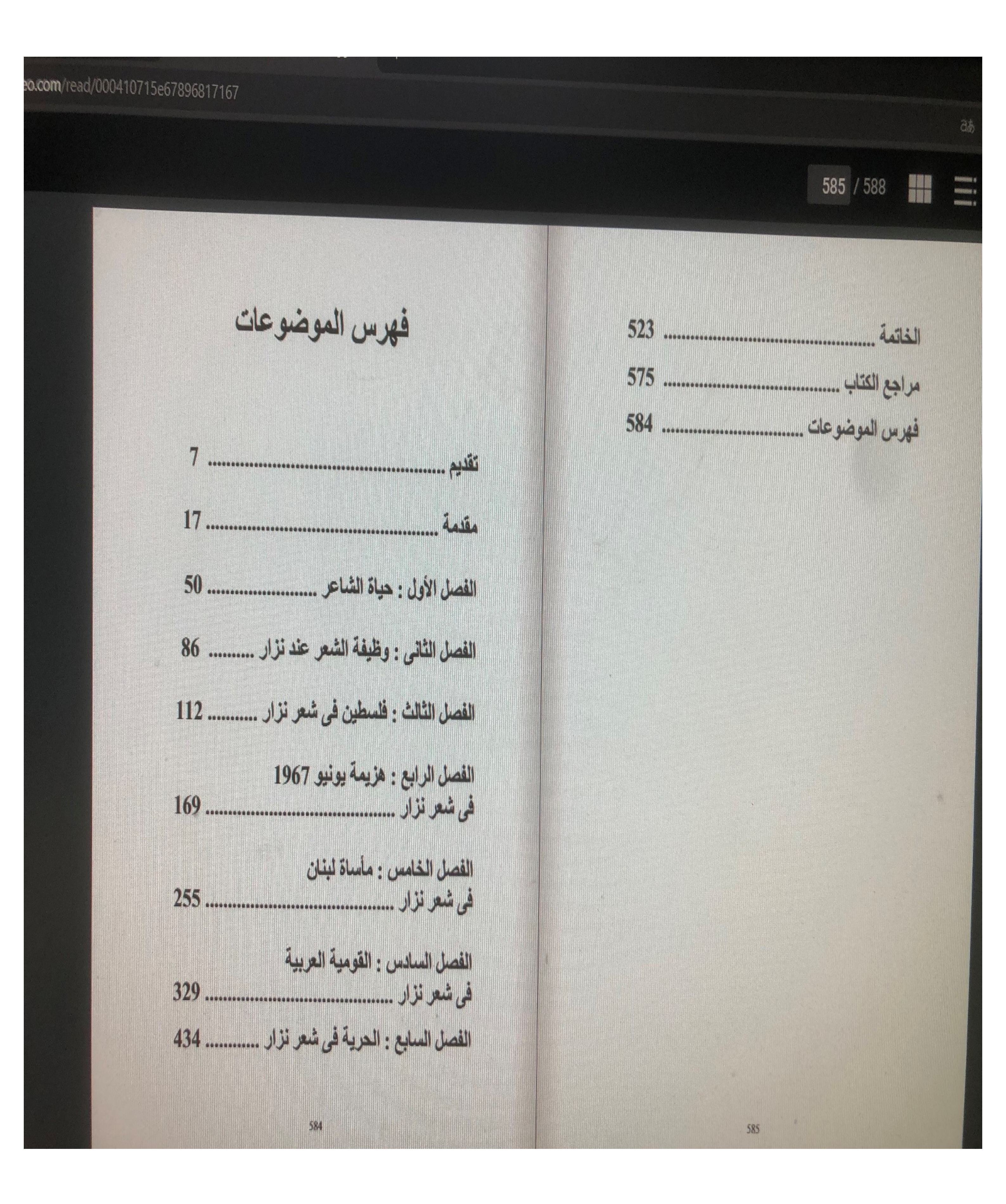
- د. إسماعيل صبرى عبد الله - المقومات الاقتصادية والاجتماعية فى العالم العربى ، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت 1983م .

- عبد الله العروى - مفهوم الحرية - دار التنوير- بيروت 1983م .

- د. على الدين هلال - الديمقراطية وهموم الإنسان العربى المعاصر - مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت 1983م .

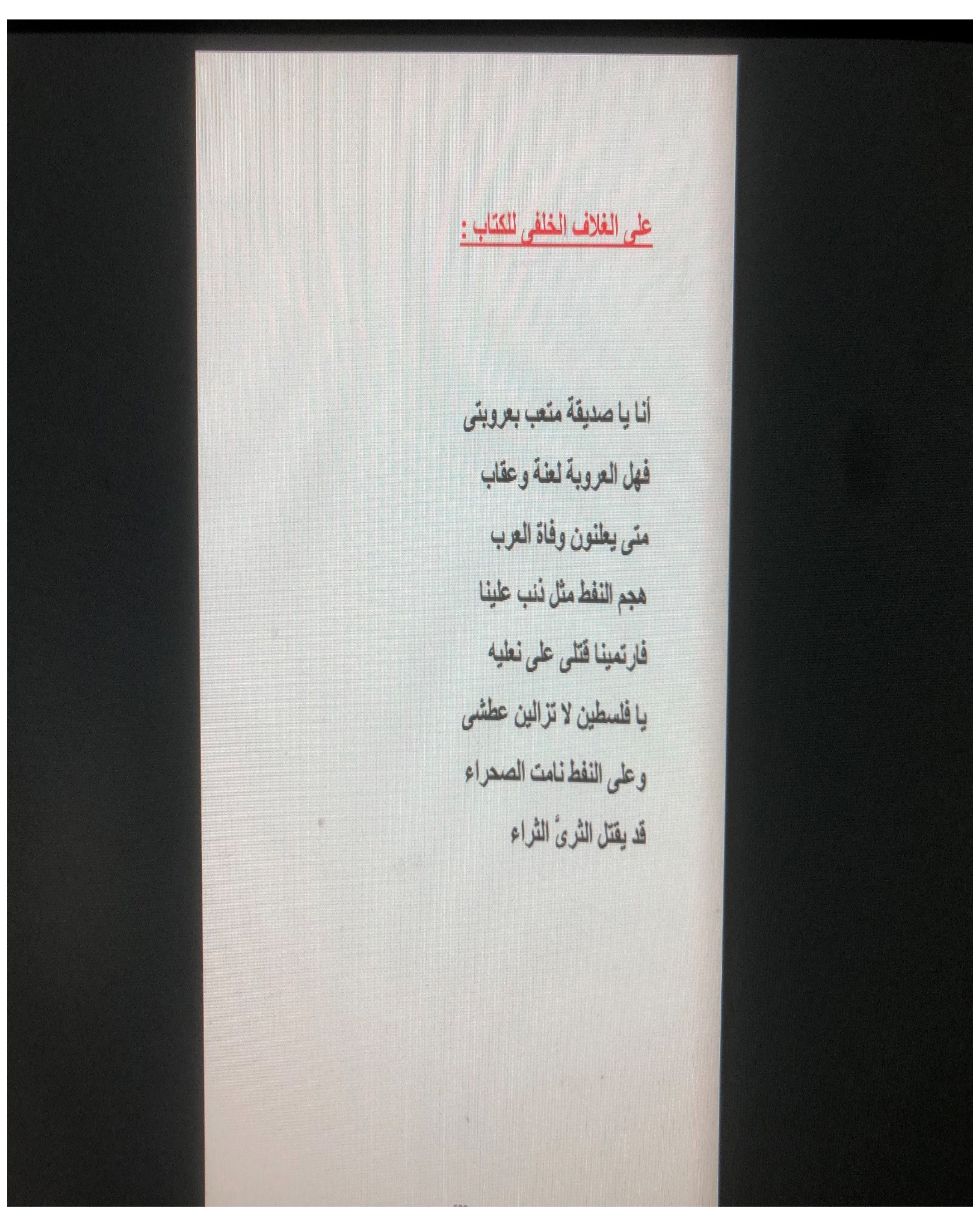
- محمد دكروب - الأدب الجديد والثورة - دار الفارابى ، بيروت 1980م .

- فرانز فانون - معذبو الأرض - دار الطليعة - بيروت 1981م .


eo.com/read/000410715e67896817167

585 / 588

فهرس الموضوعات



على الغلاف الخلفى للكتاب :

أنا يا صديقة متعب بعروبتى

فهل العروبة لعنة وعقاب

متى يعلنون وفاة العرب

هجم النفط مثل ذنب علينا

فارتمينا قتلى على نعليه

يا فلسطين لا تزالين عطشى

وعلى النفط نامت الصحراء

قد يقتل الثرىً الثراء